رامي السلقيني
رواية
رقصة مع الموت
(الجزء الثاني من عزرائيل المدينة)

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

رواية

عزرائيل المدينة

الجزء الثاني: رقصة مع الموت

رامي السلقيني

الإهـــــــــداء

إلى التي طُلِيَت أصابعها بمرهم من شفاه الأمهات، فلا يمر على جرح إلا ويُشفى.

إلى أمي الثانية.. أختي.

الفصل الأول

سكرات الموت والحياة

الموت ليس بالبساطة التي تتصورها، إنه ليس زفيراً تفيض فيه الروح مع الهواء.. الموت سَكرات، عذاب طويل تكاد تتمنى معه خروج روحك لينتهي ألمك، وحينها.. قد تُرحَم فتموت!
أفضل طريقة لوصف الموت هو أنه الوحدة المُجسّدة، والبرد القارس الذي ينخر عظاماً ميتة ويبعث فيها أوجاعاً تجعلها تشُكّ في كونها ميّتة.. إنه انتظار البعث وإن كان يعني العذاب الأبدي، الجحيم السرمدي أهون من الوحدة القاتلة حتى بالنسبة للأموات!
فتحت ملاك عينيها بغتة على صوت إنفجار قريب منها، انتفضت بعنف وهي تشعر بكل عظام جسدها تئن من تحتها، كانت نائمة على الرصيف، نظرت حولها باحثة عن مصدر الإنفجار لترى غيمة سوداء من الدخان وهي تخرج من خلف إحدى العمارات، كانت الغيمة تحمل بقايا الإنفجار بالإضافة لأرواح سكان العمارة بالتأكيد..
لم يكن هذا يُهمها، فعادتها القديمة بقراءة صُحف الحوادث قد عَودتها على مثل هذه الصور والمشاهد، وإن كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع بها صوت إنفجار بهذا الشكل..
كان هناك شيء واحد يشغل تفكيرها، كيف أصبحت هنا؟ لقد كانت تحتضر منذ ثواني على الطريق المتجه لخارج المدينة، وها هي الآن في شارع منزلها الذي لم تكن لتُميزه لولا أنها عاشت فيه طوال حياتها.. كان مختلفاً، منزلها مُحترقٌ عن بكرة أبيه،

وتحول لكومة من الحجارة، كانت هذه الكومة تُمثل لها يوماً الأمان من الرعب الذي يجول في الخارج.
ما الذي حدث في غيابها ها هنا؟
صوت الرصاص يدغدغ أذنيها وهي تجول بناظريها أرجاء الحي.. بيوت جيرانها أصبحت بإرتفاع مساوٍ للأرض، أكوام إضافية من التراب والحجارة فوق الأرض التي تشبعت بالدم، وتحت السماء التي امتلئت بالأرواح النازحة حديثة النَحر.. تأملت منزلها وهي تفكر في مصير والدها، وما يمكن أن يكون قد حدث له بعد احتراق منزلهم ..
" ما هذا الجنون ؟ "
المشهد المُحيط بها غريب للغاية، ولم تتوقع أن تكون حاضرة لتشهد شيئاً مثله في حياتها، كانت الحرائق تأكل كل شيء، والنار تنتشر في هشيم الحي الذي قُضي عليه وعلى سكانه أجمعين.. فيستحيل أن ينجو أحد من حريق ضخم كهذا..
خَطَت خطوتين مقتربة من منزلها، كان هذا عندما شعرت بأنها داست على بركة مياه، نظرت تحت قدميها لتجد عوضاً عن هذا بركة من الدم، لم تحتج كثيراً من الذكاء لتدرك أن هذه دمائها هي، كانت تنزف بغزارة من جرح الرصاصة، وزادها هذا حيرة، كيف يمكن أن تنتقل كل هذه المسافة بجرحها هذا دون أن تلقى حتفها في الطريق، وثم.. أين هو زين؟
يستحيل أن يتركها، لا تعتقد أن زين من النوع الذي قد يتركها في ساعة الخطر، خاصة بعد مواجهته الأخيرة مع قاطعي الطريق وما فعله من أجلها.. كانت تحاول إقناع نفسها بالأمر دون فائدة، كيف تركها وحيدة في المكان الذي كان يُسمى حارتها يوماً ما؟
كيف تركها وحيدة؟ كانت تحبه من كل قلبها.. وهذا يعني في رأيها أنه -وإن لم يكن يحبها- لا يجب أن يتركها أبداً؛ ولا سيما وهي تحتضر..
سكرات الموت!

كانت تشعر وكأنها بُعثت من الموت للتو..
بُعثت لتموت مرة أخرى.
وضعت يديها على رأسها وهي تشعر بصداع عنيف كمطرقة حديدية تضرب جدران عقلها، محاولة تذكر أي شيء، أي شيء تتذكره يمكنه أن يساعدها الآن.. والأهم هو كيف وصلت إلى هذا المكان؟
وفي هذه اللحظة، دار في رأسها خاطر غريب..
ربما هذا هو الجحيم إذن.. لابد أنه الجحيم!
نعم.. هذا خاطر منطقي للغاية.. لقد قرأتْ سابقاً عن "سيزيف" الذي حُكم عليه بدفع صخرة ضخمة نحو قمة جبل إلى الأبد، لكن "سيزيف" مُذنب وماكر كثعلب، وهي بريئة، لم تخدع أحداً سوى أبيها عندما كسرت ساعته المفضلة وأخبرته أن القطة أوقعتها كي تتهرب من العقاب!
لم تؤذي نملة في حياتها، كيف لها أن تستحق الذهاب إلى الجحيم؟
لم يكن صوت الرصاص والقذائف ما يزعجها حقاً، كانت هناك صرخات وجعٍ متقطعة تُنبئ بأن صاحبها فقد حياته قبل أن يتمكن من إكمال صرخته حتى.. كانت الصرخات تُطفئ نور عينيها، كمية العذاب التي تدخل من أذنيها إلى عقلها لم تكن تُتحمل..
أخفضت رأسها مُجبرة وهي تشعر بأن وزنه قد زاد بعد كل ما سمعته من رعب، وعلى الأرض بركة تتوسع ببطء من دمائها هي.. لقد نزفت عن عشرة أشخاص، وربما يكون قفصها الصدري هو الشيء الوحيد الذي يحبس روحها في جسدها بعد كل الدم الذي نزفته..
وإن لم يكن جحيمها يكفيها بهذا الشكل، فقد كانت هناك مفاجأة أخرى في انتظارها، مفاجأة أكبر من قدرتها على التحمل بكل تأكيد.. كان هناك صوت أجنحة عالي، أقرب للخفقان منه لرفيف أجنحة طائر، رفعت رأسها الثقيل لتنظر لمصدر الصوت لتجد

طائراً أسوداً بعيداً جداً، ولكن صوت جناحيه كان يشعِرها أنه قريب للغاية..
ثبتت نظرها عليه لتجد أنه يقترب بسرعة هائلة، ومع اقترابه كانت تفاصيله تظهر بشكل أفضل.. كان يملك قدمين طويلتين ويدين، ولكنهما ليسا يدي أو قدمي طائر، كان رجلاً..
رجل عملاق بأجنحة سوداء ضخمة!
أخذت ترتجف بشدة مع شعورها ببرودة عاتية تكتسح جسدها..
الزمن توقف تقريباً، ولا ترى شيئاً سواه وهو يقترب، ولا صوت سوى صوت أجنحته التي بَدَت لها كصوت تكات الساعة التي تُقربها من موتها ببطء.. حَطّ الكائن المُجنح على الأرض أمامها، وحركة جناحيه دفعت الهواء تجاهها بعنف فسقطت ملاك على الفور لترتطم بالإسفلت بقوة..
إن كان الموت هو الوحدة المُجسدة..
فهذا الشيء هو الرعب مُجسداً!
بجناحين أسودين عملاقين، وجسد مُشعر بطول ثلاثة رجال فوق بعضهم، وعينين سوداوتين تماماً، مشقوقتان بخط طولي كعيون الأفاعي، وهذا الخط يُضيء بلون أحمر وسط السواد المحيط به، وجهه محروق ومشوه وكأنه خرج من الجحيم للتو..
زحفت ملاك بشكل عكسي بعيداً عن هذا المخلوق الجهنمي، أخذت تدفع نفسها بقدميها ويديها إلى الخلف دون أن تجرؤ على أن تُعطي ظهرها لهذا الشيء الذي لم يُحرك شعرة منذ هبوطه، عدا عن عينيه اللتين كانتا تتحركان مُتابعتين هروبها منه بهدوء.. تمالكت نفسها ونهضت بصعوبة شديدة عن الأرض دون أن تتوقف عن الرجوع بذات الوتيرة، ودون أن تعطيه ظهرها.
أصابعها تغوص في دمها الذي رسم خطاً أحمرَ بحجم جسدها على الأرض من تحتها، وأدركت حينها أن هذا الشيء سيتمكن من اللحاق بها مهما ابتعدت، طالما أنها تترك خلفها خيطاً من الدماء كيفما تحركت..

أخذت نفساً عميقاً وهي تنظر في عيني الكائن المرعب بصعوبة، كانت تشعر بأنها تنظر في عيون الموت مباشرة، سألته بصوت مرتجف وهي تشعر باللون الأخضر في عينيها وهو يتلاشى من نظرتها له:

- من أنت؟

لم يتحرك الكائن قيد أنملة، نظرته متجمدة في عينيها وبدا كأنه لم يسمع السؤال، أخفضت رأسها متحاشية نظراته التي تسببت في تجمدها مكانها دون قدرة على الحركة، كالمنوم مغناطيسياً..

"من أنا؟"

تحدث الكائن أخيراً، توقعت أن يكون صوته مرعباً كشكله، ولكن الغريب في الأمر أن الكلمات خرجت من فمه بصوت زين!

أردف الكائن دون أن تتحرك شفتاه، وصوته يخرج من أعماق عقلها بصوت حبيبها مُتجسداً في مخلوق كهذا:

- أنا شيطان!

"شيطان!"
انتفضت ملاك بقوة وفي عينيها كل رعب الدنيا، نظرت حولها في تحفز لتجد أنها في غرفة لا تعرفها، وعلى كرسي قريب منها يجلس زين الذي أسرع نحوها ليعيدها إلى السرير، استكانت له واستلقت مجدداً مع شعورها بألم بسيط في بطنها، أمسكت بتلابيبه وهي تصيح به:

- لقد رأيت الشيطان في منامي..

ارتفع حاجبا زين في استغراب فيما أفلتته ملاك لتنظر للسقف وهي تردف ونبرتها تحمل الكثير من الحيرة:

- وكان يتحدث معي بصوتك أنت!

سألها زين بدهشة بالغة:

- بصوتي أنا؟

- بلى..

كان عزرائيل واقفاً خلف زين، مُطأطئ الظهر كي لا يظهر من ورائه، وكأنه يحتمي به من نور ملاك، وقد اعتلت شفتيه إبتسامة مريبة، استدار زين دون وعي لينظر له وكأنه يسأله بصمت إن كان قد تجرأ على الدخول إلى حُلم ملاك، ولكن عزرائيل لم يُبدي أي انفعال يشير بأنه قد فعلها أو لم يفعلها..

أعاد زين نظره لملاك التي لم تنتبه لما فعله وهي شاردة في السقف، سألها بحذر:

- وما الذي قاله لك؟

إرتجفت أصابع ملاك وقد بدا أنها تتذكر التفاصيل، ثم أجابت وعيناها لا تحملان شيئاً سوى الخوف دون أن تنظر لزين:

- لقد.. لقد أخبرني أنه شيطان!

- شيطان؟!

- المصيبة أن كائناً مرعباً كهذا كان يتحدث بصوتك..

جلس زين على طرف السرير، وأمسك بذقن ملاك ليجبرها على النظر له بلطف، ثم همس لها مُطمئناً:

- لا تخافي، أنا معكِ..

- أنا خائفة يا زين.. كائن كهذا يستحق أن يُخاف!

خرج صوت ضحك من وراء زين، تبعها صوت عزرائيل وهو يقول ساخراً:

- معك حق يا عزيزتي.

استدار زين بحدة لينظر لعزرائيل وكله غضب من سخريته التي في غير وقتها ومن فكرة أن عزرائيل قد أخاف ملاك بهذا الشكل، فمط الأخير شفتيه في انزعاج ومشى بعيداً ليجلس على كرسي بجوار باب الغرفة، حيث وضع رجلاً على رجل ليتابع ما يحدث بينهما في صمت..

- ما الأمر ؟

نظر زين لملاك سريعاً وهو يلعن عزرائيل على هذا الموقف، ثم أجاب متلعثماً لتسعفه قدرته السريعة على الكذب في النجاة:

- لا شيء،ظننت أنني سمعت طرقاً على الباب..

سألته ملاك في حيرة أكبر:

- ولكن الباب في الإتجاه الآخر!

إستدرك زين بسرعة مُغيراً الحديث:

- إنسي الأمر.. الآن عليكِ أن ترتاحي قدر المستطاع..

أومأت ملاك برأسها وهي تسأله بأدب:

- أيمكنك أن تحضر لي كأساً من الماء؟

- بالتأكيد يا عزيزتي..

مشى زين نحو باب الغرفة ووقف أمام كرسي عزرائيل دون أن ينظر له، فهم الأخير الأمر سريعاً ونهض ليخرج قبله.. يستحيل أن يتركه وحده معها، قد لا ينجو عزرائيل حينها!

تحسست ملاك بطنها في موقع الرصاصة لتجد ضمادة طبية تميل للون الأحمر.. تدافعت الأسئلة في رأسها، أيعقل أن زين من عالجها؟
عاد زين إلى الغرفة حاملاً كأساً من الماء، وعزرائيل يمشي خلفه كظله، فسألته ملاك سريعاً في اهتمام:
- أين نحن؟
- نحن في بيتي..
- ومن أحضرني إلى هنا؟
أعطاها زين كأس الماء، وأجابها وهو يجلس على طرف السرير:
- هل ترين أحداً غيري هنا؟
- ولكن كيف؟ لقد كنا بعيدين جداً.. وكذلك، لا تقل لي أنك من قام بعلاجي وإخراج الرصاصة..
- هذه حكاية طويلة وأنتِ متعبة يا ملاكي، أخبرتك أنك تحتاجين إلى الراحة الآن، ولا تهتمي بالتفاصيل فستعرفين كل شيء لاحقاً..
لمحت ملاك الساعة وبدا عليها الاستغراب، كانت تشير للعاشرة صباحاً.
- منذ متى وأنا نائمة؟
- عشرون ساعة تقريباً..
شربت ملاك كأس الماء جرعة واحدة، وانتبهت لنقطة ظريفة.. ابتسمت بطرف شفتيها وهي تسأله في حذر:
- أتعني أنني قضيت الليلة في سريرك؟
إبتسم زين لملاحظتها، ثم أجاب ناظراً في عينيها الخضراوين:
- بلى.. وهذا شرف كبير لو تعلمين!
صاحت به ملاك ضاحكة:
- إخرس أيها السافل! أي شرف هذا؟ سريرك يفوح بعشرات العطور النسائية في آن واحد!

إنفجر زين ضاحكاً لظرافتها وهي غاضبة، ولم يفهم إن كانت كلماتها نابعة من القرف من سريره أو الغيرة عليه ممن كُن نائمات عليه قبلها.. كانت عبارتها تحمل إهانتين في نفس الوقت، الأولى أنه قذر لا يغسل ملاءة سريره، والثانية أنه زير نساء، وليس متأكداً أيهما إهانة أكبر!

- لن أرد عليكِ لأنكِ مُتعبة.. نامي يا صغيرتي..
- لقد قضيت العشرين ساعة الأخيرة وأنا نائمة، هل تتوقع حقاً أنني سأستطيع العودة للنوم؟
- وما أدراني بعادات النوم خاصتك؟ قد تكونين معتادة على النوم ثلاثين ساعة متتالية..

إبتسمت لمحاولات استفزازه رداً عليها، كانا في ما يشبه معركة إغاظة متبادلة، والهدف هو رسم الإبتسامة على وجه الآخر، والإستمتاع بظرافته وهو غاضب ومُستفز..

- أتعني أنني فتاة كسولة أقضي أيامي في النوم فقط، ولا أفعل شيئاً مفيداً في حياتي؟
- على العكس تماماً، أنتِ يا عزيزتي، بنومك الطويل الشبيه بسُبات الدببة، تُريحين الناس منكِ مدة طويلة، وأنا أشكرك على هذا!

مطت ملاك شفتيها اللتين فقدتا حُمرتهما ولونهما تقريباً بعد كل الدم الذي نزفته، وإن لم تفقدا إغرائهما وجاذبيتهما بعد، كانت تفكر في أقوى رد ممكن، كي يستمر الحوار لأطول فترة، وترى قدرته على الرد كذلك.

أجابت ملاك وعيناها تلمعان بنظرة توحي بأنها ترمي قنبلة إستفزازية حية من بين شفتيها نحو زين:

- على الأقل، أنا أقضي لياليَّ في النوم وحيدة، لا أنام كل يوم مع شاب مُختلف، وكذلك فأنا أتذكر تغيير ملاءة سريري!

ضحك زين بشدة، وهو يرد من بين ضحكاته العالية:

- حسناً، أقسم أنني فهمت، أنا زير نساء وأنتِ لست زيرة رجال!

ضحكت لغرابة الكلمة وهي تسأل:

- زيرة رجال! ما هذا المصطلح اللعين؟!
- لا يهم، ولست متأكداً إن كان هذا مصطلحاً حقيقياً لأنني أعتقد أنني اخترعته للتو! والآن، هل يمكننا تغيير الموضوع بعيداً عن النوم وعشيقاتي وملاءة سريري لو سمحتِ؟

أومأت ملاك برأسها وهي ترد بديموقراطية مصطنعة:

- لا بأس.. ما الذي تريد أن نتحدث عنه؟
- فلنتحدث في موضوعي المفضل..
- وما هو؟
- أنتِ يا ملاك!

لمعت عيناها بسعادة وهي تسأله:

- أنا!
- بلى.. فلنبدأ بأسئلة بسيطة قبل أن نتعمق. كيف حالك؟ لاحظي أنكِ لم تخبريني حتى الآن..

رغم جمال ما قاله، إلا أنها لم تتمالك نفسها في أن تستفزه أكثر، كانت تجد لذة غريبة في استفزازه، وتستمتع عندما تسمع ردوده الذكية..

- هذا لأنك لم تسأل.. نحن نتحدث منذ ساعة، ما رأيك أن تنتظر لتسألني كيف حالي قبل رحيلي بثواني؟

رمقها زين بعتاب وكأنه يخبرها أنه يتحدث بجدية ويريد الإطمئنان عليها فعلاً، فإبتسمت لمجرد أنها تعرف أنه سيبتسم لمجرد مباعدة شفتيها، كان بسيطاً فيما يتعلق بها، وشديد التعقيد في نفس الوقت.. هذا التناقض اللذيذ يزيد مُتعة العلاقة في نظرها، وكأنها تكتشف شيئاً جديداً فيه كل يوم، وتُحبه أكثر كل يوم..

- حسناً.. إسألني مجدداً لأجيب بجدية هذه المرة؟

إبتسم زين مع ابتسامتها تلقائياً، وسألها ناظراً في عينيها مباشرة:

- كيف حال ملاك؟

أجابت سريعاً وكأن الكلمات خرجت من فمها كردة فعل:

- ملاك واقعة في غرامك أيها الشيطان!

الفصل الثاني
في حُـــــب
الـــشـــــيـــــطـــــان

- إذا فأنتِ تعرفين أنني شيطان؟!

اتسعت عينا ملاك بعد هذا الرد، وهي تنظر في عيني زين مباشرة باستغراب شديد.. لم تكن تعرف ما يمكن أن تقول أمام هذا الكلام، أي شاب هذا الذي يُصر على أن يصف نفسه باستمرار بـ"الشيطان" حتى بعد أن اعترفت له بحبها للمرة الثانية؟ وكانت الإجابة مخيفة بالفعل، فربما هذه حقيقته، ربما أحبت شيطاناً بالفعل !

إقترب عزرائيل من زين ليقف خلفه، ثم إنحنى ليصبح بموازاة رأس زين، وأخذ يهمس له بكلمات غير مسموعة وعيناه مصوبتان على ملاك، وتحملان شيئاً من الخوف دون وعي منه، هذا الخوف الذي لم يعتد عزرائيل على الشعور به، فكيف وهو مكشوف بهذا الشكل؟

هز زين رأسه وكأنه يحاول ألا يسمع الترهات التي يسكبها عزرائيل في أذنيه بإصرار، ولكن دون فائدة.. قد لا يكون عزرائيل قادراً على التحكم بجسده، ولكنه ليس عاجزاً عن الوسوسة بالتأكيد..

هذا الشيطان اللعين!

سألها زين متجاهلاً عزرائيل قدر الإمكان، والحروف تخرج مرتجفة من بين شفتيه:

- لابد أن تكوني مجنونة لتقعي في غرام شخص بخطورتي !

رفعت رأسها نحوه مستغربة وهي تقول:

- بخطورتك ؟!
- بلى.. أنا خطر ومؤذي يا ملاك..
- أنت ألطف وأحن وأقوى شاب أعرفه، كفاك تبريراً وأخبرني إن كنت لا تحبني بكل بساطة، لا تحاول المراوغة.. أنا أرجوك.
- بل أنا الذي أرجوكِ! لا تنخدعي بي، أنتِ تقولين هذا الكلام لأنكِ لم تري الجانب الآخر من شخصيتي حتى الآن..

كل حرف يخرج من بين شفتي هذا الرجل يبدو في نظرها غريباً بحق، شعرت بأنها تعرفه، ولكنها الآن تشك في أنها قد تكون جاهلة لأبسط التفاصيل المتعلقة به.. اقتربت منه بعدها بتردد وأمسكت بخصلة من شعره تتأملها، ثم نظرت في عينيه وهي تتابع بصدق:

- لقد أنقذت حياتي، وقتلت سبعة رجال من أجلي، لا أعرف كيف تعلمت إستخدام المسدس بهذه الحرفية، ولا متى، وكل هذا لا يهمني، المهم هو أنك كنت بجواري عندما احتجتك، ولم تتركني، في الوقت الذي كان أبي نفسه سيتركني لو كان في موقف مماثل، لهذا وقعت في غرامك..

لامست خده بكفها فسرت قشعريرة دافئة في جسد زين، أشبه بتيار كهربائي أشعل عشرات الأضواء في رأسه ليدرك الحقيقة التي كان خائفاً من الاعتراف بها.. كان يعشقها، بل يهيم بها حباً.. شعر بتلك اللمسة وهي ترد القوة لروحه بعدما اعتقد أنها

قد تشوهت وأظلمت في عتمة هذه المدينة، أحس بجروح روحه العميقة وهي تشفى ببطء، تلتئم، وتمنى حينها لو أن هذه اللمسة تستمر للأبد..
لم تكن لمسة عادية، كانت لمسة من ملاك طاهر، ومع هذه اللمسة شعر بعزرائيل في داخله ينتفض، يرتعد خوفاً، ويتراجع إلى أبعد نقطة في عقله، وفي الغرفة كذلك، حتى لا يشعر بهذه الحرارة التي قد تحرقه حرفياً إن حاول التجسد في زين أثناء وجودها، كان بإمكانه التواجد بجوارها في شكله الطيفي، ولكنه عاجز عن الظهور في شكل جسد مادي ملموس طالما هي في الأرجاء..
اكتشف السر حينها، لهذا اضطر لأن يجعل ملاك تغمض عينيها عندما قام بقتل قاطعي الطريق، لأن عزرائيل كان أضعف من أن يظهر بينما هي تنظر في عينيه، إنها تضعفه بشدة، تستنزفه وترسل قوته لزين حتى يتمكن من سرقة الأضواء والتحكم في جسده بعدما استولى عزرائيل عليه منذ فترة طويلة..
لقد أدرك عزرائيل هذه النقطة ولكن بعد فوات الأوان، ولكنه لم يَبُح بها بالطبع، أما زين فلم يلحظها إلا الآن، وكان هذا الإكتشاف عظيماً ومجيداً.. كان مجرد تخيل شيء كهذا مستحيلاً بالنسبة له..
لم يشعر زين بمثل هذه القوة منذ دهور، كان أقوى من عزرائيل لأول مرة في حياته، كان قوياً لدرجة أن عزرائيل نفسه كان خائفاً منه في هذه اللحظة، خائف من أن كل ما فعله قد يفسد بكل بساطة..
وكل هذا بسببها هي..
أبعدت ملاك يدها عنه فاختلت موازين القوى في داخله لثواني وشعر بطاقة عزرائيل تتضاعف مجدداً، ولكن زين لا يزال أقوى منه بمراحل، حاول زين استيعاب ما يحدث داخل رأسه منذ عودتها من الغياب الطويل وحتى هذه اللحظة.. عزرائيل ضعيفٌ

الآن، إذاً فهو يضعف في حضرتها، يختنق بلمستها، وربما تقتله قبلة من شفتيها الورديتين!

- ربما تكون خطيراً، ولكنك عديم الخطر من ناحيتي، على العكس، أنت بالنسبة لي أمانٌ مُطلق غير مشروط..
- أنا لم أكن أماناً لأحد في حياتي، لقد دمرت كل شيء وقعت عليه يداي، حتى أمي لم تسلم من الأذى، وكنت السبب في الكثير من الأوجاع لها، حتى وإن لم أكن أقصد.. بإختصار شديد يا عزيزتي: أنا أسوأ حبيب قد تتمناه أي فتاة..

كان مصراً على الرفض، فكيف له أن يعشق بعد كل ما فعله ؟

يداه لم تتلطخا بالدماء فحسب، ففي الشهور الأخيرة، وبعد كمية القتلى المهولة على يده، كان يشعر وكأن يديه منقوعتان بالدم..

لا ينكر أنه كان يريد لمسها، لمسة يديها أحيت تفاصيل وذكريات نسيها منذ زمن طويل، وجودها لوحده كان يغير شعوره تجاه نفسه.. ولكن..

كيف لشخص مثله أن يحظى بفتاة مِثلَكِ يا ملاك ؟

فتح فمه ليتحدث، ولكن لسانه كان رافضاً للحركة، وكأنه يخاف من أن يجرحها بكلماته، بالرغم من هذا لم يكن ليتركها غافلة عمَّا سيحدث لها إن بقيت معه، ولهذا نطق بتردد:

- ستتأذين إن بقيتِ معي..

ابتسمت بشك وهي تقول:

- هذا الكلام يخرج من الشاب الذي لم يلمس يدي تطوعاً منذ عرفته.. هذا ما يقوله الشاب الذي لم يتجرأ على تقبيلي حتى الآن، ربما تكون كما تقول.. ولكنني متأكدة من أنك لن تؤذيني، بعد كل ما فعلته من أجلي، وبعد أن خاطرت بحياتك في سبيل إنقاذي بهذا الشكل، لا يمكنني التشكيك بنواياك، بل لا يحق لي أن أفعل هذا، حينها سأكون جاحدة لكل ما قدمته لي..

أمسكت بكتفيه بقوة ناظرة في عينيه وهي تقول:

- اسمعني يا زين.. أنا أحبك.. بكل تفاصيلك، الجميلة منها والقبيحة، وكل ذكرياتك.. ماضيك لا يهمني، ولم أسألك عنه قط، أنت الذي تصر على إبعادي عنك لسبب لا أفهمه...

توقفت عن الحديث مع شعورها بانكماش كتفيه مع إحساسه بلمسة أناملها، ولم تستطع فهم السبب، فكل ما رأته من زين حتى الآن يدل على أنه شاب قوي لدرجة أنه لا يخاف الموت، مستعد لحمايتها ولو كانت روحه هي الثمن، ولكنها كانت تشعر بضعف حقيقي من ناحيته عندما تلمسه، ضعف غير مبرر..

كانت تعرف أنه مختلف منذ قابلته للمرة الأولى، برودة اتجاه الجميع، ونظرته الوقحة لكل المحيطين به، ولمحة الكراهية في عينيه وهو ينظر للمدينة وسكانها وحيواناتها حتى.

في اليوم الذي رأته فيه للمرة الأولى لاحظته يتجاهل دستة من الفتيات حاولن جميعاً التقرب منه بشتى الوسائل، تركهن جميعاً وذهب إليها هي، لقد اختارها من بينهن، والآن يرفضها بهذا الشكل!

تأملته في صمت حزين، وقلبها يخفق بعنف.. كان وسيماً، ساحراً يستخدم عينيه كعصى سحرية.. عينان تحتويان من الجمال بقدر ما توحيان بالخطورة، تُحذران من تحاول النظر فيهما أطول من اللازم بخطر الموت فيه عشقاً، تجاهلت هي التحذيرات بعدما شعرت بأن قواها لم تكن بالقوة الكافية لتبعد عينيها عن عينيه، كان مثيراً للاهتمام من كل ناحية، مختلف عن كل شاب قابلته في حياتها، تصرفاته غير المتوقعة، بسالته وشجاعته.. ملامحه تغري بما لا تسمح به القوانين، وعيناه أشبه بتنويم مغناطيسي شديد القوة، مغناطيس جذبها لعالم آخر حيث لا مجال للهروب، حيث لا مفر من العشق..

كان قوياً لحد الجبروت، جنون العظمة يفوح من كلماته عندما يتحدث عن نفسه، رغم تحقيره المتواصل لنفسه في الدقائق الأخيرة ، إلا أنها تعرف أن زين يؤمن بأنه أفضل من جميع سكان هذه المدينة، تشعر بأنه من النوع الذي قد يتركهم للموت كي ينقذ نفسه، أو ربما يقتلهم بنفسه بما أن رصاصاته دقيقة ومُحكمة هكذا.. كل هذا كان قطرة في بحر عقلية زين التي كادت تفقد عقلها محاولة فهمها..

كيف يكون بهذا الضعف معها؟ لابد أنه يحبها، فلا سبب آخر يبرر نظراته ورجفته عندما تلمسه، لم يكن يجرؤ على لمسها كذلك، فكانت هي التي تبادر بالاقتراب منه في كل مرة، وكأنه يريد ترك مسافة آمنة بينهما كي لا تشعر بضعفه في حضرتها، ولكن هذا كله لم يكن ليغير من نظرتها اتجاهه، كان شخصاً جيداً، ربما لم يكن بارعاً في إظهار هذا للآخرين ولكنها كانت تعرف أنه جيد، هناك شيء طيب في داخله، مغمور بالكراهية والحقد، ولكنه موجود، ولهذا كانت تشعر بالأمان في وجوده.. وهذا الأمان يكفي لكي تعشقه إلى الأبد..

أفاقت من شرودها لتجد زين متجمداً بين يديها اللتين تمسكان بكتفيه وهو ينظر في عينيها مرتبكاً، اقتربت من وجهه ببطء حتى شعرت بخدها يلامس خده وهمست في أذنه:

- ألا تحبني ؟

ارتجفت شفتاه بشدة وهو يشعر بأنفاسها الحارة تحرق أذنه، شفتاه عَذراوتان، لم تنطقا بكلمة الحب لفتاة حتى الآن، وهذا كان يزيد من وزنها على لسانه بشدة، ولكنه لم يكن ليتراجع، ليس وهي قريبة منه لهذه الدرجة، ليس وهو قوي بجوارها بهذا الشكل..

كان يريد أن يفقد هذه العُذرية بالذات معها دوناً عن الأخريات.. لذا همس لها بتوتر وبصوت خافت:

- أنا.. أنا أعشقك !

حافظت على قبضتها على كتفيه وهي تسأل:

- ما المشكلة إذن ؟

شعرت به يحاول التملص من بين يديها فابتعدت عنها لتجده ينحني محاولاً التقاط أنفاسه، وهو ينظر لها لاهثاً، كان مستغرباً للغاية مما يحدث له، لقد قرأ كثيراً عن الحب في الكتب، وأنه يخطف الأنفاس، كان يعتقد دائماً أنه تشبيه مجازي، ولكنه الآن يلهث وكأن الهواء فرغ من رئتيه.. لقد خطفت أنفاسه حرفياً!

استجمع قوته وهو يجيب:

- ستكونين نقطة ضعفي.. سيصلون لي عن طريقك..

ردت ملاك بحماس شديد:

- لن أسمح بهذا أبداً.. سأقتل نفسي قبل أن يؤذيك أحد بسببي.. وهذا معنى الحب بالنسبة لي.
- لا أهتم لحياتي، أنا خائف من أن يؤذوكِ لمجرد أن يجرحوني !

كان يتحدث عن أشخاص يريدون إيذائه بشدة.. أشخاص كهؤلاء لابد أن يكونوا مجرمين كي يؤذوا حبيبة شاب لمجرد أن يجرحوه ويجعلوه أضعف.. كانت تسأل نفسها عما فعله زين في حياته ليحمل الناس اتجاهه هذا النوع من الكراهية التي تصل لحد الأذى الجسدي والنفسي له ولمن يحبهم في آن معاً..

سألته وهي تعرف أن الإجابة لن تعجبها:

- من هم ؟
- أعدائي !

تأملته بحُب مفكرة في كلامه، زين الشاب يخاف من الحب في هذا العمر لأن لديه "أعداء" لا يمانعون إيذاء أي شخص يقترب منه، لابد أنه أقحم نفسه في العديد من المشاكل حتى وصل لهذه المرحلة..

- ما الذي فعلته ليحمل أعداؤك كل هذه الكراهية تجاهك ؟

ابتلع ريقه وهو يشعر بقشعريرة تسري في جسده، ثم أجاب:

- صدقيني.. يستحسن ألا تعرفي !
- ولكنني أريد أعرف.

كان يشعر بعينيها ترغمانه على قول الحقيقة، فأشاح بوجهه بعيداً محاولاً صياغة الأمر بطريقة لا تجرحها، لم يكن من الممكن أن يتركها بعد اعترافه، لقد اعترف لها بحبه بعدما اعترفت هي، لم يكن يمكن له أن يضحي بمشاعرها بهذه البساطة بعد كل هذه الثقة التي وضعتها بين يديه، ولكنه كان يعرف أن اعترافه بذنوبه سيكون أقسى من قدرتها على الإحتمال، وربما تكرهه إن عرفت الحقيقة..

ماذا يمكن أن يقول ؟

أبسط تفصيلة من تفاصيل حياته كفيلة بأن تُحيل حياتها جحيماً مُطبقاً، ما عاشه في السنوات الأخيرة تعجز عن تحمله أعتى الرجال، فكيف بهذه الفتاة الرقيقة ؟ لن تستطيع تحمل الحقيقة بالتأكيد..

ألقى زين نظرة على ساعته قبل أن يستدير نحو ملاك ليقول:

- يجب أن تستريحي، تذكري أن إصابتك لا تزال حديثة..

عقدت ملاك ذراعيها أمام صدرها وهي تقول بعناد:

- لن أتحرك قبل أن تخبرني بكل شيء..

ارتبك زين بشدة وهو يصر أكثر على رأيه:

- صدقيني.. أنا أفعل هذا لمصلحتك.
- لا أهتم.. أخبرني..

أمام إصرارها لم يكن لديه خيار سوى القبول، اقترب منها وهو يقول:

- حسناً.. سأخبرك بكل شيء، ولكن ليس الآن..
- متى ؟
- الخميس القادم..

رفعت حاجبها غير مصدقة فيما تابع زين:

- هناك حفلة راقصة في فندق "بارادايس".. سنذهب سوية، سنقضي وقتاً ممتعاً..
- أتتوقع مني أن أرقص بعد أسبوع واحد فقط من إصابتي برصاصة في مقتل؟
- مبدئياً يجب عليك أن تفهمي أن الرصاصة لم تُصبك في مقتل، لقد مرَّت عبر جدار البطن دون أن تصيب أي عضو داخلي، لذا يجب أن تصلي كل ليلة شكراً على هذا.. ثم لم لا ترقصين؟ إعتبريه إحتفالاً بأنك لا زلتِ على قيد الحياة!

ذكرته ملاك بنقطة مهمة قبل أن تجيب على دعوته:

- وستخبرني بكل شيء؟
- سأخبرك بعدها بكل شيء، لن أترك تفصيلة واحدة دون أن أخبرك بها، صدقيني..

ابتسمت حتى ظهرت أسنانها البيضاء وهي تسأله بدلال:

- وعد ؟

ابتسم زين وهو يجيب بصدق:

- وعد.

تذكرت ملاك شيئاً مهماً، أبعدت الملاءة لتكتشف أنها لا ترتدي سوى ملابسها الداخلية، غطت جسدها سريعاً وقد أحمر وجهها بخجل واضح، كانت مصدومة، لم تدرِ كيف لم تنتبه لأنها لا ترتدي شيئاً.. نظرت نحو زين في شك فأجابها سريعاً قبل أن تسأل:

- فستانك كان منقوعاً بالدم حرفياً، أتتوقعين أن أتركك تنامين فيه؟ ثم أنه كان عائقاً في عملية خياطة الجرح وإخراج الرصاصة، وهذا سبب آخر..

هزت رأسه في غير إقتناع مصطنع، وهي تقول محاولة إستفزازه:

- سبب آخر لتجردني من ملابسي!

إبتسم زين دون أن يجيب، محتفظاً بحقه في الرد، ثم تذكر أصل الحديث فسألها في استغراب:

- ولم تحتاجين ملابسك؟

صرّحت وعلى وجهها ابتسامة:

- أراهن أنك تقول هذا لكل فتاة تحضرها لشقتك!
- لم تجيبي على سؤالي..
- أنا فتاة مُهذبة ولي أب يهتم بي ويسأل عني، لست كبقية الفتيات اللاتي يقضين الليل في سريرك!

ضحك رغماً عنه، كانت عاجزة عن إكمال جملة دون ذكر عشيقاتك أو إتهامه بأنه زير نساء، كانت مُستفزة كعادتها، ولكنه لم يكن متضايقاً، كان سعيداً بأنها قادرة على أن تكون تافهة في وجوده، أحياناً نحتاج إلى القليل من التفاهة في علاقاتنا، كثرة الجدية تسبب الملل..

- فهمت، أنت فتاة تقضي ليلتها في سريري، وتذهب بعدها لمنزلها وأبيها وكأنها لم تفعل شيئاً..

أومأت برأسها مبتسمة وهي تجيب:

- بالضبط.. والآن هل يمكنك أن تحضر لي شيئاً أرتديه؟
- بالتأكيد..

نهض متجهاً نحو خزانته ووقف متأملاً محتوياتها ثم جذب قميصاً أبيض اللون وسألها وهو يشير إليه:

- لا أعتقد أن والدك سيوافق على دخولك للمنزل مرتدية أحد قمصاني، أليس كذلك؟
- أهذا أمر يحتاج للسؤال؟ بالطبع لا، وكذلك فهذا القميص أبيض، وبالتالي فهو يصبح شفافاً في الشمس..
- يا للخسارة!

رمى زين القميص على الأرض دون إهتمام وكأنه يستحثها على اتهامه بالفوضوية والقذارة عوضاً عن التلاعب بالنساء، ولكنها

لم تُعلق على الأمر وكأنها فهمت مقصده.. أخرج فستاناً برتقالياً قصيراً ورماه عليها وهو يقول مواصلاً إستفزازها:

- أرجو من كل قلبي أن يكون أصغر من مقاسك!
- سنرى، والآن استدر وإياك أن تنظر كي لا أقتلع عينيك.
- ولم أستدير؟ لن أرى شيئاً جديداً بالتأكيد..

ردت ملاك في مزيج من التحدي والإستفزاز:

- لن ترى شيئاً، سواء أكان قديماً أو جديداً، طالما أنا بوعيي، ستحتاج لإطلاق رصاصة أخرى عليَّ لتراني هكذا مجدداً!
- ربما أفعل، أنا شيطان كما تعرفين!
- استدر قبل أن أقتلك..

ضحك زين وهو يستدير ليعطيها ظهره دون أن تُفارق الإبتسامة شفتيه، مرت دقيقة قبل أن تصيح ملاك في انزعاج:

- حسناً، أرجوك أخبرني أنك تملك فستاناً آخر..

إستدار زين نحوها ليجد أن الفستان ضيق بالفعل وقصير أكثر من اللازم، وملاك منزعجة للغاية من هذا الوضع، ضحك زين لشكلها، كانت تجذب الفستان للأسفل لتغطي ساقيها، فيظهر جزء من صدرها، لتعود بعدها لرفع الفستان من الأعلى فتظهر ساقاها!

زفرت بعدما أدركت أن لا فائدة من كل هذه المحاولات، ثم أردفت:

- كيف دخلت الفتاة في فستانها هذا؟ لا أستغرب أنها تركته عندك، ربما عجزت عن ارتدائه مجدداً!

ضحك زين دون أن يعرف كيف يرد، فيما سألته ملاك برجاء:

- أرجوك ابحث لي عن شيء آخر لأرتديه، يستحيل أن أخرج بهذا الشكل في الشارع..

أومأ زين برأسه في انصياع على عكس ما توقعت.. وأسرع نحو الخزانة وبحث حتى أخرج فستاناً أسوداً طويلاً ذا أكمام، رماه عليها ممازحاً فيما التقطته هي بسعادة قائلة:

- توقعت أن تستفزني لأخرج بهذا الفستان..
- يستحيل أن أفعل شيئاً كهذا.. المهم هو أن تكوني مرتاحة ، كما أنني لا أريد لأحد أن ينظر لساقي حبيبتي..

إبتسمت لكلماته الجميلة وهي تسأله:

- حبيبتي؟
- بالطبع، أولستُ حبيبكِ؟

نظرت ملاك في عينيه وهي تقول:

- بل أنت معشوقي الأبدي!

إبتسم زين بسعادة، وقد أفحمته بكلماتها فلم يعد يعرف ما يمكن أن يقول بعدها، فآثر الصمت واستدار قبل أن تطلب منه أن يستدير، لتتسع ابتسامتها أكثر.

ارتدت الفستان سريعاً وأسرعت نحوه لتنكزه من الخلف وهي تسأله في اهتمام واضح:

- أخبرني أكثر عن الحفلة الراقصة !

ضحك زين وهو يجيب:

- ستعرفين كل شيء الخميس القادم.. سأتركها مفاجأة لكِ..
- حسناً.. ولكنك ستعطيني سيجارة مقابل هذا الإنتظار!
- تريدين التدخين بحالتك هذه؟
- لقد تحسنت، أشعر أنني قادرة على القفز والرقص طوال الليل بعد ما سمعته منك اليوم..

ابتسم زين دون أن يملك القدرة على الرفض بعد ما قالته، ومد يده لجيبه ليخرج علبة السجائر، أشعل سيجارة وناولها لملاك، ثم أشعل أخرى له دون أن يتمكن من منع نفسه من الابتسام، ولم

يكن يريد، كان سعيداً من كل قلبه.. نفثت ملاك دخان سيجارتها وهي تسأله ممازحة:

- لا حاجة لأن أسأل ولكنك لم تستغلني وأنا فاقدة للوعي، أليس كذلك يا حبيبي؟

ضحك زين والدعابات تتسارع لرأسه، وجميعها قذرة، إختار أقلها قذارة وأجاب بها ضاحكاً:

- صدقيني، لم يدخل شيء جسدك البارحة سوى تلك الرصاصة!

فتحت ملاك شفتيها في دهشة لإجابته السافلة، ولم تتمالك نفسها من الضحك بشدة، ضربته على كتفه وصاحت به من بين ضحكاتها:

- يا لك من حيوان سافل!

واصلا الضحك بشدة وملاك عاجزة عن النظر في عينيه لشدة خجلها، أما عن زين، فقد كان في عالم آخر.. لقد شعر اليوم بلمسة من نوع مختلف. مختلفة عن لمسة أي فتاة..

كانت لمسة ملاك واقعة في حُب الشيطان!

الفصل الثالث
كيوبيد في أرض الشرور

زمجرت سيارة زين عندما أطفأها وكأنها تعترض على انتهاء الرحلة، نظرت ملاك لمنزلها حيث توقف، واستدارت لزين وقد بدا أنها تحمل كلاماً في فمها، ولم يحتج زين لكثير من الدهاء ليفهم هذا، لكنه فَضَل أن ينتظرها كي تصيغ الكلمات في رأسها قبل أن تتحدث..

أخذت ملاك نفساً عميقاً ثم صَرحَت في تردد:

- يقال أن الإعتراف بحبك لشخص ما هو في الواقع إنتحار بكل بساطة، أنتَ تَلُف حبل المشنقة حول رقبتك آملاً من الآخر ألّا يضرب بقدمه الكرسي الذي يُمثل الفاصل الوحيد بين الموت والحياة بالنسبة إليك..

أنصت زين لكلماتها دون أن تفارق الإبتسامة شفتيه، ثم سألها:

- وما رأيك بهذا الكلام؟
- أنا أتفق وبشدة، بماذا يختلف الإعتراف عن الإنتحار؟ في الحالتين، قد تموت، وقد تحيا!

أومأ زين برأسه قبل أن يسألها مجدداً وابتسامته تتسع:

- والإعتراف بمبادلة الحب؟

ظهرت أسنان ملاك البيضاء من خلف شفتيها الورديتين في إبتسامة ساحرة وهي تجيب بصدق:

- إنتحار ينقذ حياتين في وقت واحد!

- وإن كانت حياة أحدهما على حافة التردد بسبب الحب؟ أي أنه عاجز عن الإجابة بالرفض أو الموافقة فيعيش في تردد دائم.. خوفاً على الطرف الآخر قبل أن يكون خوفه على نفسه.

هزت ملاك رأسها في عدم إقتناع وهي تقول:

- التردد لا يتوقف باعتراف الطرفين، التردد يترك بصمته في كل خطوة من خطوات العلاقة..

أخفضت رأسها وكأنها تُلملم خيوط أفكارها التي تشابكت بسبب نظرات زين التي كانت تزيدها خجلاً على خجلها، ثم تابعت:

- الفارق الوحيد بين التردد السابق للإعتراف والتردد ما بعد الإعتراف هو أنك قبلها كنت تشعر بالأمر وحدك، أما الآن فهناك من يشاركك تفاصيل خوفك وقلقك وترددك كلها.. يمسك بيدك حتى تقوما بتخطيها سوية وتصلا للنهاية السعيدة التي تنتظر في آخر الطريق..

أومأ زين برأسه دون أن يرد، وهو يودّ لو أنه يمسك بيدها ليخبرها أنه سيبقى بجوارها حتى آخر الطريق، وإن لم يكن متأكداً من أن النهاية ستكون سعيدة نظراً لموقعهم الجغرافي وتاريخه الأسود..

فهمت ملاك تردده سريعاً وأمسكت هي بيده لتشعر بارتجافتها بين أصابعها وهي تردف:

- لن أتركك، طالما أنك تحبني وتريدني بجوارك.. لا أهتم لأنك لا تجرؤ على الإمساك بيدي، سأكتفي بك ماشياً بجواري طوال الطريق، وإما أن نصل معاً، أو نسقط متجاورين في سبيل تحقيق حلمنا الذي نريد..

أغمض زين عينيه وهو يشعر بيدها تشد على يده حتى أحس ببشرته وهي تُشع لشدة سعادته، ورفعها حتى وضعها على قلبه الذي كان ينبض أسرع مما فَعل في حياته، كأنه ترك الرد لقلبه، كي يخبرها كم هو سعيد بوجوده بجوارها، وأنه موافق على كل

ما قالته، ومستعد لأن يبصم على هذا الكلام بكل نبضة من نبضات قلبه!
إبتسمت ملاك مع إحساسها بكل نبضة، وهي تسمع كل كلمة كان يريد زين أن يقولها بلغة مختلفة لا تُدركها الآذان، هذه لغة صامتة شديدة القدم، وشديدة القوة والتأثير، لن تجدها في كهف عتيق،لقد نُقشت حروف هذه اللغة على مدى التاريخ في قلب كل عاشق، وكل من مَسته سهام كيوبيد سواء من قريب أو بعيد، تجري لتخُط حكايات بالغة الجمال على جدران شراييـنه وأوردته، لتقتل خلايا جهاز المناعة في الجسد فتهوي في غيبوبة من العشق لا قرار لها!
إقتربت ملاك من زين لتحتضنه محاولة أن تسمع كلام قلبه من مكان أقرب، لتختلط نبضاتهما فيما دار بينهما نقاش مُحتدم، كلاهما يقاطع الآخر محاولاً إثبات أنه يُحبه أكثر، وجميعنا نعلم أن نقاشاً كهذا سينتهي بمساومة ودية على أن الإثنين يُحبان بعضهما بقدر مساوٍ!
لم ينتبه زين أن ملاك قد كانت تَملك هدفاً آخر خلف هذا الحُضن، فها هي تدس ورقة في جيب معطفه دون أن يلاحظ، كتبت له شيئاً مما في قلبها خلسة عنه عندما كان في منزله، تأكدت أن الورقة لن تقع وشدت عليه بذراعيها وكأنها تحاول ألّا تقطع اللحظة الحميمة بكل طاقتها.

بعد أسبوع..
عدّل زين ياقة قميصه الأبيض متأملاً ملامحه في المرآة بشيء من الشرود، ثم تناول معطفه الأسود الذي يزيده وسامة وارتداه فوقه، نظر حوله لتقع عيناه على "دون" وهو يتأمله بنظرة شعر زين أنها فخورة به، كان هذا الكلب أقدم رفيق له! وليس مُستبعداً أنه شعر بسعادة صاحبه!

تناساه ليكمل رحلة بحثه عن ربطة عنقه المفضلة، قَلَّب ملابسه المعبثرة على الأرض دون اهتمام لتسقط من جيب معطفه ورقة مطوية بعناية، انحنى ليلتقطها وهو يتساءل عن مصدرها، فهذه ليست مِلكه بالتأكيد.. وبقدر بسيط من التفكير بينما كان يلتقط الورقة عَرف أنها من ملاك، هذا هو المعطف الذي كان يرتديه عندما كان معها الخميس الماضي..

فتح الورقة ببطء لترتسم ابتسامة على وجهه رغماً عن قلبه، مع رؤيته لخط ملاك على الورقة، مر بعينيه على السطور في تأنٍ، مُستمتعاً بكل نقطة وكل فاصلة، وابتسامته تتسع تدريجياً..

كانت الرسالة تقول:

"لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن كيوبيد يمكن أن يدخل هذه المدينة، هذا كان ضرباً من الجنون، وآمنت أنه يستحيل أن يخطو خطوة في مكان كهذا طالما هناك هذا الكم من القذارة المنتشرة فيه.. ولكنه فعل، لقد دخلها، ونَصب شِراكه في مقهاي المفضل، وهناك أصابني بسهم في مقتل، فأصبحت أموت فيك حباً ولا أطيق غيابك عني لحظة واحدة، ولا يمكنني أن أبدأ في وصف صعوبة الشهور التي قضيتها بعيدةً عنك..

أنت شاب غريب الأطوار، ويجب أن تعتبر هذا اللقب مجاملة يا عزيزي، أنت مختلف عن كل شاب صادفته في حياتي.. أنت فارس أحلام الكثيرات، ولكنني لم أعتد الانخداع بالمظاهر، لذا عندما أتيتني للمرة الأولى في المقهى إياه قررت التظاهر بأنني لم أرك، ولكن مع تعمقي في شخصيتك ودهاليز عقلك أكثر اكتشفت أنك مثقف للغاية.. أنت أذكى وأعقد مما كنت أتوقع، ولا تأخذ كلامي على نحو خاطئ..

أنا أحبك يا فتى، بكل تفاصيلك ومشاكلك، بسفالتك التي قد تكون مُبالغاً فيها أحياناً، وبمحاولاتك المستمرة لإستفزازي كي تُضحكني لأنك تعرف أنني يستحيل أن أتضايق من كلامك.. أحبك

بكل أمراضك النفسية التي تحاول أن تخيفني بها، وبكل شيطانيتك المُدعاة التي حاولت بها أن تُبعدني عنك مراراً..
أحب كل حرف يخرج من بين شفتيك حتى لو لم أفهمه.. مع التفكير اكتشفت أنني غالباً لا أحبك فحسب، فشعوري اتجاهك أعمق وأشد من كل مسميات الحب، هذا الشعور هو العشق، الهوى، بل هو الجنون متجسداً في فتى ملموس وإن كان لا يجرؤ على اللمس رغم قوته وخبراته بإعتبارك زير النساء الأول في المدينة!
من قلب أرض الشرور أزف لك خبر أنني عشقت أحد سكانها، وهو أمر كنت أحسبه مستحيلاً، أنت الشيء الوحيد الذي يربطني بهذا المكان، ومعك أنا مستعدة لتحمل كل الأخطار التي قد تصيبني إن كان هذا يعني نجاح العلاقة التي بيننا، إن كان يعني أن هذا الحب سيستمر.
أحبك يا صديقي المفضل، وشخصي الأقرب!
التوقيع : ملاك "
أفلتت ضحكة من بين شفتي زين مع انتهائه من قراءة الرسالة، ثم قرب الورقة من شفتيه ليقبلها قبل أن يطويها بعناية مجدداً ليضعها بجوار سريره بحذر وكأنه خائف من أن تتأذى..
لم تكن هذه رسالته الغرامية الأولى، فقد تلقى غيرها الكثير على مدى سنوات حياته، كان يفرح لتلقيها ولكنه لم يكن يشعر بأي شعور اتجاه الفتاة التي أرسلتها له، ولكن هذه الرسالة كانت مختلفة، وتمكنت في عدة أسطر من أن تشحن قلبه بقوة غريبة لم يعتد عليها..
زفر بإرتياح ثم اقترب من المرآة لينظر في عينيه اللتين تحملان لونين مختلفين وابتسم رغماً عنه، كان يرى ملاك في عينه الخضراء، وكأنها جزء منه إلتصق به منذ ولادته ليخبره أنها ستكون نصفه الآخر وتوءم روحه.. وكان يؤمن بهذا الأمر بشدة، فالنصف الآخر من جسده عبارة عن شيطان، لذا كان لابد

من ملاكٍ تتجول في الخارج حاملة روحها ونصف روحه الضائعة!

ملاك.. تلك الفتاة التي لن يدعها ترحل عنه مهما كان السبب.. اللون الأخضر في عينيه يمنحه راحة غريبة، يُطمئنه ويذكره بأن كل شيء يحمل سبباً خلفه، ولون عينيه لم يأتِ من فراغ.. كان هذا عندما لاحظ اللون وهو ينسحب من عينيه ببطء ليحل مكانه اللون الأسود، اتسعت عيناه وهو يتراجع للخلف فيما كانت ملامحه تتبدل في المرآة، لتظهر ملامح عزرائيل، العينان السوداوان تماماً كانتا مجرد تمهيد للرعب القادم..

كان يراقب فيما كان هناك قرنان أسودان يخرجان من بين خصلات شعره، يستطيلان ببطء وملامحه تتغير لتصبح شيئاً آخر تماماً.. شعر بنفسه يضعف بسرعة، صرخ بكل الكره في قلبه:

- توقف ! لا أريد أن أراك..

كانت تلك ملامح عزرائيل، وفي تلك اللحظة لم يكن زين في وضع يسمح له برؤيته، يكفي أنه يلاحقه في كل مكان في رأسه، فهو لا يريد بالطبع أن يلاحقه في واقعه كذلك.. توقفت الملامح عن التغير وتجمد القرنان عند طول معين، اقترب انعكاسه المتمثل في عزرائيل من جانبه من المرآة ناظراً له بعينيه السوداوين ليقول بصوته العميق المرعب:

- أتعتقد أنك أصبحت أقوى مني ؟ تذكر أنك كنت مجرد طفل مدلل ضعيف قبل ظهوري، ولولاي لما احترمك مخلوق على وجه الأرض..
- فليذهب الإحترام إلى الجحيم، لا أريد شيئاً من أحد، أريد قسطاً من الحياة، أهذا بالشيء الكثير؟
- كان هذا الشيء الذي رميت به في الجحيم للتو أحد أكبر طموحاتك يوماً ما، ما الذي غيرك هكذا؟ لا تجعلني أشك في إختياري لك من بين الجميع..

صاح في المرآة بضيق:

- لا أريدك، ولا أريد أحداً.. أريد ملاك فقط !
- لن تكون لك، أنت تعرف هذا وهي تعرف هذه الحقيقة كذلك، ولا أفهم لماذا تواصلان إنكارها وتجاهلها بهذه الفجاجة.. وثم أرجوك توقف عن إدعاء قوة لا تملكها، كي لا تخسر الشيء الوحيد الذي تهتم لأمره..

اتسعت عينا زين مع مجرد التفكير في أن ملاك قد تتأذى على يد هذا الوحش الذي يسكن رأسه، اقترب من المرآة أكثر لينظر في عيني عزرائيل مباشرة بعصبية وهو يصرخ بغضب:

- إن تجرأت على أذيتها فسيكون هذا آخر شيء تفعله في حياتك.. سأقتل نفسي بكل بساطة قبل أن تفكر في إيذائها حتى..

هدأت نبرته وهو يسترد أنفاسه متابعاً بذات العصبية:

- ثم أنني أعرف أنك لست قادراً على إيذائها، أنت ضعيف في حضرتها لدرجة أنك تعجز عن الظهور فيما تحدق هي فيك بعينيها الخضراوتين، فكيف تتوقع أنك ستتمكن من أذيتها يا ترى؟ لا أعتقد أنك مغرور لدرجة اعتقادك أن نقطة ضعفك الوحيدة في الحياة ستكون عاجزة في وجهك لهذه الدرجة..
- لَستُ بالضعف الذي تتوقعه، قد تكون قادراً على قلب موازين القوى عندما تكون معها، وربما أنا أضعف من أن أذكر اسمها، وربما لست قادراً على منعك من مقابلتها، لكنني عزرائيل، لا تنسَ هذا يا فتى كي لا...

اختفى انعكاس عزرائيل من المرآة دفعة واحدة وسط استغراب زين، ليس معتاداً على هروب عزرائيل من نقاش كهذا، خاصة بعد ما قاله، وخاصة أن الأخير يُحب إكمال تهديده حتى النهاية..

أدرك زين سريعاً أن انسحاب عزرائيل يعني تدخل طرف خارجي، فاستدار على الفور لباب الغرفة ليجد فارس واقفاً هناك وهو ينظر له باستغراب شديد بعد أن رآه يتحدث مع نفسه للتو..

سأله فارس في شك:

- مع من تتحدث ؟

رد زين بتردد:

- لا أحد.

لاحظ فارس أن زين متأنق أكثر من عادته، إقترب منه ليمسك بخصلة من شعره الذي تبعثر لشدة غضبه وارتجافه فيما كان يتحدث مع عزرائيل، وعدل له ياقة قميصه وهو يسأله:

- أستذهب لمكان ما ؟

- بلى.. لدي موعد.

- مع فتاة ؟

إبتسم زين بطرف شفته وهو يرد بتلقائية:

- وهل تعتقد أنني سأتأنق لهذه الدرجة من أجل فتى ؟!

ضحك فارس لردة فعله وهو يسأله:

- يبدو أنها فتاة مميزة.. من هي ؟

- إنها ملاك !

كرر فارس وراء زين باستغراب مبتسماً رغماً عنه:

- ملاك ؟

أومأ زين برأسه مُشيحاً بوجهه عن عيني فارس المحدقتين فيه بشك واضح من التغير في تصرفات زين، ثم سأله ضاحكاً:

- أهذا اسمها أم مُسماها الوظيفي ؟!

- كِلاهما.. هي اسم على مسمى..

- هل رأيتُها من قبل؟

- لم ترها وحسب، يكفيني أن أقول أنك قابلتها للمرة الأولى وهي في ملابسها الداخلية!

- أهي الفتاة المصابة؟

- بالضبط..

رفع فارس حاجبيه في استغراب وهو يسأله:

- من أين لها بالطاقة لتخرج معك في موعد؟ لقد نَجت من الموت قبل قليل ولم تستقر حالتها فعلياً حتى الآن..
- لا تَخف، عزرائيل في صفي ولن يقترب من روحها في أي وقت قريب، ولهذا أنا مُطمئن..

ساد الصمت بعد هذه الكلمات لثواني وقد بدا فارس مُحتاراً، تأمل عينيه والنظرة التي فيهما قبل أن يسأله مُتردداً:

- أهذا أنت يا عزرائيل؟

إبتسم زين للسؤال الغريب وهو يجيب:

- كلا، أنا زين!
- لست معتاداً على الحديث مع زين، إعتدت على أن يكون عزرائيل هو المُسيطر عليك أيها المُنفصم!

ضحك زين وهو يقول مجيباً:

- ستتغير الكثير من الأشياء في الأيام القادمة، والكثير تغير في اليومين الماضيين، وسيكون عليك أن تعتاد عليها..
- لا تقل لي أن ملاك هي السبب في كل هذه التغييرات!
- ومن غيرها؟
- ألم أقل لك أنها مميزة ؟

زَفر زين وابتسامته تتسع فيما أجاب:

- أن تكون فتاة مميزة يعني أن يكون هناك غيرها في حياتي وأنها تميزت عن البقية، ولكن الحقيقة هي أنني قد أبعدت كل النساء الذين عرفتهم عني لتبقى هي.. إنها الوحيدة.

رد فارس ضاحكاً:

- لم أعتد عليك بهذا الشكل الرومانسي من قبل.. كنت أحسبك زير نساء يا عزيزي.
- ربما كنت كذلك ولكنها غيرتني بالطبع..

شعر فارس بصدق في حديث زين ولكن مشاعر الأخير كانت تخيفه، فهذا النوع من الاحاسيس في مجالهم الشائك قد يكون قاتلاً.

أو بالأحرى أنه مُميت في أغلب الأحوال!

أشار فارس للسرير وهو يقول لزين:

- اجلس يا زين..

جلس زين على السرير، وجذب فارس كرسياً ليجلس مقابله..

- أخبرني أكثر عن ملاك هذه.
- هذا سؤال عام جداً، إن بدأت الآن بالحديث عنها بالتفصيل فسأفوت موعدي معها الليلة بالتأكيد..
- أتحبها لهذه الدرجة ؟
- بل أعشقها.. وما الذي لا يُعشق فيها ؟
- منذ متى تعرفها؟
- لقد تعرفت عليها قبل أن أتعرف عليك بساعات..
- يا للمصادفة..

صَمت فارس وأخفض رأسه مبتسماً، ثم سرعان ما تلاشت إبتسامته وكأنه تذكر شيئاً مُحزناً، رفع رأسه لزين وهو يقول:

- أنت تعرف أن فكرة الحب لأي شخص في مجالنا هذا تعني الموت المحتم.. هذه الفتاة ستكون نقطة ضعف قاتلة بالنسبة لك، سيصل أعداؤك من خلالها إليك.. أنا لا أعني أن تتركها، ولكنني لن أقبل بأن أراك محطماً عندما ترى فتاتك المميزة وقد تعرضت للأذى على يد أي كان..
- لا أهتم.. أنا مستعد لأن أشعل أصابعي العشرة شموعاً كي أبقيها دافئة، بل سأحرق المدينة برمتها من أجل رمش إصطناعي خاص بها.. أنا مستعد لأن أخسر حياتي بكل أريحية إن كان هذا سيعني الحياة لها.. أنت تعرفني يا فارس، وتعرف أنني لا أسمح لأحد بالاقتراب من

الأشخاص المقربين مني، لهذا أعرف أنني سأحميها بكل ما أوتيت من قوة وبأي ثمن كان..

اقترب فارس ووضع يده على كتف زين بأبوة حقيقية وهو يقول:

- لا تشعل أصابعك شمعاً كي تقوم بتدفئة أحد.. إن كان يريد الدفء، قم بحرقه !

ابتسم زين مع شعوره بأن فارس يعرف ما يحس به في هذه اللحظة، ولكنه يكابر رغم ذلك كي لا يراه يتأذى.. كان يشعر بأن فارس هذا كالأب الذي لم يحظ به قط..

ربما يكون مجرماً ورئيس عصابة، ولكنه كان أحن على زين من كل رجال الأرض، وهذا يكفي بالنسبة له.. ومع هذا الاحساس تذكر رسالة ملاك، وأن كيوبيد يمكن أن يدخل هذه المدينة حقاً، ليغرس حبه في قلب فتاة ملائكية الجمال، ويزرع روح الأبوة الحقيقية في قلب رئيس أكبر عصابة إجرامية في هذه المدينة!

- حسناً.. سأعطيك نصيحة كي لا تبقى محشورة في حلقي، وأرجو أن تسمعني حتى النهاية يا زين..

أومأ زين برأسه فيما أردف فارس سريعاً:

- قبل أن تعترف.. هاك بضع تحذيرات مهمة..

فتح زين فمه ليقول شيئاً ولكن فارس أسكته مُؤنباً:

- لا تقاطعني.. إستمع لهذا الأرمل الحزين حتى النهاية!

إبتسم زين في أسى للوصف الذي وصف به نفسه فيما تابع فارس:

- قبل أن تعترف، هاك بضع تحذيرات.. أهمها أن تنتبه يا عزيزي.. أنت قاب كلمتين أو أدنى من قبرك!

مط زين شفتيه بعد هذا الكلام وآثر الصمت حتى يسمع ما سيصل له فارس في نهاية كلامه..

- الحب مائة ميتة قبل الموت.. والحنين عشر ميتات دامية قبل منتصف الليل!

سَكت فارس وهو يراقب ملامح زين وتأثير كلماته عليه، وكأنه يخبره أنه قد أنهى كلامه، فإبتسم الأخير وهو يقول:

- ولكنني إعترفت لها بالحب بالفعل!

سأله فارس في دهشة:

- ولم تركتني أتابع إذاً؟

- لأنك طلبت مني ألا أقاطعك، وأنا صبي مهذب!

ضحك فارس وهو يرد بنبرة من وقع في الفخ:

- يا لك من فتى لعين..

شَعر فارس أنه لا يجب أن يختم حديثه بكلام كهذا، خاصة أن زين قد إعترف لها بحبه، فأردف متلعثماً:

- لا أريدك أن تعتقد أنني مُعادي للحب، على العكس.. الحب أجمل شعور في الدنيا.. لمسة الحبيب القصيرة قد تُشعرك بأنك عِشت ألف حياة طويلة من السعادة، ولكن هذه الحياة لا تساوي ليلة باردة واحدة في غيابها.. لذا فالعشق قاتل مأجور رحيم ومتردد.. يضربك برصاصه في مقتل، ويدعو لك ألا تموت، وأن تبقى حياً لأطول فترة ممكنة..

أومأ زين برأسه متفهماً وكأنه مستغرب مما يسمعه، كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها هذا الجانب من فارس الذي تابع مسترسلاً بشكل غريب وكأنه لا يشعر بنفسه:

- إن كنت مقتنعاً بحقيقة أنك قد وجدت الفتاة المناسبة لك يا بني، فلا تتركها، وإتبعها لآخر العالم.. صدقني، الموت بجوار من تحب أرحم من الحياة بدونهم، خُذ نصيحة أرمل مكلوم.. ورغم هذا عليَّ أن أحذرك، لا تقع في الفخ، وخبئها في عينيك، قم بمداراتها من العالم وعيونهم الحاقدة، ومسدساتهم.. لقد خسرت فتاة أحلامي يوماً ما.. وما زلت نادماً على هذا حتى الساعة، وألعن

نفسي كل ساعة على أنني كنت السبب، وأواصل لوم نفسي قائلاً أنها لم تكن لتموت لو لم تحبني!

سأله زين مُترددًا:

- أما زلت تُحبها حتى بعد هذه السنوات؟

لم يرد فارس، تحشرجت الكلمات في حلقه، تلك الكلمات التي كانت تخرج بصعوبة بالغة أصلاً من فمه، وكأنه يجذبها من بئر عميق في قلبه، أو يتذكر شيئاً لا يريد أن يتذكره، كأنه يقول بصمت أن كيوبيد قد دخل سابقاً للمدينة، وأن كيوبيد هذا قد أصاب فارس في قلبه بسهم لم يتمكن من إنتزاعه حتى الآن..

الفصل الرابع
رقـــصـــــــة مـــــــع المـــــــــوت

سالت دماء ملاك على الأرض بغزارة شديدة، لتغير لون فستان ملاك الأخضر إلى اللون الأحمر، وتلطخ أصابع زين المرتجفة العاجزة، لا حيلة له في مساعدتها، وفي ذلك الوقت تمنى الموت للمرة الأولى.

تمناه لأول مرة، ومن كل قلبه، كي يلحق بها، وكي لا يُضطر لمواجهة أرض لا ملاك عليها..

أرض كاملة من الشياطين الملعونة، كان لابد لها أن تنال من الملاك الوحيد فوقها يوماً ما، ورغم شكوكه إلا أنه كان يعتقد أنه أقوى من الظروف، وأنه سيتمكن من حمايتها إن تعرضت لأذى، وها هو يراقبها تفقد بريق الحياة ببطء مُرعب بلا حول ولا قوة..

"ولكن أنا شيطان!"

كانت هذه آخر كلمة قالها زين لملاك، وآخر عبارة توقعت أن تسمعها في هذا الوقت، كانت تحتضر، ولكن كلماته قتلتها قبل الموت، ورغم هذا لم تستسلم، جمعت ما تبقى من أرواحها التسعة، ومدت أصابعها لتتحسس وجهه بحنان وهي تهمس:

- أنتَ شيطاني المفضل! أنت الشيء الوحيد الذي يُهمني على هذا الجحيم المُسمى بالأرض، وصدقني.. أنا أرى جنتي بجوارك، وإن كانت جهنماً!

سالت دموع زين على خديه لتمر على أصابع ملاك التي تلمس وجهه في عطف ملائكي، نظر بجواره ليجد مسدسه على الأرض، أمسك به بين أصابعه فلمعت عينا عزرائيل الذي كان يراقب المشهد في صمت، ولكن الفكرة التي كانت مُسيطرة على عقل زين كانت تتطلب تدخلاً سريعاً من عزرائيل قبل أن يتهور ويُفسد كل ما بناه طوال الفترة الماضية..

كان يريد قتل نفسه قبل أن تموت!

ولم يكن عزرائيل ليسمح له بحال من الأحوال بفعل هذا.. شَعر حينها بشعور زين الذي يتأمل حبيبته وهي تموت، الآن سيكون عليه مراقبة الرصاصة وهي تخترق جسده لتقتله دون أن يملك القدرة للتدخل..

ثبت المسدس على صدغه مُستحضراً كل قوته كي يتمكن من إطلاق النار، فهذه الفرصة لن تأتيه مرة أخرى، خاصة أن ملاك لن تكون موجودة حينها، وبالتالي فلا يوجد ما يضعف عزرائيل كي يتحكم بالجسد ويقوم بقتل نفسه.. سيضطر حينها لأن يعيش في ظلام عقله غارقاً في الأحزان، ومُراقباً عزرائيل وهو يعيث في الأرض فساداً..

كلا، لن يقبل بمثل هذا.. كان يشعر بعزرائيل وهو يحاول التحكم بجسدهم، ولكن ملاك بكل ضعفها قادرة على منع عزرائيل من إستلام زمام الأمور، كانت قوية لهذه الدرجة..

إقترب عزرائيل من زين وفي عينيه نظرة خائفة، نكزه على كتفه وهو يسأله محاولاً تشتيته وتغيير فكره عما سيقوم به:

- ما الذي ستفعله أيها المجنون؟
- سأنهي الأمر..
- هذه ليست نهاية، هذه بداية عذاب لستَ قادراً على تحمله..

لم يكن زين في وضع يسمع له بالاقتناع بترهات عزرائيل وإن كانت منطقية، لذا أجابه ودموعه لم تتوقف عن الانهمار من عينيه لحظة:

- سنكون معاً، هذا يعني أن عذابي كله سيهون بمجرد وجودها.
- أتعتقد أنكما ستذهبان للمكان نفسه إن قتلت نفسك؟
- لا يهم.. هل سأذهب للجحيم؟ إنه أرحم من حياتي بدونها..

كان مُصراً، ولكن عزرائيل لن يستسلم لقرار زين بهذه البساطة، نظر في عينيه وهو يقول:

- لقد قضيت حياةً كاملة قبلها، وستواصل الحياة دونها صدقني، الموت ليس الحل، ليس بالنسبة لمشاكلك.. الحل هو الإنتقام ممن قتلوها لترقد روحها بسلام!

هز زين رأسه نفياً، لا يهتم بالإنتقام، لم يرتح عندما قتل زياد سابقاً، وحتماً لن يرتاح عندما يقتل سكان المدينة أجمعين انتقاماً على ملاك، ثم أن قاتلها ميت بالفعل، كيف تقتل الميت مرة أخرى؟

- لا تفعل!

قالتها ملاك بصوتها المرتجف فسقط المسدس من يده بمجرد كلمة، وسقط قلبه مع دموعه ليختلط بدمائها على الأرض.. لم يكن يصدق ما يحدث.. كان يرى في هذه الفتاة مشروع شاعرة ناجحة، تحمل قصيدة بارعة الجمال في أعماقها، لم يتوقع أن تكون قافية أبياتها قريبة لهذه الدرجة، ولم يتوقع أن يخط نقطة النهاية بأصابعه!

وهنا ظهرت بوادر بيت إضافي في هذه القصيدة المشؤومة التي اقتربت من نهايتها.. سيارة تقترب من آخر الطريق، وقد تكون فرحة عزرائيل برؤية هذه السيارة أكبر من فرحة زين.. ألهمه سريعاً بما يجب عليه أن يفعله، إستل مسدسه ووقف في وسط

الطريق أمام المركبة التي تنطلق بسرعة عالية، وصوب مسدسه عليها، وما أن اقتربت حتى أطلق رصاصتين بإصبع عزرائيل وتركيزه على الزجاج الأمامي ليجبر السائق على التوقف..
أسرع زين بعدها نحو السائق، وضرب النافذة بالمسدس ليحطمها قبل أن يمد يديه عبرها ليجذب السائق بحركة سريعة ويرميه على الأرض.. ركض نحو ملاك وحملها ثم انطلق مهرولاً نحو السيارة..
همس لها محاولاً طمأنتها:
- لا تخافي.. ستكونين بخير يا ملاكي، أصمدي فقط.
وضعها على المقعد الخلفي وأسرع خلف مقعد السائق وعشّق السيارة، وداس بكل قوته على دواسة الوقود مُتجهاً نحو المدينة التي كان يعتقد أن خروجه منها سيعني اللارجوع!
كان في سباق مع الموت، عزرائيل في وجه عزرائيل، أحدهما حقيقي والآخر حديث في المجال، قد يكون قادراً على قبض الأرواح، ولكنه ليس قادراً على إبقائها حية!
أما عن ملاك فلم تكن تشعر بشيء مما يحدث حولها تقريباً، أصابتها قشعريرة طويلة غريبة، تلك القشعريرة لا علاقة لها ببرودة الجو.. إنها ردة فعل جسدها مع إحساسه بإقتراب الموت..
مرت دقائق شديدة البطء، ثوانٍ في سنوات، حتى رأى بوادر المدينة ليتهلل وجهه، لم يتوقع يوماً أنه سيكون سعيداً لهذه الدرجة بعودته إليها، ولم يكد يرى كابينة هاتف حتى توقف عندها وطار بأقصى سرعته ليدخلها ويطلب رقماً يحفظه عن ظهر قلب، وأتاه صوت فارس من الجانب الآخر سريعاً، صاح به زين في إنهيار:
- أنا زين.. أريدك مع أفضل طبيب في المدينة أمام القصر خلال دقائق.. الأمر عاجل..

لم يسأل فارس عن السبب مع نبرة زين التي لم يعتد عليها، كان مُستعداً لفعل ما هو أكثر من هذا من أجل هذا الشاب.. فأتى صوت فارس في كلمتين تعنيان بشارة الحياة بالنسبة لزين:

- لك هذا!

وضع زين سماعة الهاتف وعاد راكضاً نحو سيارته لينطلق بها نحو شقته، صاح بملاك وهو ينظر لها عبر المرآة:

- إبقي معي يا ملاك.. أرجوك لا تتركيني..

الشوارع تمر عن يمين زين وعن شماله بسرعة خاطفة، يعبر بين السيارات بخبرة وحنكة، من يراه سيعتقد أنه في مطاردة، وكان هذا صحيحاً، كان يهرب بحبيبته من الموت!

أوقف سيارته أمام القصر ليجد فارس في إنتظاره أمامه كما طلب، ومعه رجل قدير في أواخر الخمسينيات من عمره، ترجل زين من السيارة وانحنى ليحمل ملاك من المقعد الخلفي بين يديه وهو يسرع نحوهم..

"من هذه؟"

عاجله فارس بهذا السؤال فأجابه زين بعصبية:

- لا وقت للأسئلة يا فارس.. هذه الفتاة يجب أن تعيش.. أتفهمني؟ لا يجب أن تتركها تموت مهما كان الثمن!

كان يقول كلامه لفارس فيما عيناه مثبتتان على الطبيب وكأنه يهدده بالقتل في حال لم يتمكن من إنقاذها!

ولم يزد فارس كلمة واحدة على سؤاله، خاصة مع الدموع التي لم تتوقف عن السيلان من عيني زين لحظة واحدة..

نظر فارس لزين نظرة ذات معنى فأشار الأخير لجيب معطفه الأيمن، فمد فارس يده سريعاً ليخرج مفتاح غرفة زين، دخل من باب القصر المفتوح وأسرع أمامه على الأدراج ليفتح باب الغرفة والطبيب يحاول اللحاق بزين الذي بدت قدماه وكأنهما تطوفان فوق السلالم لشدة سرعته ولهفته..

دخلوا الغرفة ووضع زين ملاك على سريره، ثم مسح على وجهها ليبعد شعرها المبعثر فوقه في حنان، وكان إبعاد يده عنها من أصعب الأفعال التي قام بها في حياته..

صاح بالطبيب في حدة:

- ما الذي تنتظره؟ قم بعملك..

ارتجف الطبيب أمام صوت زين وأسرع ليضع حقيبته فوق السرير ليخرج منها أدواته، كان فارس يرى جانباً مختلفاً من زين، لم يره مُهتماً بخصوص مخلوق لهذه الدرجة من قبل..

تسارعت الأسئلة في رأس فارس، ولكنه نحّاها جانباً بإعتبار أنه هذا ليس وقت الأسئلة في رأي زين.. وأما عن صاحبنا فقد كان في حالة لا يُحسد عليها، ولو رآه أعداؤه في مثل هذا الوضع لكانتا الشماتة والتشفي سيدي الموقف بكل تأكيد..

غرز الطبيب إبرة المخدر في جلد ملاك، فشعر زين بالوخزة في قلبه، أما عن ملاك فلم تحتج لمخدر، كانت غارقة في مزيج البحر والغابة في عيني زين.. كانت تنظر له وكأنه يعني لها الدنيا وما فيها، وكان ينظر لها وكأنها الفتاة الوحيدة في هذا العالم، وكأنها أمله الوحيد في الحياة!

إستدار الطبيب نحو زين ليقول له مُطمئناً دون أن يجرؤ على النظر في عينيه بعد رؤية حالته النفسية:

- لا تخف.. الإصابة مرّت عبر جدار البطن، ولم تتسبب بأي أذى خطير، ومن الواضح أنها لم تخرج من الجانب الآخر، وهذا شيء جيد، وإلا لكان النزيف لوحده مميتاً..

تنفس زين الصعداء رغم أن قلقه لم يتوقف، لن يهدأ قبل أن يرى ملاك واقفة على قدميها معافاة، لترقص فوق بلاط الشقة باعثة الحياة فيها، وشامتة في الموت الذي فشل في أن يكون شريك رقصتها هذه المرة!

أشعل زين سيجارته الثانية فيما هو جالس على مقدمة سيارته منتظراً ملاك التي تأخرت أكثر مما توقع، فكر في نفسه أن هذا طبع النساء، ولم يكن متضايقاً، سينتظرها مهما تأخرت، المهم أن تخرج له في النهاية..

حاول إبعاد تلك الليلة المشؤومة عن أفكاره، وركز تفكيره على أن ملاك سالمة الآن، وها هو ذا سيأخذها إلى الحفلة الراقصة التي كان يحلم بها، والتي كانت تُعد حُلماً مستحيل التحقق في لحظتها..

نفث دخان سيجارته في الهواء في توتر، لقد سبق له الخروج في مواعيد غرامية أكثر مما يمكن أن يتذكر، ولكن هذا الموعد مختلف عن كل مواعيده السابقة، بالنسبة له كانت المواعيد مجرد مُقدمة رومانسية لليلة حمراء خالية من المشاعر في شقته، ولكنه الآن يعرف أنه لن يجرؤ على لمس ملاك حتى، بقدر ما كان يريد هذا ويتمناه إلا أنه مدرك لحقيقة أنه لا يملك الجرأة الكافية.

فُتِح باب المنزل في تلك اللحظة لتظهر ملاك عند الباب ثم تقترب منه ببطء وعلى وجهها ابتسامة جعلت عيني زين تتسعان لمرآها وكأنه يراها لأول مرة.. رباه كم بدت جميلة في هذا الفستان الأزرق، شعرها الأشقر تحت ضوء القمر، وبشرتها المتوهجة بالنور.. كانت تمشي نحوه بدلال لتتسارع أنفاس زين وهو يرى أطراف الفستان الحريري تتحرك مع الهواء ملامسة بشرتها الناعمة.

" ما رأيك؟"

نطقت ملاك بالسؤال لتوقظه من ذهوله، هز رأسه ليخرس صوت عزرائيل الهامس في تلافيف مخه ثم أجاب محاولاً إلتقاط أنفاسه:

- تبدين خاطفة للأنفاس !

اتسعت إبتسامة ملاك أكثر فزاد جمالها أضعافاً مضاعفة، فلا شيء في العالم أجمل من ملاك سوى ملاك وهي مُبتسمة.. إلتف زين حول السيارة وفتح باب الراكب لملاك فهزت رأسها بالنفي مُحافظة على الابتسامة فوق شفتيها.

سألها زين بشك:

- هل تريدين القيادة ؟
- كلا..

قالتها وهي تضيق عينيها بنظرة ذات مغزى، تأملها زين بغباء دون أن يفهم ما تريد بالضبط.

- ماذا تريدين إذا ؟!

زفرت ملاك بانزعاج وهي تسرع نحو زين لتغلق باب السيارة بقوة قائلة:

- يا لغبائك ! .. ألم تفهم ؟

نظرت في عينيه فوجدت أنه لم يفهم مقصدها حتى الآن، وإن لاحظت ضيقاً في ملامحه من أسلوبها في التعامل معه دون أن يقول شيئاً.. شعرت ملاك بتأنيب الضمير لغضبها بهذا الشكل لأمر تافه، وهو أمر كانت تعتقد أنه سيظهر بشكل أكثر ظرافة، ولكنه خرج بشكل فج أكثر مما كانت تعني له.. فاقتربت منه لتطبع قبلة اعتذار على خده كانت كفيلة بأن تمسح كل أمارات الانزعاج والضيق عن وجهه، ثم قالت مبتسمة:

- سنمشي.
- ولكن موقع الحفلة الراقصة بعيد من هنا..
- لا يهم.. نحن في ريعان شبابنا.. إعتبرها رياضة !
- أي رياضة تلك؟ أنتِ تمشين وهناك عدة غُرز في بطنك!
- أرجوك طاوعني، أريد أن أمشي معك..
- كما تريدين.

أقفل زين السيارة ومشى بجوار ملاك في الطريق، كان هذا عندما سمعا صوت إحتكاك قطعتي حديد ببعضهما بشكل مزعج، استدار زين مُتحفزاً ليرى شاباً يجلس على مؤخرة سيارته وفي يده سكين يقوم بخدش سقف السيارة بها وحوله ثلاثة شبان يبدوا أنهم أصدقاؤه..

كان تصرفهم يدل على أنهم يريدون منه رؤيتهم وهم يخربون سيارته، أي أنهم يبحثون عن مشكلة لسبب ما، ارتفع الدم لرأس زين بغضب وهو يستدير ويمشي ببطء وثبات نحو الشبان مدركاً أن هؤلاء الشبان قد جنوا على أنفسهم للتو، ولكن وجود ملاك معه كان يقلقه، لأنه يستحيل أن يظهر عزرائيل فيما تراقبه ملاك..

وصل زين إلى الشبان وملاك تمسك بيده بخوف، وقد بدا أنها تعرف الشبان.. قال أحدهم لملاك مع وصولهما إليهم:

- أهذا هو المعتوه الذي تركتيني من أجله ؟!

نظر زين إلى ملاك باستغراب من ثقة الشاب الواضحة وهو يتحدث مع ملاك، كان يتحدث معها وكأنه يعرفها منذ سنين..

سألها زين محاولاً تناسي الإهانة الاخيرة:

- هل تعرفينه ؟

فتحت ملاك فمها لترد ولكن الشاب قفز عن مؤخرة السيارة ليقترب بكتفين عريضين منفوخين بالهواء من زين مجيباً:

- أنا "شارل".. خليل ملاك السابق.

مط زين شفتيه بضيق وقد بدا أن هذه الكلمات قد أزعجته أكثر من خدش سيارته حتى..

- وما الذي تريده ؟

ابتسم شارل في شر وهو يقول:

- سترى..

أشار لأصحابه الثلاثة إشارة ذات مغزى فإقتربوا من زين ليتجمعوا حوله، وزين يراقبهم بصمت وقد أدرك أن الأمر لن

ينتهي على خير، هؤلاء الشبان موجودون هنا لسبب واضح، وهو الانتقام لترك ملاك لهذا المدعو شارل، أي أنهم هنا ليستعرضوا عضلاتهم أمامها بأن يكسروا شوكة زين أمام عينيها.. كان زين يدرك أنه لا فرصة لهم في حال كانوا يقفون في وجه عزرائيل، ولكن عزرائيل في الجانب المظلم من عقله الآن، إختفى بعد أن فقد القدرة على الظهور في حضرة ملاك.

صاحت ملاك بهم مستشعرة خطراً على زين:

- شارل.. لا تتهور.

أكمل زين عنها بعصبية:

- إسمع كلامها يا شارل، ولا تفعل شيئاً تندم عليه.

بدا أن كلامهما لم يزد شارل إلا غضباً فوق غضبه، أشار لأصحابه كي يساندوه كما يبدو ثم وجه لكمة لزين جعلته يتراجع للخلف دون أن يسقط ليلتقطه شاب آخر ويهيل لكمة أخرى على فك زين.. أخذ الشبان الأربعة يكيلون اللكمات الواحد تلو الآخر لزين العالق في المنتصف حتى إنهار أرضاً وهو ينزف من فمه وأنفه بغزارة..

كانت ملاك مصدومة مما يحدث، لم تتوقع أن زين قد يقف مكتوف الأيدي بهذا الشكل، لم تكن تريده أن يبرح الشبان الأربعة ضرباً، ولكن أقل ما يمكنه فعله هو أن يرد لكمة هنا أو يحاول صد ركلة في طريقها لبطنه، كانت تبحث عن زين الذي أطلق النار على مجموعة مرعبة من قاطعي الطريق بكل دم بارد، ووقف في وجههم ببسالة وكأن الخوف منزوع من قلبه.. لكنها لم تجد هذا الـ"زين"، لقد وجدت آخراً ضعيفاً، وها هو يقف عاجزاً بين يدي مجموعة من الشبان ليتلقى اللكمة تلو الأخرى دون أن يملك القوة ليرد الضربات..

صدمتها جعلتها تتجمد في مكانها دون أن تتمكن من الحراك حتى، ما الذي تغير خلال يوم وليلة لدرجة أنه أضعف زين بهذا الشكل المريب؟

أما زين فقد كان في وضع لا يحسد عليه، عزرائيل يصرخ في داخله طالباً الخروج، رافضاً لفكرة أن توسع ثلة من الشبان زين ضرباً فيما هو يقف مكتوف الأيدي هكذا..

ولكنه في الوقت ذاته عاجز تماماً في وجود ملاك.. شعور عزرائيل في تلك اللحظة كشعور مصاص دماء داهمه القرويون في قصره في النهار، فلا هو قادر على القضاء عليهم جميعاً وفي نفس الوقت فهو لا يستطيع الهروب لأن الشمس في الخارج ستحوله لكتلة من الرماد في ثوانٍ..

كانت ملاك هي الشمس التي يرهبها عزرائيل !

اقتربت ملاك منهم محاولة إيقافهم ولكن شارل دفعها بقسوة بعيداً لتشتعل النار في دماء زين لشدة غضبه..

لكنه كان عاجزاً عن فعل شيء، فهو ضعيف بطبعه، لم ينخرط في عراك إلا وخسره، لذا فظهور ذلك الكائن المسمى بعزرائيل في داخله جعل المنافسة على السيطرة منهيّة من قبل أن تبدأ، وكان هذا سبب تراجع زين للخلف ليترك لعزرائيل دفة القيادة..

أما ملاك فكانت سبباً في عودة زين للساحة بعدما منعه عزرائيل من الظهور لأسباب كهذه، فما أسهل أن يتجمع حولك قاطعو الطريق في مدينة ملعونة كهذه..

زين منكمش على نفسه على الأرض ليحتمي من الضربات المتتالية والركلات التي تضربه من كل ناحية.. دماؤه تغلي حرفياً، فيما الشبان يركلونه وهو ساقط على الأرض كطفل تجمع متنمرو المدرسة حوله..

لم يعرف الشبان أنهم بفعلتهم هذه يفتحون بوابات الجحيم، وأنهم وإن نجوا من عزرائيل هذه المرة فلن ينجوا منه في المرة القادمة بالتأكيد..

كان هناك شرخ في السماء يُنبئ بقدوم عاصفة، الهدوء الذي قبلها يوشك على الإنتهاء، إن لم يكن قد انتهى بالفعل، ولم يلحظ أحد هذا الهدوء، ولكن هذه ليست المشكلة..

المصيبة أنه بدلاً من المطر، سقطت أشياء أخرى، نيازك من غضب ونقمة وحقد دخلت جسد زين في ساعة ضعفه هذه، كانت هذه أشلاء عزرائيل التي تتجمع لتدخل في جسد زين، وكأنه يستغل هذه اللحظة ليزيد من قوته، وفي نفس الوقت كان يحضر نفسه للإنتقام من هؤلاء الذين تجرؤوا على إهانته بهذا الشكل..

الفصل الخامس
عـــــزرائـــــيـــــل
يـــــتـــــحـــــدث

- كفى !

صاح شارل بها في أصدقائه المتنمرين بعدما أدرك أن زين قد نال ما يكفي ليُشفى غليله منه، توقف الشبان الثلاثة عن ضرب زين وإن بدا عليهم أنهم يرغبون في ضربه أكثر..

إقترب شارل من ملاك ليقول بتشفٍ:

- هذا سيكفي ليتركك خليلك للأبد، وسأفعل هذا بكل شاب تفكرين في الخروج معه، حتى تموتي أو يصيبني الملل!

أمسك شارل بخصلة من شعر ملاك بين إبهامه وسبابته ناظراً للدموع المنهمرة على خديها وهي ترى زين على الأرض يتلوى من الغضب والعصبية والضعف والألم في آن واحد،

همس شارل في أذن ملاك:

- هذا مصير من يهجر شارل هكذا !

إستدار شارل بعدها ليمشي مبتعداً ويتبعه شركائه في الجريمة..

اقتربت ملاك من زين بسرعة لتمسك برأسه الدامي متحسسة الندوب والكدمات على وجهه بأصابعها والدموع تسيل على خديها كشلال لرؤية الدماء التي تملأ أنفه وفمه والجروح التي في وجهه، لاحظت أن كتفه في وضعية مستحيلة علمياً، لابد أنه مخلوع، وكذلك فإن رسغه منحني وكأن العظام فيه قد تحطمت..

كانت ذراعه اليمنى محطمة، كتفه مخلوع من مكانه، ويده مكسورة، ووجهه يكاد يكون كخارطة من الدم لشدة الضربات

التي تلقاها، ينزف من فمه وأنفه، وعيناه محمرتان بشكل مرعب..
همست له بأسى :
- أنا آسفة يا حبيبي.. أنا السبب.
أمسك زين بيدها بضعف ليسألها:
- هل تحبينني ؟
إستغربت ملاك من سؤاله فردت وهي تتحسس رأسه لتتأكد إن كان قد فقد شيئاً من قواه العقلية بعد كل هذه الضربات:
- هل أنت بخير ؟
أمسك زين بيدها الأخرى مبعداً إياها عن رأسه ومكرراً السؤال:
- هل تحبينني ؟
ردت ملاك بصدق حقيقي:
- بالطبع.. أنا أحبك أكثر من أي شيء في هذه الدنيا..
- وهل ستفعلين ما سأطلبه منك ؟
- طبعاً.. أطلب ما تريد.
أخرج زين مفتاح سيارته من جيبه بصعوبة وأعطاه لملاك قائلاً:
- أريدك أن تركبي في السيارة وتغمضي عينيكِ وتغلقي أذنيكِ !
سألته بدهشة من طلبه:
- لماذا ؟
أكد زين بإصرار :
- أرجوكِ.. افعلي كما أخبرتك..
ردت ملاك بإنصياع دون أن تفهم ما يريده من هذا الطلب، فكيف يطلب أن تتركه ملقى على الأرض فيما يفترض بالإنسان العاقل أن يطلب الذهاب للمشفى لعلاجه بأقصى سرعة:
- حسناً..
نهضت ملاك وفتحت باب السيارة لتنتبه لشارل وأصحابه الذين وقفوا أمام سيارة شارل المركونة على مقربة منهم ليراقبوا ما

يحدث باستمتاع بالغ، ركبت ملاك السيارة وأغلقت الباب، ثم أغمضت عينيها ووضعت يديها على أذنيها كما طلب منها زين بالضبط..
في الخارج كان المشهد على حاله، زين على الأرض يتلوى من الألم وهو يشعر بعظامه المحطمة وكتفه المخلوع وهما يحتكان ببعضهما لتزيد أوجاعه أضعافاً.. ثم اختلف المشهد تماماً، بدأت الدماء السوداء لعزرائيل تجري في عروق زين..
تغيرت ملامح زين من الألم إلى البرود وثم للغضب.. لقد استلم عزرائيل دفة القيادة في عقل زين وأصبح الآن المتحكم الوحيد في جسده..
وكان عزرائيل غاضباً..
غاضباً بحق !
نهض زين، الذي لم يعد زين، عن الأرض، ووقف ناظراً لشارل وثلته بثورة، ثم أخذ يقترب منهم ببطء وسط استغراب الشبان من تصرفه هذا، كان شكله غريباً للغاية رغم المسافة التي تفصلهم عنه، ذراعه اليسرى تتدلى بجواره في وضعية عجيبة يستحيل لبشري أن يؤديها، وفي الوقت نفسه كانت ذراعه منحنية إلى الأمام من كتفه المخلوع، بالإضافة ليده التي مالت في زاوية غريبة للغاية..
وصل زين إلى سيارة الشبان ووقف ناظراً في عين شارل مباشرة، حرك يده اليمنى وثبتها على كتفه المخلوع، ثم جذبه بحركة سريعة لينطلق صوت قرقعة عظام زين ببعضها مع عودة كتفه لوضعه الطبيعي.. اقشعرت أبدان الشبان لسماع الصوت الذي كان سماعه موجعاً، فكيف بشعور الشاب الذي احتكت عظامه ببعضها للتو ؟!
رفع زين ذراعه اليسرى أمام أعينهم ليلاحظوا تدليها في زاوية غريبة، وأمسك بها بيده اليمنى ليحركها من الرسغ يمنة ويسرة وصوت العظام المرعب يصدر من رسغ زين حتى عادت يده

لوضعها الطبيعي.. أخرج زين بعدها سكيناً من جيبه ومرر نصلها على جسم السيارة الحديدي مصدراً صوت خدش مزعج ليزيد من غضب شارل وعصابته.
دفع شارل زين بعيداً بكل قوته فلم يتزحزح.. فصاح به محاولاً التماسك قدر الإمكان بعد ما رآه من زين :

- ألم تكتفي مما حدث لك للتو ؟!

إرتسمت ابتسامة حمراء على وجه زين الدامي لشدة الضرب والكدمات المتوزعة على وجهه بشكل واضح، إن تناسينا الدماء التي غطت أسنانه فحولت لونهما للون الأحمر.
أجابه زين ببرود:

- كلا ! ما رأيك بجولة ثانية ؟

أتبع زين سؤاله بالفعل، فغرز سكينه في إطار السيارة لينفجر مصدراً دوياً عالياً أثار غضب شارل فوجه لكمة عاتية لزين وهو يصيح:

- أيها اللعين !

أمسك زين بقبضة شارل المتجهة نحو وجهه وكأنه يلتقط كرة بيسبول، وأمالها محطماً رسغه بصوت مسموع وكأنه يرد الصاع له، ثم وجه له لكمة أسقطته أرضاً وهو يصرخ من الوجع.. تأهب أصحاب شارل بمزيج من العصبية والدهشة من القوة المفاجئة التي تملكت هذا الشاب قبل أن يندفعوا نحوه بسرعة..
أمسك زين برأسي اثنين من الشبان المندفعين نحوه بكفيه ثم ضربهما ببعضهما ليرتدا بعنف، ثم ركل أحدهما في بطنه ليرتد مرتطماً بالسيارة قبل أن يضرب الأرض.. أمسك زين بمرفق الشاب الثاني وأماله ليصبح مقابلاً له كدرع بشري في اللحظة التي كان فيها الشاب الثالث يسدد لكمة لزين فيفاجئ بحركته الأخيرة التي تسببت بأن يتلقى صاحبه اللكمة عوضاً عن زين..

رمى زين بالشاب الثاني أرضاً وانهال ضرباً على الثالث بعصبية حتى فقد الوعي بين قبضتيه.. ثم استدار لينظر لشارل وعلى وجهه نظرة مرعبة، كانت نظرة عزرائيل في عينيه..
زحف شارل على الأرض محاولاً الابتعاد عن الشيطان الذي تلبس هذا الشاب، ولكن زين أمسكه من تلابيبه ليرفعه بحركة بسيطة قبل أن يرميه على السيارة محطماً زجاجها الأمامي..
أسرع زين بعدها وأخرج السكين المغروزة في إطار السيارة وعاد لشارل وفي رأسه فكرة مُفزعة بحق..
أمسك زين بكف شارل بين أصابعه مستعيداً اللحظة التي أمسك فيها الأخير بخصلة من شعر ملاك بسبابته وإبهامه، كانت هذه فكرة زين التي لم يكن قادراً على تطبيقها، لكن وجود عزرائيل مفيد كالعادة.. كان قادراً على تحويل أحلام زين السوداء إلى حقيقة!
ثبت زين السكين على سبابة شارل وغرزها في الإصبع لينزع اللحم عن العظام وسط صرخات شارل الموجوعة..
كان هذا عندما شعر زين بضعف مفاجئ، وبأن عزرائيل يتراجع، وكأن الشمس قد أشرقت !
ملاك !
فهم زين ما حدث بسرعة، فإستدار لسيارته ليجد ملاك تنظر له من بعيد بإستغراب ودهشة بالغين..
كانت تستنزف قوة عزرائيل بمجرد نظرتها..
صاح زين في ملاك عبر الشارع:
- لا تنظري..
إستدارت ملاك بحركة لا إرادية أمام النظرة في عيني زين، والنبرة المرعبة في صوته، وعرفت أن من صاح بها للتو لم يكن زين، بل كان شخصاً آخر، أو شيئاً آخر مختلفاً تماماً عن الشاب الذي كان يتلوى من الألم على الأرض قبل قليل..

أعاد زين نظرة لشارل بعد أن إستعاد قوته مع إشاحة ملاك لنظرها عنه، وأمسك بإبهام شارل الذي تجرأ على لمس ملاك في وجوده، وعرّاه من اللحم بتمريرتين من السكين فوق الإصبع، ابتعد زين قليلاً فيما أمسك شارل بكفه الذي أصبح شكله مرعباً مع تجريد زين لإصبعين من أصابعه من اللحم ليحولهما لمجرد عظام فحسب..

أمسك زين بشعر شارل صارخاً به:

- هذا مصير من يجرؤ على لمس خصلة من شعر ملاك في وجودي، أنت محظوظ لكونك ما زلت حياً!

أفلت زين شارل وإستدار لينظر لملاك التي لا زالت تعطيه ظهرها دون أن تستطيع النظر، لم تكن تجرؤ على إستراق النظر حتى، كان كل ما يدور في خلدها هو أن هذا هو الجانب الشيطاني في زين، وإن كانت لم تفهم بعد ما الفكرة من أنه قد أُوسِع ضرباً قبل أن ينقلب رأساً على عقب، ولماذا طلب منها أن تنظر بعيداً؟ لماذا لم يقم بكل هذا أمام عينيها؟

أي شاب آخر كان سيطلب منها المشاهدة، كي ترى قوته وتشعر بالأمان بجواره، لقد إتفق شارل مع أصحابه يوماً كي يتحرشوا بها ويتدخل هو لينقذها كي يظهر أمامها بمظهر البطل.. أما عن تصرف زين فهو غير مفهوم على الإطلاق.. تماماً مثل زين!

ألقى زين نظرة على ساعته ليدرك أن الحفلة الراقصة قد فاتتهما بالتأكيد.. لقد أفسد هؤلاء الشبان بألاعيبهم الغبية رقصته الموعودة مع ملاك، ولكنهم لم يخرجوا سالمين من أثر فسادهم هذا..

لقد كانوا هم أنفسهم في رقصة مع كائن لم يتوقعوا أنهم سيواجهونه في اللحظة التي خرجوا فيها من منازلهم..

لقد كانوا في رقصة من نوع مختلف، يقودها عزرائيل ويتحكم بهم كعرائس خشبية، وهم مُجبرون على التأدية دون فهم كينونة المخلوق الذي يعبثون معه..

الرقصة التي أدوها للتو كانت مع الموت بذاته متجسداً في بدن شاب عشريني قد يبدو هشاً وضعيفاً للوهلة الأولى، ولكن هناك روحاً شريرة تسكنه قد تتسبب النار التي في داخلها في حرق المدينة بأكملها يوماً ما إن وضعت على المحك!

فتح زين باب القصر الكبير مصدراً صريراً عالياً فأطلق سبة حانقة بعد فضح أمره، لم يكن يريد أن يراه أحد في هذه الحالة، فالإجابة على ما حدث له ستكون محرجة للغاية، والآن انتبه كل من في القصر لدخوله إليه.. ممتاز، هذا ما كان ينقصه!

أغلق الباب ومده يده ليبحث عن مفتاح النور في الظلام، لامسه ليشعر بيد تمسك بيده وسط الظلمة.. ضغط مفتاح النور متحفزاً ليعم الضوء المكان ويفاجئ بفارس يقف أمامه وكأنه كان ينتظره، وكانت مفاجأة فارس أكبر لرؤية زين بهذا الشكل..

"ما الذي حدث لوجهك؟"

زفر زين بضيق وهو يجيب كاذباً بسرعة:

- القطط اللعينة !

إبتسم فارس للتبرير المفضوح بشدة، ومد يده ليتحسس آثار الكدمات على وجهه وهو يسأله:

- يمكنني نسب الجروح في وجهك لخربشات القطط، ولكن الكدمات التي في وجهك لا يمكن أن تُسببها إلا لكمات مباشرة، ولا تدّعي أنك قد سقطت فهذه ستكون كذبة أخرى فقط.

تحسس زين وجهه لينتبه فارس للضمادة التي تحيط بكفه والدعامة الملتفة حول كتفه لتثبته، كان واضحاً أنه قد انخرط في عراك، ولكن أي شخص يمكنه أن يفعل هذا بزين ؟ زين الذي أوسع ثلة من الرجال ضرباً أمام عينيه عشرات المرات في الشهور الماضية، عدا عن الجثث التي تناثرت حوله دون أن تهتز شعرة في رأسه لمقتلهم..

أشار له فارس كي يجلس، ثم جلس على كرسي مقابل له.

- أخبرني بما حدث..

أخفض زين رأسه وكأنه يستحي من النظر في عيني فارس، مجيباً:

- إنه زين !

إبتسم فارس بشفقة للتبرير وهو يسأله:

- حسناً.. وأين كان عزرائيل في الوقت الذي كان فيه زين يتعرض للضرب بهذا الشكل؟

- كان مختبئاً !

كان فارس يعرف أنه يحدث عزرائيل، فالأخير يحب التحدث عن نفسه بصيغة الغائب.. كان يعرف بحكاية عزرائيل وزين اللذين يسكنان في جسد واحد، لم يكن مقتنعاً بها للغاية لغرابتها، ولكن كل يوم كان يثبت له صحتها أكثر وأكثر..

- ولم كنت مختبئاً ؟

- لأن ملاك كانت هناك..

كان ينطق اسم ملاك بصعوبة.. يخرج الاسم من فمه بطريقة غريبة وكأن لسانه يتشنج عندما يفكر في ذكرها على لسانه حتى !

- ما زلت لم أفهم..

- إذا فأنت تشعر بما أشعر به الآن !

مد زين يده لجيبه ليخرج علبة سجائره ويتحاشى نظرات فارس قدر الإمكان، محاولاً المماطلة فيما يصوغ تبريراً لضعفه هذا، أخرج سيجارة بفمه وحاول إشعالها بصعوبة دون أن يستطيع، فمد فارس يده وأشعل له السيجارة ناظراً في عينيه مباشرة محاولاً سبر أغوار هذا الفتى الغامض دون فائدة، وكأنه يدخل متاهة متشابكة شديدة التعقيد..

سأله فارس وقد بدا متضايقاً لرؤيته بهذا الشكل، حتى وإن لم يكن زين الذي أمامه، إلا أنه لا يزال حزيناً لرؤية الصبي الذي عانى طوال حياته وهو يواصل المعاناة حتى الآن..

- ما الذي يدور في رأسك يا عزيزي ؟

نفث زين – الذي استلم عزرائيل زمام القيادة في جسده في اللحظة التي تفرق فيها عن ملاك – دخان سجائره بعصبية بالغة وهو يجيب:

- تلك اللعينة..
- إشرح لي ما يحدث بربك، ما الذي فعلته هذه الفتاة حتى أتيت لي بهذا المظهر المريع؟
- المصيبة أنها لم تفعل شيئاً.. ولكنني أصبح ضعيفاً للغاية في وجودها، تجبرني على التواري بعيداً عن أنظارها، وأعجز تماماً عن السيطرة على زين، وفي نفس الوقت فهي تزيد من قوة زين أضعافاً مضاعفة.

ضحك زين بسخرية وهو يتابع:

- بالطبع فهي تزيده قوة في وجهي فقط.. ولكنه يبقى بذات الضعف في وجه مجموعة من الشبان الذين أوسعوه ضرباً دون أن يرد ضربة واحدة على الأقل لأي منهم.. وملاك تراقب ما يحدث بصمت.. هذه الفتاة تقوم بوضعنا في مواقف لا نحسد عليها، لقد كادت تتسبب في قتلي على يد قاطعي الطريق لولا أنه تدارك الأمر وجعلها تنظر بعيداً.. وبالطبع كانت فكرته لتشتيت إنتباهها هي أن يقوم الغبي بإحتضانها كي لا تنظر إليه.. وهذا جعلني أضعف حتى، ولكنه لم يضعفني للدرجة التي تمنعني من الضغط على الزناد وقتلهم جميعاً..

أومأ فارس برأسه متفهماً، وإن كانت حيرته على حالها.. ثم سأله محاولاً عدم إستفزاز عزرائيل قدر الإمكان:

- وكيف إنتهى الأمر ؟ هل ذهبوا في حال سبيلهم ؟
- بالطبع لا.. كيف لهم أن يمضوا في طريقهم بعد ما فعلوه، لقد تفتقت قريحة زين العبقرية عن فكرة أن يبعد ملاك عني كي أتسلم القيادة بنفسي وأُعلّم هؤلاء الصبية درساً لن ينسوه، وهو ما حدث بالفعل.. لولا هذا لوجدت

هؤلاء الشبان يتسكعون في الشوارع وهم يحكون عن ضربهم لعزرائيل ضرباً مبرحاً في هذه الليلة..

سأله فارس في تردد، وكأنه خائف من الإجابة:

- وما الذي ستفعله بخصوصها؟
- لا أعرف.. لا يمكنني قتلها بالتأكيد، فكيف أقتل ما لا أستطيع النظر في وجهه؟ لو كانت شخصاً آخر لقتلتها دون أن يرف لي جفن.. ولكن لها مفعولاً غريباً.. تقلب موازين القوى كلها بكل بساطة والمصيبة أن كل هذا يحدث دون أن تعرف حتى.

أطفأ زين السيجارة بقوة في المطفأة وهو ينفث ما علق في رئتيه من دخانها، كان فارس يستمع لكلام زين بإستغراب شديد، ولكنه في نفس الوقت متعاطف معه، مع زين قليل الحيلة في وجه الدنيا، ومع عزرائيل، أمل زين الوحيد في النجاة في مدينة كهذه، الذي تضعفه ملاك بشدة بحضورها الطاغي.. تأمل الفتى بحزن دون أن يعرف ما يقول، كان منزعجاً لرؤيته بهذا الشكل، ويعتبره كالابن الذي لم يحظ به قط، ولكنه لم يكن ليقبل بمقتل ملاك البريئة على يد عزرائيل لمجرد أنها تضعفه، وإن كانت بفعلتها هذه تعرضهما للخطر..

لم يفهم ما يجري في رأس زين حتى الآن، ولا يعتقد أنه سيفهم في يوم من الأيام، ولكنه لا يهتم، لقد تقبل زين بكامل صفاته، بعيوبه وحسناته، بإنفصامه، وشخصيتيه المتناقضتين بشدة، عزرائيل شديد الجبروت، الذي يعتبر القتل مجرد ضغطة زناد لا تقدم ولا تؤخر، وزين الضعيف الرقيق، الذي وجد الحب الحقيقي أخيراً في مدينة نسي سكانها معنى الحب منذ زمن طويل..

- لا يمكنك قتل ملاك.. ولا يجب عليك أن تفكر مجرد التفكير في فعل كهذا.
- لماذا ؟
- لأنك ستجرح زين بهذه الطريقة..

- أعرف أنك تعتقد أنني لا أهتم لزين، ولكنني أهتم لأمره فعلاً، ولهذا إخترته من بين كل البشر، لقد تعرض للظلم طوال حياته، لم يعرف طعم السعادة قط، كنت أحاول جعله يشعر بالقوة، إنه يعرف أننا وجهان لعملة واحدة، وأن اختفاء أحدنا سيعني إختفاء الآخر كذلك.. إن دخلت رأسي الآن فستجد زين يغني أجمل القصائد في مدح ملاك، يتحدث عنها بلا توقف، هذا إن تناسينا الأحلام التي أراقبه وهو يراها من بعيد، لقد أصبحت محور حياته ووجوده.. لا يمكنني قتلها لأن هذا سيتسبب في قتله كذلك..
- وماذا عن كلامك الطويل بأنك ستقتلها ؟
- مجرد كلام.. أنا أكرهها ولا يمكنني إنكار هذه الحقيقة، ولكنني في نفس الوقت سعيد لأنه شعر بالقوة أخيراً، رغم أن هذه القوة لا تظهر إلا في وجودها، ولا تؤذي أحداً سواي إلا أنني لست متضايقاً لهذا فقط، أنا متضايق لأنه في لحظة كالتي واجهناها اليوم، لا يمكنني التحكم في جسدنا حتى وإن أراد مني زين أن أفعل.. هذه هي المشكلة..
- لم لا تبحث عن حل وسط ؟ طريقة يستطيع فيها زين التراجع وتسليمك زمام الأمور عندما تحتاجون لهذا..
- نحن نفكر بالموضوع، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، أنت لا تفهم كمية القوة التي تعطيها له عندما تمسك بيده.. لقد قَبَلَت وجنته في هذه الليلة إعتذاراً، وبفعلتها هذه قامت بحرق وجنتي، ولا تعتقد أنني أبالي بزيادة حرق إضافي في وجهي، ولكنني لا أتصور ما يمكن أن يحدث إن طارحته الغرام في يوم من الأيام.. قد تقتلني بفعلتها هذه !

ضحك فارس ملء شدقيه مرغماً، لم يعرف ما يمكن أن يقول، حاول تمالك نفسه ليتوقف عن الضحك، ثم قال محاولاً تغيير الحديث:

- لدينا موعد شديد الأهمية بعد عدة أيام..

رد زين بسرعة:

- وأنا جاهز.

سأله فارس مبتسماً بشك:

- بشكلك هذا ؟

- وهل ستأخذني لحفلة راقصة أخرى ؟!

ضحك فارس مجدداً وهو يجيب:

- بالطبع لا.. لدينا مقابلة مع شخصية شديدة الأهمية، أريد منه أن يتعرف عليك بصفتك ذراعي اليمنى.. كي يقوم بتسليمك المهمات القادمة جميعاً..

- ولكنك تعرف أنني لا أقتل من أجل المال ؟

- أعرف.. وهو لن يطلب منك أن تقتل، على الأغلب، فهذه المهمات يمكنه تسليمها لأي من رجاله، المهمات التي ستتسلمها أعقد من مجرد رصاصة تخترق قلب أعداء هذا الرجل.. وحتى إن طلب منك قتل شخص ما، فسيكون هناك مبرر واضح لهذا.. وبعد كل شيء إن لم ترد أن تقوم بأي من المهام فيمكنني القيام بها بنفسي أو إرسال أحد رجالي..

- كلا.. عندما يكون ذراعك اليمنى موجوداً، فلا أحد غيره سيستلم المهمات..

- وهذا ما أتوقعه منك..

إبتسم فارس لكلام زين رغماً عنه، كان يعتبر هذا الشاب في كفة، وكل عصابته المسماة بـ"المنتقمون" في كفة أخرى..

وتأكد حينها أنه لن يمانع التضحية بكل رجاله من أجله، ولن يتردد في فعل هذا إن اضطر للأمر..

كان يملك الموت كذراع يمنى، ماذا يريد أكثر من هذا؟!

الفصل السادس
خليفة الشيطان

السُلطة أقوى مخدر في التاريخ بعد الحب، لا شيء يغير نفسية الإنسان وتصرفاته مثل الحب والشعور بأنه صاحب اليد العليا على الناس، هنا تظهر المعادن الحقيقية لدى الجميع.. وفي هذه المدينة ستجد جيوشاً عطشى لجرعة من السلطة فحسب، واقعون في غرامها حتى النخاع.

أخذت هذه الخواطر الغريبة تحوم حول رأس زين، وكان عزرائيل من بدأ بهذا الحديث الصامت في رأسه، لقد أظهرت ملاك بمجرد وجودها في الحياة جانباً جديداً من زين، أصبح أقوى بمراحل، والسلطة التي أصبح يملكها أظهرت جانباً آخر، وهو الآن في صراع بين الجانبين، إما أن يستسلم لقلبه وحبه، أو يستسلم لجانبه الأسود المتمثل في عزرائيل، وكان القرار أصعب مما تتوقع.

كانت هذه هي الفكرة الأخيرة في ذهن زين قبل أن يقاطعه صوت زمجرة محرك سيارة فارس عندما أطفأها مُعلناً وصولهما إلى وِجهتهما، نظر الأخير إلى زين قبل أن يسأله ليتأكد من جاهزيته مرة إضافية..

- تذكر يا زين.. البارون رجل بالغ النفوذ في المدينة، وكان في يوم من الأيام أهم رجالها وأشدهم قوة ومالاً وسُلطة، ورغم مرور السنين لا يزال يحتفظ بمكانته وسط الجميع، ومجرد أنه لا زال بهذه القوة حتى الآن

يعني أنه حليف شديد الأهمية إن إستطعنا الحفاظ عليه في صفنا..

- لا تخف، أخبرني بما يجب عليَّ فعله وسأقوم بالأمر دون تردد.
- مبدئياً، عليك أن تكسب ثقته كي يقوم بتسليمك المهام، وعليك كذلك أن تظهر له قوتك الحقيقية، فشكلك الحالي لا يوحي بالقوة التي تملكها للأسف، لذا سيكون علينا أن نريه عينة منها على الأغلب.. هل أنت موافق ؟
- موافق بالتأكيد..

ترجل فارس من السيارة وتبعه زين الذي لم يتمالك نفسه من الإنبهار بالمكان، كان أمام حديقة خضراء شديدة الجمال، يُطل عليها قصر مهيب يبدو رغم قدمه فخماً وكأنه بُني بالأمس..

مشى خلف فارس نحو بوابة القصر، وقفا أمامها لثوانٍ وكأن فارس مُتردد في الفكرة، كيف يدخل لرجل مثل البارون مع شاب عشريني شبه مُشوه لشدة آثار الجروح التي تجعله يبدو وكأنه تعرض لضرب مُبرح، كانت الفكرة مُزعجة لفارس نفسه، لذا فهي ستضايق البارون بلا شك، وسيحتاجون لجعله يرى بعينه قوة زين الحقيقية كي يعترف به..

أخذ فارس نفساً عميقاً محاولاً إبعاد كل هذه الأفكار المتشائمة عن رأسه، ثم مد يده وأمسك بالمدقة الحديدية الذهبية، ودق بها ثلاث دقات على باب القصر..

كان القصر من الداخل أجمل من الحديقة والمشهد الخارجين بأضعاف، فخم حتى الإكتفاء، وعلى الجدران توزعت العديد من اللوحات لأشهر الفنانين، لوحات تساوي الملايين وتشي بأن صاحب المكان مليونير وذواق حقيقي للفن، بالإضافة لعدد من التماثيل تمركزت في مواقع إستراتيجية من القصر زادته فخامة حتى..

كان زين يتأمل القصر مشدوهاً، نكزه فارس بكوعه مع دخول البارون إلى الغرفة، فنهض كل من زين وفارس إحتراماً فيما إقترب منهما ليصافح كلاً منهما بحرارة وبشاشة.. كان رجلاً في أواخر الأربعينيات من عمره، ذو هيبة واضحة، بشارب ضخم، وملامح حادة، جلس البارون على أريكة وأشار لهما بالجلوس ففعلا..

كان الحراس يحيطون بهم من كل ناحية، ستجد عدة حراس عند كل باب وكل نافذة ، كان يحتل منصباً شديد الأهمية ويملك نفوذاً بالغة في المدينة والدولة بأكملها..

- ما سبب هذه الزيارة المفاجئة يا فارس ؟

أشار فارس إلى زين مجيباً:

- أردت تعريفك على ذراعي اليمنى..

ابتسم البارون بسخرية وهو يسأله:

- وماذا عن (هاري) ؟ هل أصبح ذراعك اليسرى ؟

يراقب زين حوارهما بصمت فيما يجيب فارس:

- لقد قُتل هاري قبل ثمانية أشهر تقريباً..

أومأ البارون برأسه دون أن يبدو عليه أي إنفعال وهو يرد:

- تعازيَّ الحارة.. ومنذ متى تعرف هذا الشاب ؟

- منذ حوالي سبعة أشهر..

يومئ البارون برأسه بشك متسائلاً :

- وهل تثق به لهذه الدرجة رغم أنك تعرفه منذ فترة قصيرة ؟
- بالطبع، ما قام به في هذه الفترة القصيرة كان أكبر من قدرتي على تجاهله، لقد قام بما لم يستطع أعتى رجالي القيام به..
- وما المطلوب مني الآن ؟
- أردت تعريفك عليه فقط.. وإعلامك بأنه من سيستلم المهمات الجديدة عوضاً عن هاري..

لم يبدو البارون متحمساً للفكرة..

- وتريد مني أن أضع رقبتي بين يدي شاب في هذا العمر ؟
- أنت لا تعرفه يا سيدي..

هز البارون رأسه نافياً الفكرة بحزم:

- وكيف لي أن أعرفه ؟ إنسَ الفكرة يا فارس.. أفضل أن أسلم المهمات التي كنتم تتسلمونها لأي من رجالي من الآن عوضاً عن أن أسلمها لشاب في هذا العمر لا يملك أي خبرة في مجالنا، أنت تفهم ما أعنيه يا فارس..
- أعرف ما تعنيه بالطبع، ولكنني أؤكد لك مرة أخرى يا سيدي، أنت لا تعرف ما يمكنه أن يفعل، وما فعله بالفعل..
- لا يهم.. ما زال صغيراً على عملنا..

تدخل زين لأول مرة في الحديث قائلاً بثقة:

- إن لم تكن واثقاً بي فيمكنك تجربتي..

كان زين ينظر عيني البارون مباشرة وهو يتابع:

- يمكن أن أقوم بأي شيء لأكسب ثقتك..

يبتسم البارون في وجهه وهو يرد:

- الثقة بالنفس صفة جميلة في الرجل.. ولكنها إن زادت عن حدها إنقلبت غباءً محضاً.. وأنا لا أعتقد أن فارس قد يقوم بإحضار شاب غبي لمقابلتي..

ركز البارون نظره على الجروح والكدمات في وجه زين وهو يسأله:

- ما الذي حدث لوجهك ؟

كان زين يتوقع هذا السؤال، وإستغرب من عدم ذكر البارون للأمر في بداية الحديث، إبتسم في وجه البارون وهو يرد بثقة:

- كنت في عراك مع مجموعة من قاطعي الطريق..

اومئ البارون برأسه وهو يقول مستفزاً زين:

- يبدو أنهم قد أوسعوك ضرباً..

ولكن زين لا يهتم لمحاولاته..

- على العكس، هم جميعاً أموات الآن..

ضحك البارون متخيلاً شاباً بهذا العمر وهو يوسع ثلة قاطعي طرق مرعبين ضرباً قبل أن يقتلهم جميعاً.. عض على السيجار وهو ينفث دخانه متسائلاً:

- إن كان هذا صحيحاً فكيف آذوك لهذه الدرجة ؟
- لم يؤذوني.. أنا الذي أحب أن أسدد الضربات بوجهي.

سأله البارون وسط ضحكاته التي حاول كتمها بصعوبة:

- أتعني أنك ضربتهم بوجهك ؟!
- بالضبط..

ضحك البارون بقوة حتى أصبح جسده يهتز كالهلام ثم رد مستسلماً :

- حسناً.. موافق.. سأقوم بتجربتك، ولكن كيف ؟
- بأي طريقة تجدها مناسبة.. وأنا جاهز..
- تعجبني ثقتك بنفسك.. حسناً..

يصيح البارون منادياً أحد رجاله:

- تعال يا (صخر)..

يبدو أن البارون يريد لعب لعبة ما، وكان زين مُستعداً للعب أي لعبة ما دامت تعني كسب ثقته.. ففي تلك اللحظة دخل رجل ضخم

للغاية إلى الغرفة، مفتول العضلات، وذو ملامح خشنة، نظر له زين باستغراب وقد فهم ما يقصده البارون بمناداته..

أشار البارون إلى الرجل مُعرفاً به:

- هذا هو صخر، أحد رجالي القدامى.. إن استطعت عراكه وهزمه، أو حتى جعله يسقط على الأرض، فسأقوم بتسليمك كل المهمات القادمة، وسأعطيك ضعف المبلغ على كل مهمة.. ولكن علي تحذيرك، لن يكون الأمر سهلاً..

صمت زين وهو ينظر لصخر من أعلى لأسفل وكأنه يحاول استكشاف نقاط ضعفه، ابتسم البارون لرؤيته بهذا الشكل فسأله ضاحكاً:

- هل أنت خائف ؟

ابتسم زين وهو يرد ناظراً للبارون:

- لو كنت تعرفني، لعرفت أنه لا مكان للخوف في قلبي!

ضحك البارون وأشار له أن تفضل إلى ساحة المعركة:

- حسناً.. فلترينا عضلاتك يا بطل !

نهض زين ومشى نحو صخر ويقف أمامه، نظرا في عيني بعضهما بتحدي، ثم أخذ زين نفساً عميقاً وسدد عدة لكمات لمعدة صخر فتراجع قليلاً على أثر اللكمات، ولكن يبدو أن هذه اللكمات لم تؤتِ المفعول الذي كان يتوقعه زين..

تراجع زين ببطء مع تقدم صخر إتجاهه ليجد الجدار خلفه، كوّر صخر قبضته وسدد لكمة لزين، ولكن الأخير ابتعد في اللحظة الأخيرة عن اللكمة لترتطم يد صخر بالجدار بقوة.. والبارون وفارس يراقبان ما يحدث بإهتمام منتظرين نهاية المعركة..

كان زين وعزرائيل يعملان سوية، الأول يُفكر ويقترح خطوات، والثاني يُطبق عملياً، ثنائي فعال في جسد رجل واحد!

أمسك زين برأس صخر ثم ضربه بالجدار بقوة، كرر الضربات لثلاثة مرات إضافية قبل أن يدفعه صخر بعيداً عنه ليفرك فروة

رأسه وقد بدا عليه الألم.. يسرع زين نحو صخر مُستغلاً الوضع ليسدد لكمة بكل قوته لفك صخر جعلته يترنح متراجعاً دون أن يسقط، فيبدأ زين بلكمه مجدداً ولكن صخر لا يتأثر للغاية بكل هذه اللكمات..

وجه صخر لكمة قوية لزين فتراجع من قوتها ممسكاً بوجهه ومحاولاً الحفاظ على توازنه في الوقت ذاته، يستند للجدار وهو ينزف من أنفه، يستدير صخر ويمسك بطاولة صغيرة على مقربة منه ويرفعها ليضرب بها زين، ينظر الأخير حوله فيجد مزهرية زجاجية، فيمسكها بسرعة ويهشمها على وجه صخر فيتراجع والدماء تنزف من وجهه بغزارة من جروح الشظايا وتسقط الطاولة من يده..

يمسك زين بصخر من تلابيبه ويضرب رأسه برأس صخر عدة مرات، كانت هذه أهم خطوة أتفق عليها زين وعزرائيل، حركة مقصودة كتبرير للجروح والكدمات في وجهه، كي يثبت له أنه يحارب بوجهه دون أن يهتم إن كان سيتشوه كنتيجة لفعلته !

يسرع زين ويحمل الطاولة ويضرب صخر بها على بطنه فينحني من قوة الضربة، ثم يعاجله بضربة إلى فك صخر من الأسفل لتكون تلك الضربة القاضية، يسقط صخر أرضاً بدوي عالٍ كإنهيار جبل، فاقداً للوعي من قوة اللكمة..

البارون يضحك بشدة دون أن يهتم لرجله المُلقى أرضاً، وقد بدا متفاجئاً مما حدث،لم يكن يتوقع أن ينجح زين في هزيمة صخر بالتأكيد، ولكنه رجل ذو كلمة، وهذا يعني أنه سيحتفظ بكلمته ووعده لزين حتى النهاية..

يصفق له بحرارة وإعجاب شديدين، ثم يصيح بحماس:

- أحسنت.. تعال يا عزيزي.

يشير البارون له كي يجلس، يقترب زين منهما وهو ينزف من أنفه دون إهتمام منه، يتناول البارون منديلاً ويعطيه لزين ليمسح

الدماء عن وجهه وهو ينظر لصخر الفاقد لوعيه فوق بلاط الصالة، ثم ينادي أحد رجاله فيسرع نحوه..

- خذوه للخارج..

يسرع رجال البارون ليحملوا صخر بصعوبة شديدة لخارج الغرفة، يستدير البارون من بعدها لينظر لزين مبتسماً، فيسأله الأخير:

- هل كسبت ثقتك الآن ؟

يرفع البارون اصبعه منبهاً لنقطة هامة :

- أنا لم أقل قط أنني لا أثق بك.. أنا أثق بفارس، وأثق بأنه لن يأتي برجل لا يثق به إلى هنا، إعتراضي الوحيد كان على عمرك، وقلة خبرتك، وكذلك جهلي بك فأنا لم أعرفك قبل الساعة.. بالإضافة لأن الجروح والكدمات في وجهك جعلتني أشك بأنك تعرضت للضرب المبرح على يد بعض متنمري المدرسة..

يضحك زين بغبطة فيما يمد البارون يده لعلبة خشبية قريبة ويخرج منها سيجاراً كوبياً كبيراً، ويعطيه لزين ويشعله له بنفسه.. تتسع ابتسامة زين وهو ينفث دخان السيجار في الغرفة بحماس..

نظر البارون لفارس وهو يقول:

- أحسنت الإختيار يا فارس..

إبتسم فارس وهو يربت على كتف زين في فخر شديد، كان سعيداً بما حدث، وكأن هذا أحد إنتصاراته الشخصية..

لقد أثبت زين نفسه، وفي حال حدث أي شيء لفارس، فسيكون هذا الفتى خليفة فارس الجريمة في المدينة.. وفي يوم من الأيام، إن قرر إبليس التنازل عن لقبه، فلابد أنه سيسلم زين اللقب بكل سرور.. وهل هناك أحد آخر أحق بأن يكون خليفة الشيطان في هذه الأرض أكثر من زين ؟

الفصل السابع
ثمن الخيانة

"لقد طلبك البارون في مهمة.."
قالها فارس وهو ينظر لزين الجالس على الأريكة أمامه فبدا الإهتمام على زين سريعاً وهو يسأله:

- بهذه السرعة؟
- ولم لا؟ هل لديك مشكلة؟
- كلا طبعاً.. ما هي المهمة ؟
- لا يهم.. لقد طلبك خصيصاً وبالاسم كي تقوم بهذه المهمة، وهذا شرف كبير.. المهم هو أن تؤدي هذه المهمة على أكمل وجه لتريه أنك قادر على أكثر من مجرد مُعاركة ثور بشري!
- وأنا مستعد لأي شيء يطلبه.
- أحسنت..

جذب فارس نفساً طويلاً من سيجارته ثم نفث دخانه وكأنه يستعد لقول شيء ما، ومرت فترة قصيرة من الصمت قبل أن يردف:

- إسمعني يا زين.. أنا أعتبرك مثل ابني، وهذه ليست مجاملة على الإطلاق، فأنت تعرف أنني لست من النوع المجامل.. أنا واثق من أنك قادر على إتمام المهمة ولكنني أريدك أن تحذر هذه المرة على وجه الخصوص فأعدائنا يتربصون لنا من كل ناحية، خاصة في أوقات كهذه.. وحتى الكبار الذي كانوا يدعموننا سحبوا دعمهم بالكامل، ولم يتبق لنا إلا البارون، لهذا يجب أن تثبت

نفسك له بقوة، حتى يبقى معنا.. ولا أحتاج بكل تأكيد لأن أذكرك بمدى سلطته ونفوذه في المدينة..

أومأ زين برأسه متفهماً وهو يرد:

- لا تقلق.. لن أخيب أملك.
- وهذا ما أتوقعه منك..

أطفأ فارس السيجارة ثم أردف:

- إذهب إلى البارون الآن.
- حاضر.

ينهض زين ويمشي نحو الباب عندما يناديه فارس مجدداً..

- زين..

يستدير زين نحوه فينهض فارس ويقترب منه ثم يحتضنه بأبوة صادقة، إرتسمت ابتسامة على شفتي زين رغماً عنه وهو يربت على ظهر فارس محاولاً مُبادلته بعضاً من الحب الذي يمنحه له..

ينهي فارس العناق وينظر في عيني زين مباشرة وهو يقول:

- انت الابن الذي تمنيته طوال حياتي، ولكنني لم أحظ به قط للأسف.. إنتبه لنفسه يا بني.

إبتسم زين وربت على كتف فارس مجيباً:

- سأفعل..

"سأخبرك بكل شيء يتعلق بالمهمة، ولكن لا تقاطعني"
قالها البارون لزين الجالس مقابله في صالة قصره، هز زين رأسه موافقاً دون أن يرد، نفث البارون دخان سيجاره الكثيف حتى شكل غمامة حول رأسه، أبعده بيده في ضيق ثم أكمل:

- لدي شك بأن هناك جواسيس بين رجالي، وسأخبرك بما حدث بصراحة.. قبل أسبوعين كانت هناك صفقة سلاح مع تاجر روسي، ومن الطبيعي أن هذه الصفقة ليست قانونية فثلاثة أرباع عملنا غير مشروع..

أومأ زين برأسه فيما تابع البارون:

- المشكلة حدثت ساعة تسليم السلاح، وفي وجود رجالي ورجال التاجر الروسي فقط.. إقتحمت الشرطة المكان بأعداد هائلة وتمكنوا من مصادرة ثمن الأسلحة الذي كان معي بالإضافة للأسلحة نفسها.. هذه الصفقة جعلتني أخسر عشرات الملايين من الدولارات..

يتوقف البارون عن الكلام ويبدو أن زين لم يفهم المطلوب منه.. يفكر في ما سمعه ثم يقول بثقة:

- أعطني عدداً كافياً من الرجال وسأدخل إلى فرع الشرطة الذي يحوي المال والأسلحة وسأعيدهم لك قبل منتصف الليل !

يضحك البارون بشدة لغرابة الإقتراح وثقة زين الشديدة بنفسه، ربت على ركبة زين وهو يواصل الضحك ثم رد مبتسماً:

- يا لهذه الفكرة العبقرية!

تختفي إبتسامة البارون فجأة ثم يتابع بجدية:

- أعرف أنك تستطيع فعل هذا.. لقد خسرت مبلغاً كبيراًبالفعل ولكنه لا يهمني في الوقت الحالي، المهم هو أن هناك صفقة أخرى قادمة وأنا أشك أن هناك جواسيس

بين رجالي وهو الذي قام بالإتصال بالشرطة، فأنت تعرف أنهم لا يجرؤون على التحقيق في أمري، هؤلاء الذين هاجموا المكان كانوا مُسيسين بالكامل.. هل فهمت؟ بالإضافة لأنه يمكنني إستعادة المال والأسلحة في أي وقت وبمجرد إتصال واحد، ولكن هذا الجاسوس سيواصل تخريب عملي ما دام بين رجالي..

قاطعه زين وهو يسأله:

- ألا يمكن أن يكون الجاسوس من رجال التاجر الروسي مثلاً ؟

يرد عليه البارون مؤنباً:

- ألم أطلب منك ألا تقاطعني ؟

يبتسم زين دون أن يرد، فيتابع البارون:

- سؤالك في محله يا زين، والجواب هو كلا، لا يمكن أن يكون الجاسوس من بين رجال التاجر الروسي، أولاً لأنها ليست أول مرة أتعامل فيها معه، وثانياً لأنه ليست له أي مصلحة في أن تنكشف الصفقة، خاصة أنه لم يستلم ثمن الأسلحة حتى الآن، لذا لابد أن الجاسوس بين رجالي..

يتوقف البارون عن الكلام، يسكت زين بدوره منتظراً وثم يسأله بتردد:

- وما هو المطلوب مني ؟
- أنا أشك في مجموعة من رجالي، ويمكن أن يكون أي منهم هو الجاسوس، ولكنني لا أريد أن أظلم رجلاً وفياً وأتهمه بالخيانة، لهذا أريدك أنت.. أريدك أن تعرف هوية الجاسوس وتأتي به إلي، وعندها سأعرف كيف أتعامل معه..
- كيف سأعرفه ؟

- لا أبالي، معك كامل الصلاحيات.. إعتبرهم رجالك وإستخرج منهم المعلومات بأسلوبك..

يتناول البارون ملفاً قريباً ويناوله لزين:

- المعلومات في هذا الملف هي مفتاح الحل.. والرجل الذي فيه هو الوحيد الذي يعرف السر كله.. إنه المسؤول عن تجنيد الرجال، وإسمه "عارف".. لهذا ستبدأ منه، وإن احتجت أي معلومات تواصل معي على الفور، لا تتحدث مع أي أحد آخر عن المهمة، ولا حتى فارس..

يومئ زين برأسه فينهض البارون معلناً نهاية الجلسة. فيقف زين بدوره، يتصافحان بحزم، ويقول زين بثقة:

- سيكون الجاسوس تحت قدميك غداً..

يبتسم البارون وهو يرد:

- تعجبني ثقتك بنفسك.. وأتوقع منك الكثير في المستقبل..

يطأطئ زين برأسه بإحترام ويخرج من الغرفة فيما يجلس البارون على الأريكة مجدداً مواصلاً تدخين السيجار.. قد يكون واثقاً من زين، ولكنه يعرف رجاله كذلك. وإستخراج المعلومات من أي منهم لن يكون بالأمر الهين.. فهل سيستطيع زين أن يقوم بالمهمة ؟

مقر المنتقمين..
القبو..
لم يكن الأختطاف من أهم قدرات زين، ولكنه كان يكتشف مهارات جديدة في نفسه كل يوم.. كان "عارف" رجلاً يصعب الوصول إليه، ولكنه في متناول اليد عندما تملك قائمة بكل الأماكن التي سيتواجد فيها على مدى اليومين القادمين، دائماً ما يكون إختطاف أي أحد أسهل عندما يكون الشخص الذي يريده على علم بكل تحركاته..
كانت عملية الإختطاف بسيطة وخطرة في الوقت ذاته، تحتاج من الحذر بقدر حاجتها للسرعة والدقة، كانت شقة عارف هادئة تماماً، الأخير نائم على سريره في غرفة نومه، وزين فوق رأسه بعد أن دخل بإستخدام نسخة من المفتاح قام البارون بإعطائها له..
بضع قطرات من سائل مُخدر فوق منديل أبيض، وإنتهى الأمر تقريباً، قام بتثبيته لعشر ثوانٍ، وعارف يقاوم بكل قوته ولكن قبضة زين كانت أقوى منه، بعد العديد من المحاولات الفاشلة وعارف يجاهد للتملص من زين بكل قوته دون فائدة حتى يهدأ بالتدريج لتسكن حركته تماماً..
تمت المهمة بنجاح!
إستعاد زين ما قام به الليلة وهو يتأمل عارف المُقيد إلى كرسي أشبه بكراسي الإعدام الكهربائي في وسط القبو، وعلى رأسه غطاء قماشي سميك في حال إستيقظ قبل الموعد المحدد..
أبعد زين الغطاء عن وجه عارف الذي لا يزال مخدراً، فيأخذ زين كأساً من الماء عن طاولة قريبة ويفرغ محتواه على وجه عارف فيفيق سريعاً لينظر حوله ويتفاجأ بوجود زين الذي يعطيه ظهره في الغرفة دون أن يستطيع رؤية وجهه.. كان مقيداً إلى الكرسي

وهناك أسلاك متباينة الألوان موصلة بجسمه، ولم تكن ألوانها الزاهية قادرة على إيهامه بأنها قد تكون مجرد لعبة..

- من أنت ؟

ألقى عارف بالسؤال على زين بعصبية، ولكن الأخير لا يرد.. يحاول معرفته ولكنه لا يستطيع رؤية وجهه حتى الآن، ثم يستدير زين لنكتشف أن عينيه سوداوان تماماً كعادته ساعة تلبسه لشخصية عزرائيل.. يرتعد عارف خوفاً وهو يسأل وقد تحولت عصبيته إلى خوف بحت:

- من أنت ؟

يبتسم زين فتزيد الابتسامة مظهره جنوناً:

- أنا عزرائيل !

تتسع عينا عارف من الخوف، ولا يعرف كيف يرد فيما يردف زين:

- أهلاً بك في سردابي الجميل.. لابد أنك تتساءل عما تفعله هنا، أنت يا سيدي ستكون ضيف الشرف هذه الليلة.. ما الذي يجعله مميزاً بحيث اخترتك من بين الناس جميعاً؟ حسناً، أنت لديك اليوم فرصة العمر.. أنت ضحيتي العزيزة.. وستتشرف بأن يتم تعذيبك على يدي أنا.. ألست متحمساً ؟ لا أدري عنك ولكنني أعرف أنني متحمس للغاية..

يتمالك عارف نفسه وهو يسأله:

- ما الذي تريده مني ؟

يستند زين على طاولة قريبة وهو يرد ببساطة:

- أنا الذي أطرح الأسئلة هنا.

مرر زين أصابعه على أدوات القتل المتوزعة فوق الطاولة ثم تابع مبتسماً بعد أن صمت عارف دون أن يملك القوة لطرح سؤال آخر:

- أهم شيء يجب أن تعرفه هو أنك تلعب لعبتي الآن.. وهذه اللعبة تنتهي غالباً بالموت، موتك أنت طبعاً، إلا إن كنت ذكياً وأخبرتني بما أريد أن أعرفه..

يسأله عارف غير مصدق لما يسمعه:

- وما الذي تريد أن تعرفه بالضبط ؟
- كل شيء، لا أريدك أن تخبئ عني أي شي.. من اليوم الذي ولدت فيه حتى الآن، أريد أن أعرف كل شخص تعرفه أو عرفته في حياتك، وإلا فسأمسح كل من تعرفهم، زوجتك وعشيقتك وأصحابك، وحتى أصدقائك بالمراسلة، وربما أقتل أعضاء نادي جمع الطوابع الذي تشارك فيه أختك لمجرد التسلية..

عارف لا يرد وقد بدا خائفاً بحق.. يتابع زين بذات النبرة المرعبة:

- من الذي كشف صفقة السلاح ؟

يرد عارف بإنكار:

- أي صفقة وأي سلاح هذا الذي تتحدث عنه ؟

يضحك زين ويقترب من عارف ويصفعه بعنف، يخفض عارف رأسه بغضب وقد شعر أنه بلا حول ولا قوة في وجه هذا المجنون..

- لا تحاول الكذب علي.. كي لا تخسر لسانك!

يسأله عارف وقد أوشك على البكاء من شدة الخوف:

- ما الذي تريده مني ؟
- أخبرني من هو الجاسوس الذي بلّغ عن صفقة السلاح، وبعدها يمكن أن نتفاوض على حياتك.. إن كان في عمرك بقية طبعاً!
- أنا لا أعرف عما تتحدث..

يبتسم زين بسعادة وكأنه كان ينتظر هذه الاجابة ثم قال:

- إذن فيجب أن أتعامل معك بالطريقة الصعبة..

يمشي زين نحو زاوية القبو ويقف أمام زر أحمر اللون ويشير إليه.

- أتعرف ما يمكن أن يفعله هذا الزر ؟

عارف لا يجرؤ على الرد وهو يتأمل الأسلاك الموصلة في جسده برعب..

- سترى ما سيحدث.. أو بالأحرى أنك ستشعر به..

يضغط زين على الزر فيرتعش عارف بعنف مع سريان التيار الكهربائي في جسده، تحمر عيناه وقد بدا وكأنهما ستخرجان من محجريهما، تتحفز أعصابه بقوة وترتعد أصابعه.. ينظر زين لساعته ثم يضغط الزر مجدداً ليوقف التيار الكهربائي، فيهدأ عارف دفعة واحدة وهو يتنفس بصعوبة.

يصيح عارف في عناد:

- أنت مجنون، أتعرف هذا؟ ولكنني مجنون كذلك، وعنيد للغاية. ولهذا لن أخبرك بأي شيء..

يبتسم زين ويسرع نحو عارف في خطوتين ليلكمه بقوة فيتراجع من أثر اللكمة والدم يسيل من أنفه بغزارة.. يرد زين بثقة:

- إسمعني جيداً.. إن كنت تعتقد أنك تملك زمام الأمور هنا فأنت مخطئ للغاية يا عزيزي.

يقترب زين من عارف وينظر في عينيه مباشرة ببرود شديد متابعاً:

- أنت ترى فمي وهو يتحرك.. ولكن صدقني عندما أقول أن الشيطان هو الذي يتحدث من خلالي، لذا فأنا لا أمانع عنادك هذا، بل على العكس، لدي كل الوقت في العالم، وسأكون سعيداً جداً كلما عاندتني أكثر..

يبتعد زين عن عارف ويمشي نحو الزر مجدداً ببطء وهو يردف:

- أنا استمتع بعملي للغاية.. خاصة عندما يكون شخص مثلك على كرسي التعذيب.. لأنه إن سألتني عن أكثر ما أكرهه في حياتي فسأجيب بالخيانة والخائن.

يضغط زين على الزر مجدداً فيتحفز عارف والتيار الكهربائي يسري في جسده، تصطك أسنانه محاولاً الصراخ أو الكلام ولكن حباله الصوتية متحجرة من جراء الكهرباء العنيفة..
يبتسم زين وهو يراقبه باستمتاع..
- سأرى إلى متى يمكنك أن تتحمل..
حاول زين إغماض عينيه، ولكن عزرائيل كان يرغمه على النظر، لم يكن التعذيب من المشاهد التي يهوى زين مشاهدتها، وإرغامه على مشاهدتها كان يفعل به شيئاً غريباً، يزيده قسوة..
وهذا ما يريده عزرائيل بالضبط!

بعد الكثير من الصرخات والقليل من الساعات.
كان زين واقفاً في وسط القبو ويداه تقطران دماً، يحمل في يده سكيناً لامعة نظيفة، وأمامه عارف الذي بدا أنه يعاني بشدة، الوقت الذي مضى كان عصيباً عليه فعلاً، إنه ينزف من كلا فتحتي أنفه وفمه وعلى وجهه آثار لكمات وصفعات واضحة.. كل هذا العذاب الذي مر به عارف ولم يستخدم زين السكين بعد، وكأنه لم يحتج إليها بعد..
يبصق عارف الدم الذي تجمع في فمه وهو يسأل زين بفم يحتوي عدداً من الأسنان المحطمة الغارقة في الدماء:
- من أنت ؟
يجيبه زين سريعاً بصوت عزرائيل:
- أنا الشيء الذي كنت تحاول الهرب منه بكل قوتك على مدار حياتك البائسة.. أنا ملك الموت في هيئة رجل!
يقترب منه زين ببطء ملوحاً بالسكين:
- والآن، هل تريد أن نكمل ؟
يرد عارف بسرعة:
- كلا أرجوك.. سأعترف بكل شيء.
يواصل زين الاقتراب منه فيما يسأله:
- أخبرني.. من الجاسوس ؟
يتردد عارف ويخفض رأسه دون أن يجرؤ على الرد، فيقترب منه زين سريعاً ويغرز السكين في فخذه بعصبية ليجعله يصرخ من شدة الألم والدماء تنفر من فخذه، كانت حركة زين خطيرة للغاية، فطعنة مثل هذه قد تكون قاتلة في حال أصابت الشريان الفخذي بالتأكيد، ولكنه حذر كالعادة، كما أنه لا يريد قتل عارف بعد، ليس قبل أن يعرف كل ما يريده منه على الأقل..
يمسك زين برقبة عارف بغضب وهو يصيح به:

- ستتحدث.. عاجلاً أم آجلاً ستتحدث..

ينهار عارف باكياً من شدة الألم وهو يرى دماءه تتدفق من فخذه إلى الأرض لتكون بقعة حمراء حول الكرسي، ويهمس بصوت مخنوق:

- ارحمني أرجوك..

يصرخ به زين بعصبية:

- من الجاسوس ؟

يرد عارف بسرعة بذات الصوت الهامس :

- أنا !

- أنت هو الجاسوس ؟!

يتجمد زين مع المفاجأة ثم يبتعد عن عارف، ويعقد ذراعيه أمام صدره واقفاً في وسط القبو مبتسماً وهو يقول:

- حسناً.. أكمل..

قصر البارون..
يجلس زين على الأريكة مقابل البارون وعلى الأرض أمامهما نرى عارف على ركبتيه وعليه آثار التعذيب الشديد، ملابسه منقوعة بالدماء الجافة وهناك ضمادة حمراء من أثر الدم تحيط بفخذه..
يسأل البارون زين دون أن يبعد عينيه عن عارف:
- إذا فعارف هو الخائن الذي كنت أبحث عنه طوال هذا الوقت.. وأنا الذي كنت أثق به ثقة عمياء..
- المعذرة يا سيدي.. ولكنك تعرف أكثر من غيرك أن الثقة في مدينتنا هذه مؤذية للغاية..
- ظننت أنني قد تعلمت هذا الدرس منذ زمن طويل، ولكن هؤلاء الأوغاد قرروا تذكيري بهذه الحقيقة التي نسيتها، أو حاولت تناسيها، كي لا أجن من الشك..
يستدير البارون نحو زين ليسأله:
- هل هناك أحد آخر متواطئ معه ؟
يخرج زين ورقة من جيبه ويعطيها للبارون:
- بلى.. هذه قائمة بأسمائهم..
يلقي البارون نظرة على الورقة ويهمس بعصبية:
- أبناء الخطيئة !
ثم يمد يده الحاملة للورقة نحو أحد رجاله المحيطين به فيأخذها بسرعة فيما يصيح البارون ببه بلهجة آمرة:
- أحضروهم إلي بسرعة..
- أمرك سيدي..
يسرع الرجل لخارج الغرفة لينفذ أمره، يزحف عارف نحو البارون ودماؤه ترسم خطاً بعرض جسده على الأرض رغم الضمادة التي يفترض بها أن توقف النزيف..

يمسك عارف بقدم البارون وهو يهمس له برجاء وتوسل:
- أرجوك، إرحمني يا سيدي..
يدفعه البارون بقدمه بعيداً بقرف واضح، ويصيح به بعصبية:
- أتجرؤ على طلب الرحمة بعد ما فعلته ؟
يُطرق عارف ولا يعرف كيف يرد، وعند باب الصالة يظهر الرجل وخلفه ثلاثة رجال آخرين، يقتربون من موقع زين والبارون ليقف الثلاثة أمام البارون مُطرقين بإحترام، وعيونهم مصوبة على عارف الذي بدا أنه قد تعرض لتعذيب شنيع..
يسأل البارون عارف:
- أهؤلاء هم الخونة ؟
يرتجف الرجال الثلاثة للسؤال فيما أجابه زين:
- أجل..
يقف البارون ويقترب من الرجال ويقف أمامهم دون أن يجرؤ أي منهم على رفع عينه لينظر للبارون حتى، يصرخ البارون بهم بغضب:
- سأريكم ما يحدث لمن يخون البارون..
يصيح برجاله الباقين آمراً:
- أخرجوهم إلى الحديقة..
يسرع الرجال ويمسكون بالخونة الثلاثة وعارف ويجرونهم نحو الحديقة بالإجبار، يشير البارون لزين كي يتبعه فيفعل..
في الحديقة نرى الرجال الأربعة على ركبهم وحولهم جَمعٌ من رجال البارون، يخرج زين والبارون متجاورين ويقفان أمامهم..
يصيح البارون بصوت جهوري عالي:
- اليوم ستعرفون مصير الذي يخون البارون.. حتى لا يجرؤ كلب منكم على التفكير في خيانتي مجرد التفكير..
يستدير البارون لزين ويواصل الصياح مشيراً له:

- هذا عزرائيل هذه المدينة.. وكل خائن وحقير فيها سيمر عليه المنجل ليقبض روحه القذرة، سواء أكان هذا اليوم أو غداً.. واليوم سيقبض أربعة أرواح رخيصة..

يخفض البارون صوته وهو يحدث زين:

- أريد من عزرائيل أن يقبض هذه الأرواح برصاصاته.. هل ستفعل هذا من أجلي ؟

يبتسم زين وتلمع نظرة عزرائيل في عينيه وهو يرد:

- إنه شرف لي..

يربت البارون على كتف زين كي ينفذ على الفور..

يخرج زين مسدسه الذهبي ويصوبه للرجال، تمر لحظات من الصمت ثم يطلق زين رصاصة، وثانية، وثالثة، ورابعة، دون أن يرمش له جفن أو تهتز له شعرة، ويسقط الرجال قتلى وسط الحديقة وقد إخترقت رصاصة جبهة كل منهم في المنتصف بالضبط..

يبتسم البارون بفخر شديد ناظراً لرجاله الذين دفعوا الثمن غالياً، ويستدير لزين مبتسماً، ليهمس له بصدق:

- أحسنت صنعاً.. يسعدني أن أعرف أن خلفي رجلاً حقيقياً لا يخاف من أحد..

ثم يشير البارون لرجاله آمراً:

- ألقوا أبناء العاهرة هؤلاء لكلاب الحراسة في القصر.. ولكن إحتفظوا برؤوسهم وعلقوها وسط مهجعكم كي لا تنسوا ما يحدث لمن يفكر في خيانة البارون..

يسرع الرجال لتنفيذ الأمر، يشير البارون لزين:

- إمشِ معي قليلاً..

يمشي البارون وزين متجاورين، يخرج البارون من جيبه سيجاراً ويشعله لينفث دخانه الكثيف في الهواء، يستدير نحو زين وهو يقول:

- لن أنسى ما فعلته من أجلي ما حييت.. أنا الآن مدين لك بشدة يا زين، وأنا رجل أحب أن أرد الجميل..

إبتسم زين للكلام وتمنى لو كان فارس بجواره ليسمعه فيما تابع البارون:

- إن احتجت لأي نوع من المساعدة في يوم من الأيام.. فستجدني ورجالي موجودين لمساعدتك، هذا سيف ذو نصل شديد الحدة في يدك ليحميك ويرد عنك أي أذى.. يمكنك أن تطلب أي رقم إن إحتجت للمال، وأي عدد من الرجال إن احتجت للدعم، ولا داعي لأخبرك أن لك الصلاحيات المطلقة لمخازن السلاح والذخيرة متى تريد..

يبتسم زين وهو يرد بسعادة:

- يكفيني شرف المساعدة يا سيدي..
- كلا.. إنه لا يكفي.. يجب أن تعرف أن لديك سنداً كما أعرف أنك ستكون موجوداً لتساعدني عندما أحتاجك.. وأنا لا أقول هذا الكلام لمجرد رد الجميل، أنا أعنيه من كل قلبي فعلاً، لأن ما فعلته معي قد أزاح الكثير من المشاكل المستقبلية عن كاهلي. لذا فأنا لم أوفيك حقك حتى الآن.. أنت تستحق ما هو أكثر من هذا بأضعاف مضاعفة..
- أرجو أن أستحق كل هذا الكلام الجميل..
- ليس مجرد كلام يا زين.. هذا وعد مني، إن احتجتني فسأكون موجوداً لأحمي ظهرك.

يومئ زين برأسه إحتراماً، ويلقي نظرة على المجزرة التي إرتكبها للتو بإستمتاع بالغ.. لم يتوقع أنه سيحتاج خدمة البارون تلك، ولكنه يعرف أنه سيكون مفيداً للغاية أن يكون البارون بنفسه مديناً له بخدمة، هذا يعني أن لا أحد سيقف في طريقه..

ثمن الخيانة باهظ، يُدفع بالدم ولا شيء غيره قادر على سد ديون الثقة التي لم تُرَد.. لقد عَلَّم زين كل من كان حاضراً هذا الدرس، وكان الشخص الذي إسترجع الديون المتراكمة برصاصاته..

الفصل الثـــامـــن
دموع مُقدسة

كانت الدقائق تمر بطيئة، كعادتها، في كل مرة ينتظر زين فيها ملاك في مكانهم المعتاد، في المقهى الذي أصبح الراعي الرسمي لعلاقتهم، وكان هذا من الإختلافات الصريحة في علاقة زين مع ملاك، الشيء الذي يميزها عن غيرها، فالباقيات يقابلنه في شقته، أو البار، وملاك ليست من النوع الذي قد يذهب لأي من هذين المكانين..
لقد بدأ يقلق، ليست مُعتادة على التأخر لهذا الحد، فكر في نفسه أنها قد تكون مشغولة بخياطة أحد القلوب المكسورة، أوليست هذه إحدى المهام الرئيسية للملائكة؟!
أشعل سيجارة وأخرج دفتر مذكراته من حقيبته، لم يكن يملك طريقة أخرى لتزجية الوقت سوى الكتابة، لذا أخذ يكتب..
"هذه هي المرة الأولى التي تتأخر فيها ملاكي لهذه الدرجة، هذا الإنتظار الطويل يُذكرني بالشهور التي إنقطعت فيها أخبارها عني ولم أعد أراها إلا في أحلامي، وأخاف أن يكون هذا التأخير تمهيداً لغياب جديد..
إشتقت لها رغم أنها كانت معي قبل يومين، ربما لأن جهازي المناعي ضعيف للغاية أمام ميكروبات الحنين والشوق، لا فرصة لديه للصمود أمام هجماتها العاتية على صناديق الذكريات السوداء!
أفكر في أن أعطي دفتر مذكراتي هذا لملاك، بكل ما فيه من تفاصيل وحكايات لا يعرفها أحد.. ولكنني لا زلت مُتردداً، فعل

كهذا سيكون شديد القوة على قلبها، وسيجعلها تتأكد من حبي لها، ومن ثقتي العمياء بها، ولكنه في نفس الوقت سيكشف لها أسراراً حالكة السواد من ماضيَّ وحاضري، أسرار لا أريد لها أن تعرفها بأي حال من الأحوال..
تناقض حاد في كل عبارة أكتبها.. لمسات من زمهرير تُداعب قلبي، وبعض الجحيم يحوم حوله!
أصبحت أشك في ماهيّتي، وكأنني مللت من التظاهر بأنني الجانب الجيد من هذا الشخص الذي أنا عليه، مللت التظاهر بأنني لست شريراً وسيئاً بقدر نصفي الآخر.. مللت من رمي كل السوء على جانبي المظلم، وكأنني البريء الذي لا حول له ولا قوة في وجه الآخر الذي يسكنه، كلا، أنا السبب أصلاً في وجوده، ربما لم يكن ليدخل جسدي لو لم أطلبه من الأساس، لقد إختارني لأنني أكثر من نادى بإسمه في الليل!
لم أكن أحب حياتي، أو أياً من المحيطين بي، وقد يكون كل هذا مُبرَراً، لكنه لا يُبرر المخلوق الذي أصبحت عليه، وليست مُبرراً لأن أقوم بكل الخطايا في التاريخ.. ولهذا لم أكن أطيق كوني على قيد الحياة.
كيف أحب الحياة وأنا أموت ببطء منذ اللحظة التي ولدت فيها؟ وكأن ولادتي كان ضغطة على ساعة غير مرئية، وكل حركة لعقارب الساعة يعني اقتراب الموت مني..
لقد ولدنا كي نركض نحو موتنا بأقصى سرعتنا، نتمنى أن يمر الوقت بسرعة ونحن لا ندرك كم أننا أغبياء وجهلة في كل لحظة نجري فيها.
أعرف أنني سأندم على الكثير من الأشياء التي فعلتها في حياتي، ولكنني واثق من أنني لن أندم يوماً على حُبي لملاك، أما عنها، فأعتقد أنها ستندم بكل تأكيد.. للأسف، أنا مُتأكد من أنها ستندم على اللحظة التي عرفتني فيها، وستتمنى لو يعود بها الزمن

لتُقابل شاباً آخر في ذات الظروف عوضاً عن الشاب المجرم الذي تعرفت عليه ساعتها!"

أغلق زين مذكراته مع هذه الخاتمة الحزينة.. تململ عزرائيل الذي لم يُبد أي إهتمام بقراءة ما يكتبه، همس له وكأنه يناشده الرحيل:

- يبدو أن ملاكك لن تأتي الليلة يا زين!
- كلا، ملاكي لا تخذلني، لابد أن لتأخرها سبباً مقنعاً..

مط عزرائيل شفتيه البشعتين دون إقتناع مُحتفظاً بحق الرد.. وبدأت خواطر تصول وتجول سوداء في عقل زين، من خطف وإغتصاب وقتل، كل هذه الأشياء مُتوقعة في مدينة كهذه.. كانت غالبية هذه الخواطر مدسوسة بواسطة عزرائيل، وكأنه يستمتع بتعذيبه، أو كنوع من العقاب على هذا الإنتظار الطويل الذي سيُتبع بلعبة أطول من تفادي نور الشمس الذي يهاجمه من كل ناحية!

وحَضَرت الملاك..

وخطفت أنظار كل رواد المقهى دفعة واحدة بدخولها، حتى كاد الصمت يسود مع إنقطاع حبل أفكار هذا لرؤيتها فلم يعرف كيف يكمل حديثه، والآخر حَرك كُرسيه المتحرك كي يُصبح مُقابلاً لها ليتأملها بشكل أفضل، وذاك ترك صاحبه يُثرثر وبصره مُثبت على ملاك..

كان الرجال يُحدقون بها وكأنهم لم يروا أنثى في حياتهم، والأصح هو أنهم أخذوا يُشككون في أنوثة النساء اللاتي يعرفونهن، فهذا الملاك السماوي لا يصح أن يُقارن ببنات الأرض!

كانت ملاك مُختلفة هذه المرة، عيناها الخضراوتان ذابلتان على غير عادتهما، ومُحمرتان كنتيجة لما يبدو أنه ليلة كاملة من البكاء، تنظر حولها باحثة عن زين وقد غطت عينيها طبقة من الدموع لم يلحظها أي من الرجال، ولابد أنهم ظنوا أنها تبحث

عن مكان لتجلس فيه.. تلفت عدد من الشبان حولهم ثم هبوا واقفين دفعة واحدة ذوقاً ليعرض كل منهم كرسيه عليها، حتى المُقعَد أشار لها إن كانت ترغب في الجلوس مكانه وعرض عليها كرسيه المُتحرك!

لم تنتبه ملاك لهم، أشار لها قلبها لمكان زين ومشت نحوه دون أن تنظر حتى، وقفت فوق رأسه فيما كان يقرأ ما كتبه، وشعر هو بقلبه أنها قد حضرت، رفع رأسه مبتسماً ليجدها على غير المتوقع، لم تكن هذه ملاك، شيء ما قد حدث حتى غير ملامحها وحضورها بهذا الشكل..

وقف زين في تحفز لمرآها هكذا، وحاول سؤالها لكن لسانه كان مُتجمداً، مشهد دموعها وهي تتساقط من عينيها إلى خديها وثم للأرض كان أكبر من قدرته على الإستيعاب، كان مصدوماً بشدة وعاجزاً، لم يكن في مثل هذا الموقف من قبل، لذا لم يكن يدري ما يجب أن يفعله.. لم يكن مُعتاداً على هذا، لعب دور المُطمئن ليس من إختصاصه!

بعد كل ما حدث مع زياد ووفاة أمه، رفع زين جدرانه، كَوَن الأسوار من حوله حجراً فوق حجر، ليبقى وحيداً وبعيداً عن المشاعر.. وكانت ملاك أشبه بنفخة الذئب العاتية على بيت الخنزير الصغير المتهالك!

وفي داخل زين، كان يقف أمام عزرائيل مُحتاراً ومرتبكاً للغاية.. سأله والقلق يُطل من عينيه:

- إنها تبكي، ماذا أفعل؟!

رمقه عزرائيل بنظرة غريبة ثم أجاب في تردد:

- لا أعرف الكثير عن العلاقات البشرية، ولكنني أعتقد أنك يجب أن تحتضنها الآن لسوء حظي!

سأله زين في عجز :

- ومن أين لي بالقوة لفعل شيء مثل هذا؟!

مط عزرائيل شفتيه في لا مبالاة قائلاً:

- هذه نصيحتي العاطفية الوحيدة، خذها أو أتركها!
- أنت تعرف أكثر من غيرك كم أريد أخذها!

كان الحوار يدور داخل رأسه، وملاك لا تزال واقفة أمامه دون أن تنطق بحرف، إستجمع زين كل قوته ليحتضنها ولكن كل ما جمعه كان أقل من كافٍ ليتحدث حتى.

سألها في قلق يفوح من كل حرف في كلامه:

- ما الأمر؟

فتحت ملاك فمها لترد ولكنها لم تستطع، إقتربت منه ورمت نفسها بين يديه لتحتضنه بقوة وهي تجهش بالبكاء بحرقة..

لقد وفرت عليه الطاقة التي لم يكن يملكها ليقترب منها ويحتضنها، تراجع عزرائيل وترك المسرح لزين تماماً مع إشتعال النار في خصره وظهره عند المكان الذي تلمسه يدا ملاك بالضبط..

أحاطها زين بذراعيه وهو يشعر بدموعها الحارة التي تُبلل قميصه، كانت دموعها هذه تكسره وتُضعفه، هذه الدموع المُقدسة لا يجوز لها أن تخرج من مخبئها السماوي، ولكنه لم يجرؤ على سؤالها عن السبب مرة أخرى، ولم يكن سينهي العناق قبلها بأي حال من الأحوال..

أرخت رأسها على كتفه وهي ترسل تنهيدة حارة من بين شفتيها، شعور الراحة يتسلل إليها، كانت تشعر بالأمان، وهو يشعر بالحيرة، وقلة الحيلة، لم يكن بارعاً في المواساة، خاصة مع ملاك..

كيف يمكنه مواساة من يتألم عنها بأضعاف ما تشعر به ؟!

كان يشعر بوجع يجعله يرغب في إقتلاع قلبه من مكانه ورميه بعيداً.. بعيداً عن هذا الألم، والمشاعر، ولكن هذا لم يكن مُمكناً !

- كل شيء سيكون على ما يرام.. لا تخافي، أنا معكِ.

قالها زين بعد أن إحتاج للمستها كي تمُده بالقوة الكافية ليتحدث، أغمضت ملاك عينيها محاولة إيقاف سيلان دموعها دون أن تُفلح، كان ضغط الدموع أكبر من قوة جفنيها على حبسها..
كانت تشعر بمزيج من الراحة والغرابة في الوقت نفسه، لم تكن ملاك تُحب عرض المشاعر العلني في الأماكن العامة، ولطالما كانت تتضايق ممن يحتضنون بعضهم في العلن..
إبتعدت عنه ببطء رغم الراحة التي وجدتها في حضنه، لتنظر في عينيه اللتين تكونت الدموع فيهما دون أن يُحس بها نتيجة لشعوره بدموعها، كانت دموعه هذه تُطمئنها بشدة، وتؤكد لها أنه يهتم لأمرها..
أن يبكي شخص لأنك تبكي يعني أنه يشعر بما تشعر به، وشخص كهذا لا يمكن له أن يؤذيك، لأنه سيؤذي نفسه بفعلته هذه!
سألها وقلقه يزداد عليها:
- ما الذي حدث؟
همست له ملاك بصوت يكاد لا يسمع:
- البارحة، أبي...
- ما به؟
استجمعت ملاك كل قوتها وهي تقول في حُرقة:
- إنتحر!
إتسعت عيناه بشدة، وسقطت دمعة منهما دون أن يشعر بها، لوهلة تذكر شعوره عند وفاة أمه، كان هذا أحقر شعور في حياته دون منازع، وأكثرها وجعاً وتأثيراً على قلبه.. أثَر فيه موتها بشدة، وآذاه بشكل كاد يقتله، فماذا سيفعل الفقد بفتاة رقيقة مثل ملاك؟
جلست ملاك على الكرسي مع شعورها بأنه قدميها لم تعودا قادرتين على حملها، تنهدت وهي تتأمل محتويات الطاولة في خواء، ثم أمسكت بعلبة سجائر زين وأخرجت إحداها، حاولت

إشعالها عدة مرات ولكن رجفة يديها كانت أكبر من أن تسمح لها بالنجاح، جلس زين سريعاً وأخذ منها الولاعة وأشعل لها السيجارة..
كانت هذه هي المرة الأولى التي تُدخن فيها ملاك في مكان عام، كانت السجائر التي تسرقها منه في الخفاء دائماً، بدا له أنها لم تعد تهتم لشيء، الشخص الوحيد الذي قد يحاسبها على التدخين قتل نفسه البارحة!

- لم أعد أملك أحداً غيرك في الحياة!

قالتها وهي تعبث بطرف السيجارة المشتعل في المنفضة، وكأنها تحاول ألا تشعر بالبؤس الذي تحمله هذه العبارة..
رفعت عينيها لتنظر لزين وهي تُردف في توسل:

- أرجوك يا زين.. لا تتركني، لا تتركني أبداً!

مد زين يده ليمسك بيدها مُتطوعاً للمرة الأولى وهو يقول بصدق:

- أنتِ أكثر مخلوق أهتم لأمره في المدينة بأسرها، سأبقى بجانبك في وجه الجحيم، وأنا أكثر من مُستعد لخسارة روحي في سبيل الحفاظ على روحك!
- لا تعرف كم تُطمئنني كلماتك.. رغم أنني في وضع لا تليق به الطمأنينة، فأنا الآن يتيمة وشبه متشردة!

أخفض رأسه دون أن يعرف كيف يرد فيما تابعت:

- لم يعد لي مكان في هذه المدينة أذهب إليه..

سألها وهو يتمنى لو تفهم المعنى من سؤاله..

- إلى أين ستذهبين إذا؟

ردت ملاك سريعاً، وكأنها كانت تنتظر سؤاله:

- أريد الذهاب لشقتك..

إتسعت عينا زين للرد السريع والغير متوقع، ترددت ملاك لثوانٍ قبل أن تُكمل مُتحاشية نظراته:

- أريد أن أنام في حضنك الليلة!

لو أخبر أحدٌ زين في صباح هذا اليوم أنه سيبيت الليلة بجوار ملاك لإتهمه بالكذب على الفور، أما إن أخبره بأنها ستطلب النوم في حضنه، فهذا ضرب من الجنون بكل تأكيد.. لذا فشعوره في هذه اللحظة كان أكبر من قدرته على الوصف..
أكبر أحلامه قد تحقق، وكل ما يريده في متناول قلبه!
وللتناقض، كان ما يحدث الآن أحد أشنع كوابيس عزرائيل، أكثر شيء يؤذيه ويخاف منه مستلقٍ على السرير بجواره!
لم يأخذها للقصر، كانت زيارتها للقصر أشبه برحلة لمرة واحدة لظروف طارئة، لقد أخذها لشقته، دعاها للدخول وأراها عِدة فساتين لتنام فيها، ولكنها فضلت إرتداء أحد قمصانه ليكتمل الإغراء الذي لا طاقة لزين به، خاصة مع السيجارة التي بين شفتيها..
تأملها زين قبل أن يعترف في تردد:
- هذا غير منطقي على الإطلاق..
نظرت له ملاك في إستغراب من كلامه فيما أكمل سريعاً:
- لم لا تلتزمين بقوانين الجاذبية التي وصفها نيوتن فحسب؟ لم عليكِ أن تكوني جذابة لهذه الدرجة حتى وأنتِ حزينة هكذا؟ هذا مستحيل علمياً!
ضحكت ملاك رغماً عنها لغرابة كلماته وجمالها، غاصت في بحر عينيه دون أن تفارق الإبتسامة شفتيها وهي تقول:
- حسناً، عليك التوقف عن فعل هذا!
سألها في شك واضح:
- فعل ماذا؟ لم أفعل شيئاً..
- عليك التوقف عن قول أشياء تجعلني أرغب في تقبيلك!
إحمر خدا زين خجلاً لمجرد تخيل اللحظة، ضحكت لإحمرار وجهه وهي تشير له وكأنها تستفزه قائلة:

- يا لك من حبة طماطم مُثيرة!

هز رأسه وهو يقول محاولاً تغيير الحديث وإبعاده عن خجله وخديه:

- ما رأيك أن نلعب لعبة؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وهي تقول:

- لا مانع، ماذا سنلعب؟
- أتعرفين لعبة "كرسي الإعتراف"؟
- لم لا تقول "لعبة الصراحة" وتريح نفسك؟ أم أنك تحتاج لإختيار الإسم الأشد جاذبية للعبة كي تغريني للعبها؟
- ربما، والآن ما رأيك؟
- موافقة.. إسأل أنت أولاً..

فكر زين لبعض الوقت مُبعداً الأسئلة التي سبق وسألها على فتاة غيرها، والتي كانت تحمل في الغالب تلميحاً جنسياً، ثم سألها:

- ما الذي تريدينه؟
- لم أفهم..
- الجميع يريدون شيئاً بشدة.. المال، القبول، النجاح، السلطة، أو حتى الحب.. ما الذي تريدينه أنتِ؟

فكرت ملاك لثوانٍ ثم أجابت مُبتسمة:

- أريدك أنت!

اللعنة، لم يكد إحمرار خديه يختفي حتى بثت فيه الحياة مجدداً!

سألها ممازحاً كي لا تُركز على خديه:

- أأنتِ متأكدة من أنكِ لا تريدين المال؟

ضحكت فيما إمتدت يدها لتلامس خده الأحمر وهي تقول:

- أتعرف أنك شديد الوسامة عندما تخجل؟
- لمعلوماتك، أنا لست خجولاً ..
- أعرف، ولكنك خجول معي، وهذا ما يجعلني أعرف أنك لا تنظر لي كما تنظر لبقية الفتيات..

أشاح زين بوجهه بعيداً دون أن يرد فإرتفع صوت ضحكها أكثر وهي تسأله محاولة التركيز على اللعبة كي لا تتهور وتفعل شيئاً به:

- دوري أنا..
- تفضلي.
- نفس السؤال.. ما الذي تريده؟

أخفض زين رأسه مُفكراً، ثم أجاب دون أن ينظر لها:

- أريد بعض الراحة!

تجمدت ملاك مشدوهة بعد هذه الإجابة، ولم تعرف كيف ترد، إستلقت على السرير ناظرة للسقف والصمت سيد الموقف..

كانت هذه ليلة فريدة من نوعها في تقويم أيام زين، كان في العادة يعود للشقة بعد يوم طويل إمتص كل ما فيه من حياة وروح، يعود وهو لا يريد شيئاً أكثر من حمام يُزيل عنه رائحة الدم، وسريراً دافئاً..

كان يتحول لرجل ميت يمشي على قدمين في الوقت الذي يدخل فيه لشقته، مُتعب لدرجة أن الأمر يترك فيه شعوراً بأنه سينام وهو واقف، يتجاوز باب الشقة، ويغوص في ظلامها ورُدهتها المكسوة بالظلال حتى يصل للسرير دون إهتمام لإن كان قد أغلق الباب أو أقفل السيارة، لم يكن يتذكر قيادته لسيارته حتى الشقة.. قدماه تتوسلان إليه كي يُريحهما من ثقل وزنه لبعض الوقت، وقلبه يتمنى لو أنه يجد ملاك تنتظره في السرير، وبقية جسمه ينزف شوقاً لقليل من النوم.. والراحة!

اليوم تحقق أحد مطالبه،

نظر لملاك ليجدها نائمة، لم يُدرك أن شروده قد طال لهذا الحد، أو قد يكون هذا تأثير البكاء المُخدر، هذا التأثير الذي يُريح المرء ويسمح له بالنوم أخيراً بعد أن كانت الهموم تُثقل كاهله بشكل يمنع جفنيه من الإنغلاق كي يرتاح قليلاً..

تأملها وهي نائمة، لا يمكنه أن يبدأ في شرح كم يحب تلك الفتاة، كان مستعداً للوقوف عوضاً عنها على منصة الاعدام، كان ليبتسم وهم يلفون المشنقة حوله.. في لحظة كتلك كان سيخسرها، سيموت من أجلها وهو يعرف أن لا فرصة له في لقياها بعد الموت، ولكنه سيكون راضياً بهذا الحل ما دامت ستبقى حية ترزق..

إقتربت منه ملاك النائمة وأحاطته بذراعيها وكأنه وسادتها، تَوسد رأسها صدره، فوق قلبه مُباشرة، لدرجة أنه أضطر لتهدئة أنفاسه قسراً كي لا تُزعجها الحفلة الراقصة المُقامة بين قضبان قفصه الصدري!

كان يلعن حياته على الدوام، دون أن يُدرك كم كان محظوظاً وجاحداً، كان يملك فتاة تُحبه بصدق، وتثق به للغاية، شيء يشبه ثقة طفلة يرميها أبوها في الهواء، ثقتها تلك نابعة من يقينها بأنه سيلتقطها، أما في حالة ملاك، فهي تعرف أن قلبه لن يطاوعه في رميها من الأساس!

كانت أحنّ مخلوق وقعت عليه عيناه، تسكب حنانها فوق كل شيء، تراعي مشاعر الجميع وتهتم بصدق، وكأن شيئاً من "سليمان" قد صُب في روحها، ذاك الذي عجز عن إيذاء نملة!

أخذ يبكي في صمت، تسيل دموعه على خديه دون أن يشعر بها فيما إستلقت ملاك بين ذراعيه.. لم يُدرك أنه يبكي إلا عندما شعر بطعم الدموع المالح على شفتيه، ليدرك أن وجهه تحول لجبل وعيناه شلال يسكب مائه على صخور ملامحه..

شعرت ملاك بالرجفة في جسد زين، وإرتفاع دقات قلبه الشديد، فتحت عينيها لتجده يبكي، وكان هذا آخر ما توقعت أن تراه..

إعتدلت دون أن تُبعد يديها الملفوفتين حوله، وسألته في لوعة:

- ما الأمر يا حبيبي ؟

رد زين وفي صوته ألف غصة:

- أنا أغرق، وأنتِ حبل النجاة !

ضمها لصدره بعدها مواصلاً البكاء، وبدورها سالت دموع ملاك على خديها دون أن تقاومها، أمسكت بيده وحضنته بحنان الأمهات الذي تعرف كم يفتقده، ولم تنبس ببنت شفة، كانت قلوبهما تتحدث مع بعضها الآن، ولم تُرِد لصوتها أن يقاطع هذا الحديث..

الفصل التاسع
الشيطان يقوم بخدمة إنسانية

اليوم الثلاثاء 20 نوفمبر 1984م..
فتح عزرائيل عينيه ببطء، إعتدل في جلسته على كرسيه بتأن وعضلاته تصرخ ألماً بعد نهار كامل قضاه نائماً في وضعية غير مريحة على الإطلاق.. ألقى نظرة على ساعة يده بعينين مشوشتي الرؤية، وتمكن بصعوبة من معرفة التوقيت.. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً،
كانت عيناه تؤلمانه، يشعر بجسده بأكمله وهو يؤلمه، ولكنه كان سعيداً في نومه، كانت ساعات النوم مهرباً من حياته التي يكرهها، كان يستطيع رؤية ملاك في أحلامه على الأقل، كان قادراً على أن يحضنها، ويقبلها.. ثم يستيقظ ليعود لحياته الغريبة هذه..
أحياناً تكون الذكريات أسوأ أنواع التعذيب!
وإن كان هناك شيء سيقتل عزرائيل فهي تلك الذكريات التي لا يكف عن الغوص فيها، يسترجع تفاصيلها الدقيقة دون أن يبالي بأنه يفعل هذا على حساب أعصابه وصحته ومستقبله..
عالق في الماضي وكأن لا حاضر له ولا آتٍ!
رفع رأسه لينظر حوله، والرؤية في عينيه لا تزال مشوشة، وكأن هناك غمامة على عينيه تمنعه عن رؤية محيطه بوضوح، ولكنه تمكن من تمييز ظلال عديدة تحيط به، ظلال بشكل شخوص حقيقية، اختارت كل منها مقعداً لتجلس عليه مراقبة عزرائيل في نومه..

بدأت الرؤية تتضح تدريجياً.. وأول ما وقعت عليه عيناه كانت فتاة صغيرة، لا تتجاوز الأربعة سنوات، ذات شعر أشقر وعينين شديدتي الزرقة وكأنهما تحمل بحرين مُتنقلين معها أينما ذهبت!
هز عزرائيل رأسه بعنف محاولاً نفض تأثير النوم عنه، ولكن الفتاة لم تتزحزح، كانت تبتسم له بحب عميق، ولكنها حزينة في الوقت ذاته، وكأنها تعاتبه على فعل ما..
إنصب تركيزه كاملاً في الفتاة، حتى أنه لم يرى ما حولها، حتى ظهرت يد إمرأة وأخذت تعبث بشعر الفتاة برفق.. رفع عزرائيل عينيه نحوها ليكتشف أنها ملاك..
أغمض عينيه بقوة، لا يريد رؤيتهم..
كانوا ينظرون له في إشتياق بالغ، ولكنه كان مغمض العينين، ورغم هذا كان يتخيلهم على جدران جفونه الداخلية، صورتان محفورتان عليه، لا تفارقان باله، فيراهما كلما أغمض عينيه.. لم يكن يريد رؤيتهما..
ليس الآن..
ليس بعد ما فعله..
تسللت دمعة من عينه قصراً، لتسقط على خده فيزيد عزرائيل من الضغط على عينيه أكثر محاولاً منع دموع أخرى من التسلل من عينيه.. ولكن عبثاً يحاول أمام نهر المدامع..
فتح عينيه اللتين أصبحتا عبارة عن مُقلتين سابحتين بالدموع، لتهرب قطرات الدمع منهما بسرعة منهمرة على خديه.. نظر لمكان الفتاة فوجده فارغاً، ويعلوه الغبار، وكأن أحداً لم يجلس فيه منذ عقود !
مد يده لكأس النبيذ وجرع ما تبقى فيه دفعة واحدة، كان يعاني صداعاً من نوع مختلف، ليس صداع الشرب المعتاد، والذي يصيبك بعد ليلة طويلة من الشرب، فالكحول لم تعد تؤتي أكلها معه بعد الآن، فأصبح يشربها بكميات كبيرة، كما يشرب الماء، محاولاً أن ينسى..

ومن أين له بنعمة النسيان؟
كان يسمي حالته باللعنة..
فهي لعنة مقيتة تمنعه من النسيان الذي يُعد الشيء الوحيد الذي يُمكِن الإنسان على مواصلة حياته، لولاه لشنق الناس أنفسهم بربطات عنقهم دون تردد!
كان يشرب لترات من الكحول، ويشم كتلة كبيرة من المسحوق المخدر، ثم يتبعها بعدة حبوب، ويختم الأمر بإبرة محشوة حتى عنقها، يغرزها في وريده ويفرغ محتواها، ولكن دون فائدة، ورغم كل هذه المُنسيات التي سبق ذكرها، إلا أنه كان يتذكر..
يتذكر حياته السابقة، ولحظات من الحياة الحقيقية التي لم يتذوق طعمها إلا عندما غادر المدينة، وأرغم على العودة لها بعدما فقد معنى الحياة وطعمها من شفتيه !
حياة مقيتة، ومدينة ملعونة لا تحوي إلا الملاعين الأوغاد..
لقد خسر كل شيء أحبه في حياته على يد مدينة الرذيلة وساكنيها، والآن حان الوقت ليدفعوا الثمن، وسيكون الثمن غالياً للغاية، أغلى من الذهب والمال والفضة..
ثمن ما أصاب عزرائيل، لا يدفع إلا بالدم !

كان عزرائيل جالساً في البار وفي يده كأس نبيذ وسيجارة مشتعلة، ينظر حوله ويتأمل هذا وذاك بعين الخبير الفاحصة..
كان معتاداً على القدوم إلى هذا البار كل ليلة، يراقب أفعال البشر، ليعطي لنفسه دافعاً إضافياً كي يقوم بمهمته الأساسية في الحياة بعد منتصف كل ليلة..
يستشعر الشهوة في كلام هذا مع تلك المرأة الحسناء، ويُحس برائحة الكذب النفاذة وهي تخرج من فم ذاك مع كل حرف يقوله لصديقه..
لقد كانوا يبررون له قتلهم بأفعالهم تلك..
وكان هذا ما يحتاجه عزرائيل كي يُتِم مهمته في الليل..
يراه رجل من بعيد، كبير في العمر ذو شعر أبيض طويل، يراقبه بإهتمام وقد بدا أنه يعرفه، كان الرجل يدعى دانيال، ولم تمر دقائق معدودة من المراقبة قبل أن ينهض دانيال ويقترب من طاولة عزرائيل بهدوء وتردد..
يصل للطاولة ويقف بجوار عزرائيل مباشرة، ولكن الأخير لم ينتبه لوجوده وهو شارد في تأمل البشرية من حوله، يتنحنح دانيال بأدب، فيستدير عزرائيل نحوه..
- مساء الخير..
يبادره دانيال مبتسماً وفي عينيه خوف عميق، يتأمله عزرائيل جيداً، ثم يتذكره فيبتسم وهو يرد:
- مساء النور..
يستغرب دانيال لإبتسامة عزرائيل في وجهه، فيسأله:
- هل عرفتني ؟
- بالطبع.. أنت دانيال، الميت الذي لا زال يمشي !
يبتسم دانيال وقد فهم معنى عبارته الخفي، فيما يسأله عزرائيل محاولاً إختصار الحديث قدر الإمكان:

- كيف يمكنني مساعدتك؟

يحرج دانيال لأسلوب عزرائيل المباشر للغاية، فيرد بخجل:

- ليس هناك شيء، لقد لمحتك بالمصادفة، فأردت الاطمئنان عليك فقط..

تتسع إبتسامة عزرائيل أكثر، وهو يقول:

- أنت متواجد في هذا البار منذ خمس سنوات، تأتي في الساعة الثامنة وتذهب في الحادية عشر، وهكذا هو الحال كل يوم، وفي أغلب الأحيان أكون متواجداً كذلك، وإلتقت أعيننا أكثر من مرة، وكنت تشيح بوجهك بعيداً دون أن تأتي وتكلمني لتطئمن على حالي كما تقول..

يبتلع دانيال ريقه بخجل مع سقوط الحقائق المحرجة على رأسه تباعاً..

يتابع عزرائيل دون إكتراث:

- لابد أن طارئاً ما قد حدث حتى تنازلت وأتيت للحديث معي، لذا فلنختصر على أنفسنا عناء الأحاديث غير المجدية، ولتدخل في صلب الموضوع على الفور لو سمحت..

دانيال يداري خجله بإبتسامة فضحت شعوره أكثر، ويرد :

- ما زلت كما كنت، لم تتغير على الإطلاق، مباشر لدرجة الوقاحة.. فعلاً يا عزيزي، كل ما قلته صحيح، ولكن عذري هو أنني في الساعات المعدودة التي أقضيها في البار، أكون فيها هارباً من البشر جميعاً، لذا أحاول تحاشي أي حوار مع أي أحد.

يسأله عزرائيل:

- وما الذي حدث إذاً ؟

يرد دانيال متلعثماً:

- لدي مشكلة، ولا أحد في هذه المدينة يستطيع حلها غيرك..

ثم يسأله بتردد:

- هل يمكنني الجلوس معك؟

يشير له عزرائيل أن يجلس، فيفعل..

يسأله عزرائيل :

- أخبرني.. ما الذي حدث؟

يأخذ دانيال نفساً عميقاً ويبدأ الكلام:

- قبل ثلاث سنوات، زَوَّجت ابنتي من ابن أحد أكبر تجار الأقمشة في المدينة، وكان صديقي حينها وإقترح عليّ فكرة تزويج ابنتي من ابنه، حتى نصبح أنسباء، وكي لا تذهب أموالي وأمواله للغريب من زوج أو زوجة لأبنائنا، وأنت أدرى بهذه الأمور طبعاً...

لم يكن عزرائيل يملك القدر الكافي من الإهتمام، أو الكحول في دمه ليتابع الإستماع لفترة أطول، يقول بضيق مُعجلاً إياه :

- إختصر يا دانيال..

يبتلع دانيال ريقه بتوتر، ويتابع وتلعثمه يزداد وضوحاً:

- حسناً، قبل سنة من الآن، إختلفت ابنتي مع زوجها خلافاً كبيراً، ووصل بهم الأمر إلى الطلاق..
- لا زلت تتحدث في مشاكل عائلية لا تهمني يا دانيال!
- أعرف، ولكن الفكرة ليس في الطلاق.. فهناك حفيدتي الصغيرة، والتي أخذ والدها الوصاية عليها من المحكمة بعد أن لفق لابنتي أدلة كاذبة جعلتها غير مؤهلة للوصاية على الطفلة، لهذا يجب علي فعل أي شيء لأرجع حفيدتي إلى حضن أمها..

لم يفهم عزرائيل المغزى مما سمعه، فسأله بضيق :

- لم أفهم ما هو المطلوب مني بعد كل هذه القصة.. كُن مباشراً لمرة في حياتك وأخبرني ما الذي تريده بالضبط !

يرد دانيال بتوتر شديد:

- أريده ميتاً !

يرفع عزرائيل حاجبيه باستغراب ويسأله وسط إبتسامته:

- تريده ميتاً ؟!

يومئ دانيال برأسه مؤكداً، ثم يتابع:

- بلى، وأنا مستعد لأن أدفع أي مبلغ تراه مناسباً، إختر عدد الأصفار التي تريدها على يمين الرقم وسأضاعفها..

يعتدل عزرائيل في جلسته وينظر لدانيال في إنزعاج واضح:

- ومن أخبرك أنني قاتل مأجور يا عزيزي ؟ أو أنني مستعد لأن أقتل من أجل المال ؟ أنت تعرفني جيداً يا دانيال، لو أنني كنت من النوع الذي يقتل مقابل حفنة من الأوراق النقدية، لكنت أنت أيضاً ميتاً منذ عدة سنوات، وعلى يدي أنا !

يصمت دانيال لثوانٍ دون أن يعرف بما يجيب بعد هذه العبارة المفحمة..

يرتجف خوفاً مع نظرة عزرائيل، ثم يقول:

- حسناً يا سيدي، إن لم تكن ستفعلها من أجل المال، فإفعلها من أجل حفيدتي الصغيرة التي تعاني المر مع أب لا يعرف الرحمة.. يمكنك أن تعتبرها خدمة إنسانية..

يضحك عزرائيل للمصطلح بشدة، ويسأله بإستغراب:

- هل سمعت في عمرك عن شيطان يقوم بخدمة انسانية ؟

يضحك عزرائيل ملء شدقيه على العبارة مجدداً، ثم يعود لجموده السابق فجأة، فيقترب منه دانيال متوسلاً بيأس:

- هذه حفيدتي الوحيدة، ولا أريدها أن تبقى معه لدقيقة أخرى..

- حسناً، سأرى ما يمكنني فعله..

تنفرج أسارير دانيال بسعادة، ويسأله:

- أتعني أنك ستساعدني ؟

- سأحاول..

ينهض دانيال عن مقعده ويقترب من عزرائيل بفرح بالغ..

- لا أعرف كيف سأشكرك..
- لم أفعل شيئاً بعد، إحتفظ بشكرك لوقت لاحق..

يهز دانيال رأسه موافقاً، ثم يسأله:

- وكيف يمكنني إيجادك عندها ؟

يبتسم عزرائيل وهو يرد:

- لا أحد يمكنه إيجاد عزرائيل، فهو سيجدك عندما يريد..

كان يعشق التحدث عن نفسه بصيغة الغائب، وكلماته تفوح بجنون العظمة بقوة.. يبتسم دانيال وهو يلفت إنتباهه لنقطة هامة:

- ولكنني وجدتك اليوم..

ينظر عزرائيل في عيني دانيال مباشرة وهو يقول:

- وربما أنا من سمحت لك بإيجادي هذه المرة..

لم تكن الخدمات الإنسانية من تخصص عزرائيل، ولكن وجود طفلة في وسط هذا الموقف جَعل الأمر شخصياً بالنسبة له، ولهذا كان عليه التدخل بقوة، وها هو ذا يقف في منزل رجل لا يعرفه من أجلها..

كان منزلاً كبيراً، يليق بابن أحد أكبر تجار المدينة..

وكان المنزل يعبق برائحة الدخان والكحول، والأصوات الواصلة للصالة تتمازج ما بين ضحكات رجل وضحكة امرأة خليعة، وصوت طفلة تبكي بحرقة من الجوع أو الألم، وصوت موسيقى صاخبة ينطلق من سماعات كبيرة في الحائط..

ووسط كل هذه الضوضاء، كان عزرائيل واقفاً..

في وسط الصالة، مرتدياً بذلة سوداء وفوقها معطف جلدي أسود، بالإضافة لقفازين جلديين باللون ذاته..

سواد في سواد..

حتى عيناه كانتا سوداوتين تماماً، مما جعل منظره يبدو مرعباً، وشيطانياً أكثر وأكثر، والأهم أن في يده مسدساً مزوداً بكاتم صوت، وفي يده الأخرى بطاقة لعب يلاعبها بين أصابعه..

لم يكن متاكداً إن كان سيستخدمها الليلة، ولكنه لا يخرج من منزله دون أن يحمل واحدة أو اثنتين منها، فأنت لا يمكنك أن تتوقع الساعة التي ستقابل بها ضحيتك التالية!

يحمل حقيبة متوسطة الحجم على كتفه، تحوي كاميرا من أحدث طراز، وهي من الكاميرات القليلة في هذا الوقت والتي يمكن حملها باليد، في ذهنه خطة مُحكمة، ذات نهايتين، إحداهما دامية وكفى!

ينظر حوله محاولاً تمييز الأصوات عن بعضها، كانت فوضى غريبة، تلوث سمعي بأشنع شكل.. أخذ يفصلها عن بعضها

بواسطة سماعها واحداً تلو الآخر، كلٌ على حدى، ثم يتجه نحو مصدر صوت الطفلة أولاً، والقادم من غرفتها..
يدخل غرفة الطفلة ليجدها مستلقية في سريرها الصغير وهي تبكي وتصرخ بكل ما أوتيت من قوة، ودموعها تتساقط على خديها بغزارة، يخرج عزرائيل الكاميرا من الحقيبة، ويقترب من الفتاة ويقوم بتصويرها عدة صور سريعة..
يقترب بعدها من مجموعة ألعاب تتدلى من سرير الطفلة الصغيرة ويحركها عدة مرات فتصدر أصواتاً تلهيها بعض الشيء وتجعلها تتوقف عن البكاء، يبحث حوله فيجد مصاصة لم تستعمل بعد بجوار سريرها، يفك الغلاف عنها ويضعها في فم الطفلة فتهدأ وهي ترضع من المصاصة ببراءة، يبتسم لأنه تمكن من زرع إبتسامة على وجهها، رسم الإبتسامة على وجوه الأطفال خدمة إنسانية عظيمة، أنت لا تُسعد الطفل فقط، بل تُسعد كل من هو موجود ساعتها بسبب الإنبعاث القوي للبراءة من الضحكة، ذاك الذي يدخل القلوب دون إستئذان..
يستدير عزرائيل ويخرج من الغرفة ويمشي نحو مصدر الضحكات بعد أن اختفت الإبتسامة عن وجهه، يقترب من الغرفة بهدوء وينظر من الباب الموارب لثوان ثم يضربه بقدمه بعنف ويدخل مقتحماً المكان..
تعم الضوضاء الغرفة، ويتحرك الرجل والمرأة بعيداً عن بعضهما بخوف، ليقطع عليهما عزرائيل اللحظة الحميمة بقوة، تتسع أعينهما بخوف وهما ينظران لعينيه المرعبتين ويحاولان تغطية جسديهما العاريين بملاءة السرير..
يسأله الرجل محاولاً تمالك نفسه:
- من أنت ؟
يحاول الرجل النهوض بتردد، وقد أخافته عينا عزرائيل بشدة، ولكنه لم يكد ينهض إلا وعاد سريعاً ليستر نفسه عندما رأى

عزرائيل وهو يتناول الكاميرا من الحقيبة ليقوم بإلتقاط عدة صور من زوايا مختلفة للرجل مع المرأة دون أن ينطق بحرف..
يتوقف عزرائيل عن التصوير، ثم يعيد الكاميرا إلى حقيبته ويغلقها.. يرفع رأسه بعدها إلى القطين المذعورين وهما يغطيان عُريهما بصعوبة بملاءة السرير، ثم يبتسم ابتسامة زادت منظره رعباً وهو يقول:

- من أنا؟

تتسع إبتسامته وهو يردف بنظرة مُفزعة:

- أنا أبشع كوابيسك يا عزيزي..

أن تكون رجلاً من رجال المدينة يعني الكثير من التوقعات، أن تكون حقيراً ونذلاً وقاتلاً، بالإضافة للكثير من المواصفات المُرتبطة بمجال عمل الشخص، وفي حالة دانيال فهو لم يكن أياً مما ذُكر، ولكن الغاية تُبرر الوسيلة مهما كانت قذرة، وآخر سبيل في طريق الوصول لغايته كان عزرائيل، وهو ما دفعه للإستعانة به..

كان دانيال جالساً في زاوية الصالة يدخن سيجارة وعيناه تطلان بالهم، يرن هاتفه اللاسلكي فيتناوله من جانبه ويرد:

- ألو.
- دانيال ؟

يسمع صوتاً مألوفاً من الجانب الآخر، ولكنه لم يعرفه..

- نعم، من معي ؟
- أنا الشيطان الذي قرر القيام بخدمة إنسانية من أجلك !

تتسع عينا دانيال مع سماعه لهذه الكلمات..

يهمس بتردد:

- عزرائيل ؟
- بشحمه ولحمه..

يسأله بحماس شديد:

- هل قت...

لم يستطع إكمال السؤال بإعتباره يتحدث في الهاتف.. يأتيه صوت عزرائيل الذي فهم السؤال وإن كان مقطوعاً بهذا الشكل:

- هناك هدية تنتظرك في الخارج..

يُغلق الخط من الجانب الآخر، فينهض دانيال سريعاً ويفتح باب المنزل ليجد حفيدته في عربتها الصغيرة نائمة بسلام وهي تمسك بيديها الصغيرتين بطاقة لعب فارغة..

يتناول دانيال بطاقة اللعب ويستغرب عندما لا يجد بصمة في منتصفها، ثم يرن الهاتف اللاسلكي الذي لا زال في يده مجدداً، فيرد بحماس..

ينطلق صوت عزرائيل من الجانب الآخر:

- ما رأيك بهذه الهدية ؟
- أجمل هدية قدمها أحد لي في حياتي..
- إستدر إلى الخلف إذاً لتجد هديتك الأخرى..

يستدير دانيال إلى الخلف ليجد مُفاجأة أكبر.. كانت هناك حمّالة في وسط الغرفة عليها زوج ابنته السابق مقيداً ومكمماً بإحكام، وحوله ثلاثة رجال عتاة تجري الجريمة في أجسادهم مجرى الدم..

يركض دانيال نحو زوج ابنته ويمسكه من تلابيبه بغضب، يرفع يده ليصفعه ولكن صوت عزرائيل يقاطعه:

- ما رأيك بهذه الهدايا ؟

ينطلق صوت عزرائيل من خلفه فجأة، يستدير دانيال ليرى عزرائيل وهو يدخل إلى المنزل من الباب وهو يدفع عربة الطفلة أمامه، وعلى وجهه إبتسامة واسعة..

يسقط الهاتف من يد دانيال ويقترب من عزرائيل صائحاً:

- لا أعرف كيف سأقوم بمكافأتك..

إتسعت ابتسامة عزرائيل أكثر وهو يرد:

- ومن أخبرك أنني قد انتهيت ؟

يسأله دانيال بإستغراب:

- هناك شيء آخر ؟

يومئ عزرائيل برأسه ثم يمد يده لجيبه ويخرج ورقة ويلوح بها في الهواء أمام عيني دانيال الذي لم يفهم ما تحويه بعد..

- ما هذه الورقة ؟

- هذه ورقة تنازل عن وصاية حفيدتك، بخط زوج ابنتك السابق، يقول فيها أن الطفلة يجب أن تبقى مع أمها، ويعتبر نفسه غير قادر على تربيتها..

يأخذ دانيال الورقة منه ويقرأ محتواها سريعاً بإنبهار، فيما يرمق عزرائيل الزوج بطرف عينه، ثم يمد يده لجيب معطفه ويخرج مجموعة صور، ويلوح بها كذلك..

- وهذه مجموعة صور عالية الدقة لزوج ابنتك المصون، في أوضاع مخلة وخادشة للحياء، مع فتاة ليل بشعة..

ينظر عزرائيل للزوج ويبتسم له متابعاً:

- ذوقك في النساء سيئ للغاية يا عزيزي..

ينظر بعدها لدانيال وقد إكتشف أن عبارته هذه تمسه شخصياً.. يبتسم له وهو يردف ممازحاً:

- ولكن ابنتك هي الاستثناء طبعاً !

يبتسم دانيال فيما يناوله عزرائيل الملف متابعاً:

- أتمنى منك الاحتفاظ بهذه الصور في حال فكر صديقنا باللعب بذيله، وهناك صور في الداخل لحفيدتك الصغيرة وهي تبكي في نفس الوقت الذي كان فيه والدها يلهو مع الفتاة، أعتقد أن هذه الصور ستكون كافية لإسقاط حكم المحكمة بالوصاية له في حال رفض الإعتراف بالتنازل المكتوب..

يخفض دانيال رأسه خجلاً من كل هذه الخدمات التي قام بها عزرائيل من أجله، فيما يمشي الأخير نحو الزوج المقيد في الحمالة، ويمسك به من شعره ناظراً لدانيال في تساؤل:

- هل تريده ؟

يضحك دانيال بشدة وهو يجيب:

- لا شكراً.. ولم قد أحتاجه ؟
- فكرت في أنك قد تريد ملاكمته قليلاً !

- الصور التي معي تكفي لتدمير سمعته للأبد، وستكون سبباً مهماً للعب والده الملاكمة معه طوال السنوات القادمة.

يستدير عزرائيل نحو رجاله:

- خذوه إلى بيته وفكوا قيوده، أو لا تفعلوا، لا أهتم.. ولا تنسوا الفتاة البشعة كذلك، ستجدونها مقيدة في الحمام، فكوا قيودها قبل أن تذهبوا..

ويغمز رجاله متابعاً بصيغة ذات مغزى:

- ولا تستعجلوا !

يومئ الرجال برؤوسهم إطاعة، ثم ينحنون ويحملون الحمالة التي قُيد إليها الزوج ويخرجون بها من المنزل..

يسأله عزرائيل وهو يغلق أزرار معطفه:

- أية خدمات أخرى ؟

- شكراً جزيلاً، لن أنسى ما فعلته في حياتي..

يمشي عزرائيل نحو باب المنزل، ثم يتوقف في منتصف الطريق قبل أن يخرج ويستدير نحو دانيال قائلاً:

- اثنان – صفر..

يبتسم دانيال بإمتنان وقد فهم المعنى، ويضع يده على رأسه ويحنيه دلالة على العرفان، فيستدير عزرائيل ويخرج من المنزل..

يمشي دانيال خلفه بهدوء ويغلق الباب ثم يسحب عربة حفيدته لداخل المنزل، ينظر لها وهي تضحك ببراءة والمصاصة في فمها..

كانت دهشة دانيال ممزوجة بالسعادة، ربما كان عزرائيل شيطاناً، وقاتلاً لا يعرف معنى الرحمة عندما يتعلق الأمر بأعدائه، ولكنه رغم هذا أرحم من أغلب سكان هذه المدينة الملعونة..

لم يكن يهتم لكينونته، المهم أنه نال ما يريد، وإن كان هذا يعني أنه أصبح يدين لعزرائيل بخدمتين، ويعرف أنه قد يندم يوماً عندما يأتي الأخير ليطالب بأي منهما، لكنه سيترك الأمر للأيام..
يضحك وهو يهمس لنفسه:

- الشيطان يقوم بخدمة إنسانية.. يا للعجب !

الفصل العاشر
الجولة الأخيرة

بعد شهرين من مهمة البارون..

ابتسمت ملاك وهي تنظر بانبهار للمكان الذي أحضرها إليه زين للسهر، فندق (بارادايس) الشهير، أكبر فندق في المدينة وأشدها فخامة، خمس نجوم بكل أريحية، تتأمل طوابقه التي عجزت عن عدها لكثرتها، وتلفت انتباهها لافتة مضيئة كتب عليها (BARADISE) مشيرة إلى بار الفندق الضخم، يبتسم زين بدوره لسعادتها باختياره..

- يا له من اختيار موفق لموعد غرامي.
- الملاك تستحق أفخم مكان في المدينة..

تخفض ملاك رأسها خجلاً فتزداد جمالاً أضعافاً مضاعفة، اقترب زين من الباب وفتحه لها مشيراً لها كي تدخل فتفعل، وتقف متأملة كمية البشر الذين يستطيع البار استيعابهم، يقترب منهم النادل بأدب ويصافح زين بحرارة، ويخبره أن طاولته محجوزة.. يتبعانه نحو الطاولة التي استقرت عليها زجاجة شمبانيا فاخرة في علبة ذهبية مليئة بالثلج، وبجوارها كأسان ومزهرية صغيرة تحتوي على ورود حمراء، والجو الرومانسي يطغى على المكان بأكمله ليزيده جمالية..

يجذب النادل الكرسي لملاك كي تجلس ثم يسرع بعدها ليفعل المثل مع زين، ويقف فوق رأسيهما فيما يقوم بفتح زجاجة الشمبانيا باحترافية وزين وملاك منشغلان بتبادل النظرات

وعيناهما تتحدثان بينما فضلت ألسنتهما الصمت في حضرة الغرباء، يسكب النادل كأسين ويسألهما:

- هل ترغبون بشيء الآن ؟

يشير زين نحو ملاك:

- اسأل الآنسة أولاً..

ينظر النادل نحو ملاك متسائلاً فتجيب بتردد مبتسمة:

- سأترك القرار لك يا عزيزي..

يبتسم زين ثم ينظر للنادل وهو يقول:

- حسناً، سنستمتع الآن بكأس الشمبانيا بهدوء، انتظر لنصف ساعة وأحضر لنا كل ما تتسع له الطاولة من أفخر ما تقدمونه، ولا تنسَ وجبتي المفضلة ولكن اجعلها وجبتين، عدا عن هذا فلك حرية الاختيار، أنا أثق بذوقك.

يومئ النادل برأسه ويتراجع مبتعداً، ينظر زين لملاك فيجدها منبهرة بالمكان وفخامته.

- ما رأيك ؟

تتسع ابتسامة ملاك بتوتر وهي تقول:

- يمكنني أن أقضي بقية حياتي هنا، لا مانع لدي.
- لدي جناح كامل في الطابق الخامس، وله اطلالة رائعة على الحديقة المقابلة.
- جناح كامل ؟ من أين لك المال لتستأجر جناحاً في فندق كهذا ؟

يرد زين بسرعة وكأنما توقع السؤال:

- عمي هو صاحب الفندق..
- هذا يفسر الأمر إذاً..

يخرج زين علبة سجائره من جيبه ويشعل سيجارة، فتغمزه ملاك فيخرج زين سيجارة أخرى من العلبة ويناولها لملاك ولكنها ترفضها وتشير للسيجارة التي بين شفتيه، يبتسم زين وهو يعطيها سيجارته ويراقبها وهي تضعها بين شفتيها الورديتين

لتجذب أنفاسها باستمتاع قبل أن تنفث دخانها في الهواء في أحد أكثر المشاهد المغرية التي رآها زين في حياته !
كانت ملاكاً، تنقصها أجنحة وهالة صفراء فوق رأسها ليعرف الجميع هذه الحقيقة من النظرة الأولى..

- بدأت أخاف من أن تتسبب مواعدتك لي في إدمانك على السجائر أيتها الأميرة !

تنقر ملاك طرف السيجارة فوق المنفضة ليتساقط الرماد في داخلها حزيناً لابتعاده عن ملاك للأبد، ترشف من كأس الشمبانيا الذي بين أصابعها وهي تجيب:

- حتى الأميرة قادرة على أن تدمن على السجائر، لأنه حتى أعظم التنانين وأكثرها قوة تحتاج لما هو أكثر من النيران المنبعثة من فمها لتبقى دافئة في البرد..

يبتسم زين لتفسيرها الجميل لسبب تدخينها ثم سألها:

- وأنت تدفئين نفسك بالسجائر ؟

تنظر له ملاك نظرة ذات معنى وهي تسأله بدلال:

- ربما، ما الذي ستفعله إن كان هذا هو السبب ؟
- سأتدخل بالتأكيد، لا يمكنني أن أترك ملاكي الجميلة وحيدةً في هذا البرد القارص..

أجابته محاولة استفزازه أكثر:

- مجرد كلام، لا أصدقك..
- فلنصعد للجناح، وهناك سأجعلك تنسين معنى البرد !

كان عزرائيل يراقب الحوار وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً، سعيد، إن كان لديه القدرة على الاحساس بمشاعر مثل السعادة، بأن زين يعيش قصة حب جميلة كهذه، ولكنه يشك قلقاً من فكرة أن هذا قد يكون الهدوء ما قبل العاصفة !
ماذا لو صعدت ملاك معه إلى الجناح، وحدث ما يعرف أنه سيحدث، ربما يقتلونه بفعلتهم !

تضحك ملاك من محاولة إغراء زين لها، وزين نفسه مستغرب من حديثه بهذه الطريقة، لقد أصبح واثقاً من نفسه أكثر وأكثر وكله بسببها، كان قادراً على الحديث مع أي امرأة في العالم بكل ثقة، ولكنه يضعف بشكل عجيب في وجود ملاك، لذا كان يرأف بحالة عزرائيل ويقدر وضعه عندما يهرب بسرعة وهو الذي اعتادت الشياطين الهروب عندما تعرف أنه في المكان..

- يا لها من ثقة، هذا الكلام يخرج من الشاب الذي يخجل حتى الآن من الإمساك بيدي.

يمد زين يده ليمسك بيد ملاك بحنان فترتجف عندما تشعر بلمسته، وعزرائيل ينظر لأصابعه وهي تحترق بلا مبالاة ! وعيناه مصوبتان نحو الفتحتين في غرفته الخفية، حيث يراقب ما يحدث من خلالهما بتشوق ورهبة في الوقت ذاته..

- ربما كان هذا سابقاً، ولكنني الآن شخص مختلف، لقد غيرني وجودك في حياتي، ولهذا أريدك أن تكوني فيها للأبد.. شاركيني أحلامي، كوني جزءاً لا يتجزأ من كل لحظة منها، سنبني منزلاً، صغيراً كان أم كبيراً، لا يهم طالما أنت معي، قد أكون مصيباً في ما أفعل وقد أكون مخطئاً، ولكنك تعرفين أنني كنت رجلاً ميتاً يمشي على قدمين في السابق، وبعد أن عرفتك بعثت الروح في هذا الجسد المتوفى منذ زمن، أريدك أن تكوني النور في سمائي المظلمة، أشرقي واسطعي بضيائك على قلبي..

شعرت ملاك بقلبها وهو يخفق بقوة وهي تسمع هذا الكلام الجميل، تفتح فمها لترد دون أن تعرف ما يمكن أن تقول بعد ما قيل، ولكن زين يشير للنادل كي يأتي وهو يقول لها:

- لقد أحضرت لكِ هدية..

يقترب النادل حاملاً صندوقاً خشبياً كبيراً للغاية، ويبدو ثقيلاً لأن النادل يترنح وهو يحمله، يضعه على الطاولة أمامهما وهو يزفر

بارتياح من الثقل الذي كان بين يديه ثم يبتعد بسرعة، تنظر ملاك للصندوق دون أن تعرف ما قد يحتويه..

- افتحيه..

تمد ملاك يدها لتفتح الصندوق لتجده يحتوي على كمية كبيرة من الكتب، ولكن بينها شيء مميز، اسم الكاتب، كانت جميع الكتب من تأليف "تولكين"..

- هذه هي مجموعتي الشخصية لتولكين، تحتوي على كل حرف كتبه حتى الآن !

لم تصدق ما سمعته، لقد تذكر أنها كانت ترغب في قراءة كتب تولكين منذ أول لقاء لهما، وها هو يقدم لها كل هذه الكتب، كانت أجمل هدية قد تتخيلها..

كانت عينا ملاك تتنقل بين الأغلفة بلهفة وكأنها تتمنى لو أنها تستطيع البدء بقراءتها الآن، لكن وجودها مع زين كان -في نظرها- مغامرة أشد إمتاعاً من رحلة برفقة الهوبيت !

- لا أعرف ما يمكن أقول، شكراً جزيلاً يا حبيبي.
- العفو يا مدللتي.
- كلا.. أنت تستحق قبلة.

يبتسم زين فيما نهضت ملاك لتطبع قبلة حارة على خد زين ثم تعود لكرسيها مجدداً تاركة شفتين مرسومتين بأحمر الشفاه على خده..

لم يكن عزرائيل سعيداً بهذه القبلة، وهو يتحسس خده بدوره، وقد ظهر حرق على شكل شفتي ملاك فوق خده هو كذلك، ترتسم ابتسامة على شفتيه رغماً عنه، لقد قبلته ملاك للتو، ربما لم تكن تنوي تقبيل عزرائيل ولكن حرارة القبلة قد وصلت إلى خده كذلك !

ينهض زين ليخلع معطفه ويثبته على الكرسي بعناية، ثم يستأذنها:

- سأذهب لتلبية نداء الطبيعة إن لم يكن لديك مانع !

تضحك ملاك بخجل وتشير له كي يذهب دون أن تستطيع الرد..
يذهب زين إلى دورة المياه فيما تحمل ملاك كأس الشمبانيا لتشرب منه باستمتاع شديد، تقلب الكتب بين يدها بتشوق واضح ثم تعيدها إلى الصندوق وتغلقه محاولةً التمتع بوجودها في هذا المكان قدر الإمكان.
تنظر حولها متأملة المكان والبشر بسعادة عندما تلاحظ رجلاً يتفحصها بنظرات مريبة، كان في الأربعين من عمره تقريباً، ويجلس على طاولة كبيرة مع حوالي عشرة من أصدقائه وأكثر، مظهرهم مريب ومخيف، يبدو الأمر كاجتماع لعصابة إجرامية من بعيد، ولا تستبعد إن كان هذا ما يحدث على طاولتهم فعلاً..
تلقي نظرة سريعة على الرجال المحيطين به لتلاحظ أنهم جميعاً ينظرون لها وسط حديثهم، وقد بدا لها الأمر وكأنهم يتحدثون عنها، تبدأ بالقلق مفكرة في ما ينوون فعله وما يفكرون به..
تنظر للحمام منتظرة عودة زين بفارغ الصبر.. لماذا تأخر هكذا ؟
- مرحباً.
تغمض ملاك عينيها وقد توقعت قائل التحية دون أن تنظر حتى، رفعت رأسها نحو الرجل بتردد دون أن ترد، ليتابع الأخير مبتسماً:
- أنا "رعد"، وأنت ؟
ترد ملاك بانزعاج:
- مرتبطة !
- لا تنزعجي هكذا، فأنا لا أحب إزعاج النساء، خاصة الجميلات مثلك، والآن أخبريني، ما هو مجال عملك؟ بعيداً عن كونك ملكة جمال هذه المدينة.
ترتجف ملاك من النظرة الشهوانية التي تطل من عينيه وهو ينظر لها فيما ردت ببرود:
- هذا أمر لا يعنيك، عد إلى طاولتك قبل أن يعود حبيبي.
يبتسم رعد ابتسامة صفراء زادت مظهره سماجة وهو يقول:

- إن كنت تعنين ذاك الشاب فأنا أؤكد لك أنه لا يستحقك، فتاة شديدة الجمال مثلك تستحق رجلاً غنياً مثلي، ليشتري لها كل ما تريد..

تنهض ملاك من مكانها بعصبية وهي ترد:

- ورجل حقير مثلك يستحق ركلة قوية على مؤخرته الغبية لتعلمه معنى الأدب..

يخرج زين من دورة المياه وهو يجفف يديه بمنديل ورقي، ينتبه لملاك الواقفة مع رجل غريب يرمي المنديل أرضاً ويسرع نحوها، يستدير رعد نحوه عندما ينتبه له..

- ما الذي يحدث هنا ؟

يسأل زين ملاك في شك، فتفتح فمها لترد ولكن رعد يجيب بسرعة:

- كنت أتحدث مع حبيبتك الجميلة، وأقول لها أن فتاة مثلها لا تستحق أن تكون برفقة شاب مثلك، إنها تستحق أن تكون مع رجل حقيقي مثلي..

يضحك زين باستهزاء وهو يسأله:

- أتعتبر نفسك رجلاً يا هذا ؟
- بالطبع، أنا رجل بمعنى الكلمة.. وقبل أن تسأل فأحب أن أقول لك أنك لست رجلاً من وجهة نظري.. وهذا رأيي بكل صراحة.

يبتسم زين وهو يقلب الأمر في رأسه عدة مرات، يتحاور مع عزرائيل عما يجب عليهما فعله، بوجود ملاك فلا أمل له في الانتصار على هذا الرجل في عراك، ولكن هذا لم يكن يمنعه من الرد.

- هذا الشاب يمكنه أن يحول حياة رجل مثلك إلى جحيم مقيم، والآن ابتعد عن حبيبتي قبل أن أجعلك تندم على اليوم الذي ولدت فيه..

تتسع ابتسامة رعد أكثر وهو يشير بيده لأصحابه الجالسين على الطاولة بتأهب كقطيع من الأسود الشرسة، لينهضوا سريعاً مقتربين نحو رعد ويقفوا بجواره ناظرين لزين بتوعد..

- لا أريد أن أشوه وجهك الجميل اليوم، لذا اترك صديقتك واخرج من البار، ولكن لا تنسَ أن تدفع الفاتورة قبل أن تخرج.

تتوتر ملاك أكثر مع رؤيتها لعدد أكبر من الرجال وهم يقتربون ليقفوا بجوار رعد وكأنهم موجودين لمجرد إخافته.. يكتشف زين أنه قد أصبح في مواجهة مع البار بأكمله تقريباً.

ينظر زين لملاك وهو يقول بعصبية:

- اخرجي من هنا..

تسرع ملاك لتبتعد ولكن أحد الرجال يمسك بها بعنف وهو يقول:

- ما الأمر أيها الجميل؟ ألا تريد أن تراك حبيبتك وأنت تتعرض للضرب المبرح ؟

يتجمد زين مع وضعه في موقف لا يحسد عليه، عزرائيل يضرب كفاً بكف في حسرة وهو يدعو على الساعة التي دخل فيها زين إلى هذا البار، بل ويلعن اليوم الذي قابل فيه زين هذه الفتاة ! الآن ستتسبب في ضربه فيما لم تكد جروحه السابقة تلتئم، إن تناسينا كتفه الذي لم يتعافى تماما حتى الآن..

يلمح زين أحد الأشخاص القلائل في البار الذين لا زالوا جالسين وهو ينهض، فيبتسم وهو ينظر للرجال الذي يتجاوز عددهم العشرة بكل تأكيد، يستغرب الرجال من ثقته..

- يبدو أنك تريد أن تخرج من الفندق محملاً على نقالة !

يجذب الرجل الممسك بملاك يدها لتقترب منه أكثر وهو يقول:

- أنصحك أن تخرج من هنا قبل أن...

يصمت الرجل وتتجمد ملامحه دفعة واحدة مع تحطم عصا بلياردو على رأسه بعنف ليرتخي مفلتاً ملاك ويسقط على الأرض فاقداً للوعي، ومن خلفه يظهر فارس حاملاً نصف عصا بلياردو

مكسور، تتلاقى عينا زين مع عيني فارس فيبتسمان لبعضهما، وفي أعماق زين كان عزرائيل يطير من الفرحة، لقد أصبح بإمكانه الخروج أخيراً..

يربت فارس على كتف ملاك برفق وهو يقول لها:

- اخرجي من هنا يا عزيزتي..

يتحفز الرجال جميعاً فتتجمد ملاك في مكانها خوفاً، يومئ لها زين بثقة وهو يقول:

- لا بأس، افعلي كما يقول.. إنه معي.

تسرع ملاك منفذة طلبه ولكن أحد الرجال يلحق بها ليمسكها وسط نظرات زين وفارس العاجزين عن فعل أي شيء، يتحسس فارس معطفه ليكتشف أنه لا يحمل مسدسه، وينظر لزين فيفهم الأخير قصده فيهز رأسه نفياً..

ولكن ملاك هي التي أنقذت الموقف هذه المرة، داست على قدم الرجل بعصبية ففتح فمه من الألم كحاوية القمامة في منزلها، ثم سددت ركلة بين فخذي الرجل بكل قوتها جعلته يسقط أرضاً من شدة الألم ثم انطلقت راكضة بكل سرعتها بعيداً عن هذا المجنون وأصحابه حتى تخرج من المكان بأكمله.

يبتسم فارس بإعجاب فيما يستدير زين ليصبح مجاوراً لفارس ومقابلاً للرجال، يقترب فارس من زين ليهمس له بقلق:

- أريد أن أسأل فقط، هل سأقاتل عشرين رجلاً برفقة زين أم عزرائيل ؟!

يبتسم زين ثم يرد:

- معك عزرائيل بشحمه ولحمه..

- ممتاز..

كان عزرائيل الآن يتحكم بجسد زين، ينكز فارس كتف زين مرة أخرى وهو يقول مبتسماً :

- بالمناسبة.. أحسنت باختيار هذه الفتاة..

- كان هذا اختيار زين، ولكن شكراً !

كان الرجال واقفين حتى الآن دون أن يقتربوا منهم، ثقتهم جعلتهم يشاهدون ما يحدث دون أن يتدخلوا، في النهاية هم عشرون ضد اثنين، ولكنهم لا يعرفون أن هذين الاثنين هم الأخطر في هذه المدينة بلا منازع.. ينظر زين نحو رعد وهو يتخيل ما سيفعله به الليلة.. زين يهمس في أذن عزرائيل أن خذ بثأري منه ولا ترحمه انتقاماً لما فعله بملاك، فيبتسم عزرائيل وهو يقول:

- لا تخف، سأفعل ما تريد، راقبني فحسب.

ينتبه عزرائيل لأنه قد رد على زين بصوت عالي، والرجال يراقبونه بقلق وقد بدأوا يشكون بسلامة قواه العقلية، ولكن زين لا يعطيهم الفرصة للتفكير كثيراً في الموضوع وهو يسأل رعد:

- هل ما زلت تريد الدخول في عراك معنا ؟

يضحك رعد ورجاله بقوة لعبارته، ثم يقول بتحدٍ:

- أتتوقع منا أن نخاف منكما يا أشباه الرجال ؟

ينظر زين لفارس وهو يقول ضاحكاً:

- لقد حذرته !

- والآن يجب أن يتحملوا عواقب أفعالهم..

وبدأ العراك، لنرى فارس وهو يقاتل لأول مرة، وجه الأخير لكمة لأقرب الرجال إليه ليسقط فاقداً للوعي من فوره، كان يعرف أين يسدد ضربته، ويعرف المناطق الأشد حساسية في جسد الإنسان ويستغلها ضد صاحبها، ويعرف كيف يحمي نفسه ممن يعرفون نقاط ضعفه كذلك، رغم عمره المتقدم إلا أنه كان قوياً للغاية، خبير في فنون القتال حتى تظن أنه لا يحتاج لسلاح حتى، قبضته العارية تكفي للإطاحة بقبيلة من الرجال الأشداء..

زين من الجانب الآخر يستمتع بما يحدث، يراقب بشوق وهو يرى عزرائيل يسدد اللكمة تلو الأخرى للرجال ليطيح بهم أرضاً، يتخيل أنه من يفعل هذا، فهو يشاهد الحكاية من منظور الشخص الأول، وكأنه هو من يقاتل، يتأمل بتمعن محاولاً التعلم قدر

الإمكان رغم ثقته بأنه لن يستطيع تسديد أي من هذه الضربات في حياته..
ولم يكن الرجال ضعيفين أيضاً، يسقطون أرضاً ولكنهم ينهضون مجدداً ليواصلوا العراك، يتعرق زين وفارس وهما يحاولان تفادي الضربات بصعوبة نظراً للعدد الذي يواجهونه ويحاولون التسبب بأكبر قدر من الضرر للرجال ليمنعوهم من النهوض مجدداً، رعد يتراجع ليقف خلف الرجال وقد بدا مصدوماً مما يحدث، لم يتوقع أن هذين سيبرحان رجاله ضرباً دون أن يستطيع أحد الوصول لهما حتى، ويبدأ بالقلق بأن الدور سيأتي عليه وسيتعرض للضرب كذلك مثل أصحابه..
وهذا ما حدث بالفعل..
يراقب رعد آخر رجاله وهو يسقط أرضاً دون أمل في نهوضه، فيسرع محاولاً الهروب، ولكن فارس ينحني على عصا البلياردو المكسورة ويرميها لتنغرز في فخذ رعد كالرمح فيسقط أرضاً وهو يصيح من الألم.. يقترب منه زين ويمسكه من تلابيبه ليرفعه ببساطة وثم يرمي به ليرتطم بالجدار وكأنه أخف من الريشة، ثم يمشي نحوه ليمسك به من رقبته وينهال باللكمات عليه بكل قوته وزين يصيح من السعادة، كان منتشياً بلذة الانتقام، تلك اللذة التي تعني عودة الحق لصاحبه، والثأر ممن تعدى على الآخرين.
يواصل زين تسديد اللكمات حتى يتفجر الدم من وجه رعد وفمه قبل أن يرتخي وقد فقد الوعي، يتركه زين فيسقط أرضاً، يستدير بعدها لينظر لفارس الذي كان يركل وجه رجل لا زال واعياً حتى يفقد الوعي، ينظر الاثنان لبعضهما ثم ينفجران ضاحكين، كان فارس قادراً على رؤية نظرة عزرائيل وهي تطل من عيني زين، تلك النظرة الواثقة الخالية من أي نوع من الخوف، ثم تختفي تلك النظرة فجأة ليتراجع عزرائيل بعصبية للجانب المظلم من عقل زين، وكان هذا يعني شيئاً واحداً..

ينظر زين لباب البار ليجد ملاك واقفة هناك ناظرة للرجال المبعثرين على الأرض والبار الذي تحطمت طاولاته وكراسيه على رؤوس الرجال وأجسادهم، وزين وفارس اللذين لم يتضررا ولو قليلاً وهو أمر مستغرب نظراً للعدد الذي كانا يقاتلانه، ولكنها كانت سعيدة، وفي نفس الوقت قلقة للضرر الذي تسببا في البار والذي سيكلفهما ثروة بالتأكيد..

يقترب زين من ملاك ويمد يده نحوها مبتسماً فتمسك به ليمشي معها نحو فارس..

- أهلاً بالجميلة.. لابد أنك ملاك..

يمد فارس يده ليصافح ملاك فتتردد الأخيرة لثوان ولكن زين يضع يده على كتفها ليطمئنها أن لا بأس، تصافح ملاك يد فارس فينحني ليقبل يدها قبل أن يفلتها وهو يقول:

- أنا فارس.. لقد أخبرني زين كثيراً عنك، ولكنه لم يفلح في وصف جمالك بالقدر الكافي..

تبتسم ملاك بسعادة وخجل وهي ترد بلباقة:

- شكراً لذوقك..

تنظر حولها للبار الذي تحطم عن بكرة أبيه بقلق، فيسألها فارس:

- ما الأمر ؟
- لقد حطمتما البار بأكمله، لابد أنه سيكلفكما ثروة لدفع التعويض عن كل هذه الأضرار..

يضحك فارس بشدة ويشاركه زين الضحك، ثم يصيح فارس بالنادل الذي كان واقفاً يراقب دون أن يجرؤ على الاقتراب فيسرع نحوه..

- هذه الطاولة لم تتحطم تماماً، أكمل تحطيمها وأحضر لنا زجاجة شمبانيا جديدة..

يأمر فارس النادل وسط استغراب ملاك..

- حاضر.

يسرع النادل نحو الطاولة التي أشار لها فارس ويضربها بقدمه ليحطمها تماماً، ثم يسرع ليحضر زجاجة الشمبانيا، تنظر ملاك لفارس ضاحكة باستغراب:

- ما الذي يحدث هنا ؟

يعدل فارس من ياقة قميصه بحركة مسرحية وهو يرد:

- أنا صاحب هذا الفندق بأكمله، من ذا الذي سيجرؤ على طلب تعويض مني ؟
- إذا فأنت عم زين ؟

ينظر فارس لزين مبتسماً وهو يسأله:

- وهل يمكنني تكذيب زين ؟

يبحث فارس حوله حتى يلمح طاولة في زاوية البار لم تتضرر، يشير لها وهو يردف مبتسماً:

- اجلسا على هذه الطاولة وستأتيكما زجاجة شمبانيا أخرى بالإضافة للعشاء بعد قليل.

تسرع ملاك قائلة:

- لم لا تجلس معنا ؟
- لا بأس، لا يمكنني التطفل على عصفورين مثلكما بحال من الأحوال، ثم أن لدي بعض الأعمال التي يجب علي أن أهتم بها، لا تنسي أن هناك زبائناً سيدخلون البار خلال دقائق ولا يمكنني ترك المكان بهذه الحالة..

تومئ ملاك برأسها متفهمة، ينظر فارس نحو زين مودعاً، ثم يتركهما.. يراقبه زين بسعادة، لقد خاض هذه المعركة برفقة أقرب رجل له في هذه المدينة، ولا يمكنه أن يتصور خوض عراك كهذا مع أي رجل آخر.

لم يكن يعرف حينها أن هذه ستكون الجولة الأخيرة له مع فارس !

الفصل الحادي عشر
بارادايس

"بارادايس" تعني الفردوس، لذا كان زين يعتبر نفسه في فندق النعيم برفقة إحدى الملائكة، قرر كل من زين وملاك الصعود للسهر في الغرفة بعيداً عن ضجيج البار، استلقت ملاك على بطنها فوق السرير وقد أسندت رأسها إلى كفيها ناظرة لزين الجالس على أريكة مقابلة وهو يعاني محاولاً فتح زجاجة النبيذ، ابتسمت وهي تتأمل معاناته وفي رأسها تدور عشرات الأفكار..
لقد تخيلت سيناريوهات هذه الليلة في رأسها، هل تسلمه نفسها؟ كانت متوترة، على عكس بنات جيلها فقد كانت الوحيدة التي لم تفعل ما لا تجرؤ على تخيل نفسها وهي تفعله !
ولكنه لم يكن أي شاب، هذا هو حبها الأول، وقد عرفت منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها أنه مميز، من النادر أن تقابل شاباً ذا عقل جميل بحيث يضاهي وسامته، بغض النظر عن كمية الأفكار السوداء التي تحوم في رأسه إلا أنها كانت تحبه بكل جوارحها ولا تتخيل حياتها بدونه، لكن وجودها معه خطر داهم، فهو يشتبك في عراك في كل مرة تخرج فيها معه، كانت علاقتهما خطرة عليها وعليه في الوقت نفسه، لا تنكر أنه قوي، بل هو أقوى رجل صادفته في حياتها..
كان رومانسياً ورقيقاً ولكنه قادر على أن يبرح عشرة رجال ضرباً دون أن تهتز له شعرة، صحيح أن هذا العراك كله يحدث دون أن تراه، فهو لسبب ما لا يستطيع القتال وهي موجودة،

وهذه نقطة لا زالت تثير استغرابها ولكنها لا تجرؤ على السؤال عن السبب..
المشكلة الوحيدة معه هي أنه من الصعب إجراء حوار معه وهو يخطف أنفاسها بنظراته، رغم تظاهرها بالقوة والثبات معه إلا أنها كانت تعاني من هذه المشكلة.. طوال حياتها وهي تظن أنها بخير، وأنها لا تحتاج لأحد، حتى تذوقت طعم الحب، لتكتشف أن قلبها ظمآن وفارغ من الداخل، ووحده الحب قادر على إروائها وملء هذا الفراغ في أحشائها..
رفعت عينيها لتتلاقى مع عيني زين، كانت تنظر له وكأنه يعني لها الدنيا وما فيها، وكان ينظر لها وكأنها الفتاة الوحيدة في هذا العالم..
لم يكن زين يعاني في فتح زجاجة النبيذ، ولكنه لم يكن مركزاً في ما يقوم به حتى، فهو في غرفة مغلقة مع ملاك، قد لا تكون هذه المرة الأولى، ولكنه تمالك أعصابه في السابق بشق الأنفس، وهناك شعور في داخله يقول له أن شيئاً سيحدث لا محالة..
كان متوتراً، يفكر في ما يمكن أن يحدث بينهما في هذه الليلة، عزرائيل يحذره كي لا يتهور، فهو لا يعرف ما سيصيبه إن حدث ما يفكر فيه !
- لم أفهم حتى الآن، كيف أحببتك بهذه السرعة ؟!
قالتها ملاك بتردد وكأنها خرجت كرد فعل، رفع زين رأسه لينظر لها دون أن يملك إجابة فيما أردفت هي وكأنها تحدث نفسها:
- هذا مستحيل !
عبثت بشعرها بتوتر وهي تحاول أن تخرس نفسها ولكنها شعرت بأنها مجبرة على البوح بمشاعرها وهي تتابع بصوت مرتجف:
- حتى الرصاص يعجز عن اقتحام القلوب عنوة هكذا !
ابتلعت ريقها وهي تعدل جلستها متابعة:

- كنت تقول لي على الدوام أنني مميزة، وأنني الفتاة المثالية لك، والآن سأضطر آسفة لأن أخبرك بشيء أعرف أنك لن تستطيع الاعتراف به قط؛ أنت مخطئ.. قد لا أكون مناسبة لك، وقد لا تكون مناسباً لي، ولكنني لا أبالي، لأنك الشخص الذي أريده ولتذهب كل حسابات التوافق في العالم إلى الجحيم..

مسحت وجهها بيديها وكأنها تحاول مسح التوتر عنه فيما أردفت:

- لم أكن مثالية، ولا أزعم بأنني أقترب من هذا اللقب حتى.. ولكن حتى وإن كنت كذلك قبل أن أقابلك، فأنت ولابد اللمسة الأخيرة من المثالية..

لم يعرف زين ما يمكن أن يقوله بعد كل هذا الكلام الذي يعرف أنه نابع من أعماق قلبها، وقد كانت تخبئه في أعماقها حتى خرج بهذا الشكل المفاجئ، والأقرب إلى الانفجار منه إلى الاعتراف !

وكان لابد أن يعترف لها بالحقيقة أيضاً:

- هناك شخص آخر في رأسي !

رفعت ملاك رأسها نحوه باستغراب من الرد الذي نطقه بعد كل ما قالته، وعزرائيل ينصحه كي لا يكمل، لأن هذا قد يتسبب في إخافتها وربما يجعلها تنفر منه للأبد..

- لابد أن أعترف، هناك شيء يوجعني من الداخل، يتغذى على تلافيف مخي بوحشية بالغة، ويغتصب بنات أفكاري بلا رحمة، لهذا أستمع لموسيقى صاخبة للغاية، كي لا أستطيع سماع ما يدور في رأسي، كي أخرس الصوت الذي يصرخ في عقلي، كي أمنعه من التحكم بي بهذا الشكل، ولكنني ضعيف، أنت الوحيدة التي أشعر معها بأنني قوي !

يغمض عينيه ويضع زجاجة النبيذ جانباً بعدما أيقن من استحالة فتحها في وضعه هذا، كان يتحدث دون أن يجرؤ على رفع رأسه

لينظر لملاك التي لم تفهم أي حرف مما قاله، ولكنها كانت متيقنة من صدقه.. تابع بصوت منخفض أقرب للهمس، ولكن ملاك كانت تسمعه بقلبها قبل أذنيها:

- تعرفين أنني أحبك، هذا لم يعد سراً أريد إخفاءه بعد الآن، لم أعد أريد مقاومة شعوري اللذيذ وأنت معي، أنا مستعد لأن أقوم بسرقة كل نجوم السماء من أجلك إن كان هذا يعني سعادتك، رغم أنني أعلم أن هذا لا يكفي !

أخذ زين يدندن بعدها وكأنه يغني لها:

- كان يا ما كان.. ملاكٌ أحبت شيطان !

اعتدلت ملاك سريعاً لتجلس على طرف السرير وهي ترد بعصبية:

- للمرة الألف، أنا لست ملاكاً، وأنت لست شيطاناً..

هز زين رأسه معترضاً على كلامها بشكل قطعي:

- أنتِ لست من هذه الأرض، أنت ملاك ساقط من الجنة لأن الأرض كانت بحاجة لقبس من النور ليبعثر هذه العتمة التي حطت بثقلها فوقها !

أخرج زين علبة سجائره بيد مرتجفة وأشعل إحداها، جذب نفساً عميقاً من السيجارة ثم نفثه بشفتين ترتعدان من شدة التوتر والخوف مما هو موشك على الاعتراف به..

- في رأسي مسرح يعرض مسرحية واحدة على مدار الساعة، وبشكل متواصل، مسرحية بلا سيناريو، تحوي ممثلَين فقط، والمشاهدون هم أي شخص يسوقه حظه العاثر لأن يلقي نظرة على هذا الشاب ذي المظهر المريب الذي يمشي بجواره في الشارع، كِلا الشخصيتين يحاول اثبات نفسه وخطف الأضواء، أحدهما ذو كاريزما مرعبة، وحضور طاغي، أما الآخر فخجول جداً، يكاد يخاف من ظله.. استعملت لفظ الممثل كمسمى فقط، رغم أن أفعالهما على المسرح وكل ما يفعلانه يؤثر عليهما

مباشرة، فحياتهما هي التي على المحك، ولابد من حساب كل فعل كي لا يتسبب في مقتلهما..

لم يكن الغموض سيد الموقف، فحتى الغموض عجز عن فهم ما يجري، فكيف يمكن لملاك أن تفهم المعاني الخفية في اعترافه الذي يخاف من البوح به لهذه الدرجة..

- أقرب وصف للأمر هو أنها لعبة استعراض عضلات، وعرض للنفوذ، والفائز غالباً هو عزرائيل، إلا في حالات نادرة، عندما يكون هناك مشاهد مميز بين الحضور، حينها يختفي عزرائيل بخوف أمام هذا الضيف ليعود إلى الكواليس، يستحي من الوقوف أمامه، ويترك المسرح لزين، فيما هو يراقب ما يحدث من الظلمة التي توارى فيها..

رفع زين رأسه لملاك وهو يقول:

- هذا الضيف هو أنتِ يا ملاك !

جذب زين النفس الأخير من سيجارته قبل أن يطفئها في كف يده ليغمض عينيه متجاهلاً الألم، وكأنه يعاقب عزرائيل لمعرفته أنه يتضرر بشكل مساوي لكل ضرر يصيب جسد زين، رغم أنه متأكد من أن عزرائيل لن يأبه بمثل هذا الألم..

إن لم تكن هذه الصدمة كافية لتخيف ملاك وتبعدها عنه، فما سيقوله بعدها سيكون أشبه بالضربة القاضية !

سألها ببساطة تحمل في طياتها الكثير والكثير من الرعب:

- ألم تسألي نفسك لم يخاف أعتى رجال العصابات في هذه المدينة من حبيبك البريء؟

ابتلعت ملاك ريقها لهذا السؤال الغريب الذي لا تنكر أنه خطر ببالها، ثم سألته وهي متيقنة من أنها لا تريد معرفة الإجابة:

- لماذا ؟

أجابها سريعاً وكأنه ينتظر أن تسأل ليعترف بكل شيء:

- لأنني مجرم، وقاتل.. قتلت المئات في السنة الأخيرة فقط.. لا أختلف عن أي من سكان المدينة، بل على العكس، قد أكون أسوأهم على الإطلاق..

ارتجفت ملاك لمجرد التفكير بأن ما يقوله قد يكون الحقيقة، وسألته برجاء مُحزن:

- زين، أرجوك أخبرني أنك تمازحني.. هل هذه مزحة ؟
- هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعرفيها إن كنا سنبقى معاً.. أنا هو أكبر مجرم في هذه المدينة، يسمونني "عزرائيل" لأن عدد الأرواح التي سلمتها للموت بيدي هاتين أكبر بأضعاف من التي قبضها ملك الموت الحقيقي بمنجله الحاد..

كان الكلام يخرج من فمه بسرعة وكأنه يريد نطقه قبل أن يفقد القدرة على الحديث فيُكمل ما بدأه بالأكاذيب كعادته، فهمس لها:

- هذه هي الحقيقة.. أنا القاتل الذي يخاف منه أكبر مجرمي المدينة، وأنا واقع في غرامك !

وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، نهضت ملاك بعدها وتناولت معطفها لترتديه سريعاً دون أن يجرؤ زين على التحرك، كل ما فعله هو أنه صاح بها بنبرة متوسلة:

- إلى أين ستذهبين؟
- بعيداً..
- لم تحددي المكان.
- لا يهم، المهم أن أكون بعيدة عنك الآن.

إرتجف بشدة وهو يقول متوسلاً بشدة:

- كلا، علينا أن نتحدث، أخبريني بما تفكرين به.. أرجوك يا ملاك.
- لا يمكنني الحديث الآن، ليس وأنا عاجزة عن النظر في وجهك دون أن أرغب في صفعك بكل قوتي! لذا أرجوك أنت، دعني أذهب في حال سبيلي.

تصلب زين بعد هذا الجواب المتقضب القاسي، فيما أسرعت ملاك نحو الباب وفتحته، ألقت نظرة طويلة على زين وهي واقفة عند الباب فهمس لها في ضعف شديد:

- أنا أحبك!
- أعرف، وأنا أحبك، ولكن يجب أن أذهب الآن، عليك أن تفهم بشاعة الإعتراف الذي رميته في وجهي يا زين!

وخرجت من المكان صافقة الباب خلفها.. وزين متجمد في مكانه دون أن يفكر في اللحاق بها.. لقد خسرها هذه المرة، خسرها للأبد,, كان يعرف أن ما سيقوله سيتسبب في هروبها، ولكنه لم يكن يتوقع أنها ستتركه فعلاً، وكأنه كان يتمنى أن تتقبله، بإجرامه ووحشيته، وعزرائيل المختبئ في داخله بين تلافيف مخه، إن تناسينا الدم الذي على يديه..

ولكنها فضلت تركه ليكمل حياته وحيداً..

سالت دموعه على خديه بصمت وهو يرتجف بشدة، يتعرض قلبه لأسوأ أنواع الألم، ألم الفقد، لقد فقد أمه من قبل بعدما ماتت لأنها لم تستطع التعايش مع فكرة أن ابنها قد قتل زوجها وتحول من بعدها لقاتل مأجور عديم الشفقة.

والآن فقد حبيبته لأنها لا تستطيع تقبل فكرة أن حبيبها قاتل محترف، ومجرم قتل المئات وعدد ضحاياه في ازدياد مستمر..

أما ملاك فكانت الحلقة الأضعف، تمشي في الشارع ودموعها تنهمر بغزارة على خديها، لقد اعترف بلسانه بحقيقة مرعبة.. كيف يمكن لشاب مثله أن يكون قاتلاً ؟ لقد كانت تفكر قبل قليل بأن هناك أفكاراً سوداء في رأسه، ولكنها كانت تظن أنه تأثير هذه المدينة فحسب، أما أن يترجم هذه الأفكار السوداء لجرائم دموية، فهذه قصة أخرى..

قصة مرعبة لا تجرؤ على تخيلها..

أسوأ جانب في الوقوع في حب شخص ما، هو أنك لا تدرك عمق المسافة التي وقعتها إلا عندما تضطرك الظروف لنسيان حبك أو

تجاهله أو دفنه في قبر الماضي، لتدرك من بعدها أن السبيل الوحيد للعودة إلى الارتفاع الذي كنت فيه من قبل.. هو الطيران ! ستقمع مشاعرها، فهي لا تستطيع العيش مع مخلوق مثل الذي وصفه زين في كلامه، كان صادقاً، هذه نقطة تحسب له، كان بإمكانه إقناعها بأن تمارس الجنس معه، وكانت لتوافق تحت مسمى الحب والثقة، ولكنه لسبب ما قرر الاعتراف ولم يستغل الفرصة ليؤذيها.

صاحت بصوت عالي:

- لماذا فعلت هذا يا زين؟ لماذا أقنعتني أنك تحبني بفعلتك هذه؟ لماذا لم تكسرني بأن تستغلني كي أملك القوة لأن أتركك للأبد؟

وما زال التفكير ينهش خلايا مخها.. ماذا يعني لها إن كان يحبها، هل يشفع له حبه عن كل الخطايا التي فعلها في حياته ؟

هل يمكنها تناسي ما سمعته هذه الليلة؟ هل تستطيع التعايش مع فكرة أن حبيبها أكبر مجرم في المدينة الراعية للإجرام ؟!

لم تكن متأكدة من إن كانت قادرة على مُسامحته وتقبله، فالأمر بات فوق طاقتها، لقد وعدته بأنها ستبقى بجواره، ولكن وعدها هذا يتناقض مع العهد الذي عاهدت به نفسها بأن لا تنخرط في رذالة هذه المدينة وسكانها، لتجد نفسها واقعة في غرام أخطر مجرميها !

حبها له كان يعني تدميرها لنفسها بنفسها، كان يعني الشؤم المقيم الذي سيخيم على قلبها مدى حياتها معه.. يعني نسف كل مبادئها في الحياة من أجل شخص واحد.. من أجل قاتل!

كانت تعتقد أن شارل شخص حقير، كان يحبها وكانت تعتقد أنها تحبه، لم تؤمن بأنها يمكن أن تحب شخصاً مثله في يوم من الأيام، ورغم هذا قررت أن تعطيه فرصة، وانتهت العلاقة عندما حاول التعدي عليها فما كان منها إلا أن هربت كما تفعل مع جميع مشاكلها، وانتهت العلاقة، إن كان بإمكانك أن تسميها علاقة..

وماذا عن زين؟ آه يا زين!
كيف يكون قاتلاً ولا يفكر في استغلال وجودها معه في غرفة مغلقة ؟
لقد كان لها أباً عندما قرر والدها الإنتحار وتركها، واساها وتركها تنام بين ذراعيه دون أن يمسها بسوء، لم تشعر بالأمان في حياتها كما شعرت وهي معه، والآن أدركت أن هذا الأمان يعني العذاب، فلا شيء في هذه الحياة يأتي بالمجان، حتى الحب له ثمن، وثمن الحب قد يكون أغلى من قدرتنا على الدفع!
ولا تلبث تعود لذات السؤال.. حتى الإنسان السوي كان ليفكر بإستغلالها مع تلاعب الشيطان في رأسه، ولكن زين لم يفعل، لقد أخبرها بالحقيقة كاملة قبل أن يفكر في الاقتراب منها.
كان يتحدث بخجل، يخفض رأسه وكأن العار موصوم بقلبه فلا يريد أن تراه ينبعث من مسامات وجهه !
تتصارع الأسئلة في رأسها دون أن تستطيع العثور على جواب شافٍ، الأمر أصعب مما تتصور، كان يتحدث عن مئات الضحايا، وقد شاهدته يقتل دستة بالفعل، ورأت ما فعله بعشرات الرجال من قبل ومن بينهم الفعل الوحشي الذي فعله بـ "شارل" الذي، رغم كرهها له، إلا أنه لا يستحق أن يحدث له هذا، وماذا عن قاطعي الطرق والطريقة التي قتلهم بها دون أن يرمش له جفن؟
كانت تبحث عن إجابة، ولكن الإجابة كانت بعيدة المنال.
المصيبة هي أنها اشتاقت له خلال هذه الدقائق.. كانت مدمنة على ابتسامته، على ضحكته العالية، وخشونة يديه، على عناده والجدالات التي لا تنتهي بكل المواضيع، على حضنه الدافئ الذي جربته وأصبحت تريده كل ليلة، وعلى لمعة عينيه..
كانت مدمنة على وجوده، ورائحته، ودعاباته السمجة السافلة..
كانت مُدمنة عليه هو.. والآن عليها التخلص من إدمانها هذا!

الفصل الثاني عشر
الوادع

فندق باراديس.. غرفة زين..
أشعل زين سيجارته الرابعة خلال نصف ساعة، وجذب منها عدة أنفاس سريعة لتكون حوله غيمة من الدخان، كي تغطي وجهه وعينيه اللتين تصارعان دموعاً قاسية في معركة خاسرة، تتساقط الدموع من عينيه إلى دفتر مذكراته الذي يبوح له بكل ما في قلبه كعادته..
تجرع ما تبقى في كأس الويسكي وعاد لينظر للورقة ليشاهد الحبر وهو يذوب تحت الدمعة الساخنة التي تخترق الصفحة وكأنها تحاول قراءة المزيد، وبين يديه كان القلم يتحرك بسرعة دون أن يهتم بما إذا كان يكتب فوق السطر أو تحته..
ارتصت كلماته على الورقة متجاورة كرتل عسكري، ولكن هناك اختلافاً واضحاً، هذه المرة كانت مختلفة، فهو لم يكن يكتب هذه الرسالة لنفسه، كان هناك هدف آخر، ومُخاطب إضافي.
ولهذا كانت الصيغة التي يكتب بها غريبة عليه بعض الشيء، ولكنه لا زال يشعر بأنه يكتب لنفسه.. توقف عن الكتابة قليلاً ليلتقط أنفاسه، وأخذ يقرأ ما كتبه:
"الساعة الآن هي الثامنة صباحاً، أنا الثمل الوحيد في الفندق حالياً، ربما لأنه ليس هناك مجنون سيفكر في احتساء مشروب في هذا الوقت المبكر من النهار..

تَنَفَس الصُبح، وما زلت أنا أختنق عاجزاً عن إلتقاط أنفاسي، كشعور الجنين، وثلاجتي هي حبلي السري من الحبر والسجائر والقهوة والكحول، وهذا الليل هو ظلمة الرحم، وكل صبح عبارة عن ولادة وشهيق، وصرخة أولى، ودموع..

هذه الوحدة مألوفة، أنتظر ساعة الولادة التي ستخرجني من جدران هذه الغرفة، أو انتحارياً على هيئة صديقة مقربة لتنتشلني من الإكتئاب بعملية قيصرية.. وإن تأخروا، سأضطر لإجهاض نفسي بنفسي، قد لا أملك القدرة على الخروج من هذه الغرفة ولكنني أملك العديد من التذاكر المباشرة للعالم الآخر في مطبخي، كل سكين في رفوفه، قطعة البيتزا غير الممسوسة والمتعفنة منذ زمن، سم الفئران المخبأ تحت المغسلة، وعلبة الحليب منتهي الصلاحية..

وهناك التذكرة الأقوى، تذكرة كبار الشخصيات كما أحب أن أسميها، ألا وهي التفكير المستمر، ولكنها طريقة بطيئة جداً، ومؤلمة للغاية، وغير مرئية على الإطلاق، وأنا اخترت هذه الطريقة، سأموت من الداخل للخارج، لأواصل خداع الجميع، وكي أبقى مُحافظاً على ابتسامتي الزائفة لأطول فترة ممكنة..

المشكلة هي أن الرياح لم تجرِ كما اشتهت سفينتي، أشرعتي مثقوبة ولا مجال لأن تحركها الرياح، كما حال روحي، كل شي محطم ومليء بالفراغات التي كانت مشغولة بأشخاص كانوا يحتلون مكانة عظمى في قلبي، هؤلاء هم الدعامة الأساسية لي ولشراعي، وبدونهم أنا عالق في وسط المحيط في سفينة بلا فائدة، بدون مجاديف، والأدهى أن اليابسة تبدو بعيدة، بعيدة وكأنها في كوكب آخر..

لقد استسلمت للشيطان على كتفي الأيسر، قد يكون هذا سبباً في أن الملاك على كتفي الأيمن قد طار بعيداً!

هذا صحيح.. لقد حظي هذا الشيطان بملاك حقيقي، وسمح له بأن يهرب من بين يديه، ما هذا الغباء؟ كيف لي أن أتركها تذهب بعد أن تعلقت روحي بروحها بهذا الشكل؟
لم أنم حتى الآن، هذه الليلة الثانية دون أن أعرف ما حل بي، ذهبت ملاك وتركتني بلا حول ولا قوة .. لا وجه سواها في باطن جفني، وأفكاري مصابة بأرق حاد، قاتلها الليل، وقتلني السهر!
نامت الملاك بين ذراعي ليلة واحدة، والآن أنا مُدمن على حُضنها.. قضيت تلك الليلة وأنا أحرس قلبها، أمسد شعرها برفق وأتأملها بافتتان.. تعريت في الليل من همومي، فككت أزرار قلقي، وخلعت أثقالي الروحية، دسست جسدي تحت اللحاف كطفل عاد لرحم أمه..
ثمة شيء خارق للطبيعة في هذه اللحظة. هذا الملاك اليتيم ذو الجذور السماوية، بين يدي شيطان رجيم من أصول جهنمية!
متناقضة كالأحلام بين ذراعي كابوس!
سطعت الشمس يومها مُتسللة من بين أطراف ستارة النافذة، وأيقنت حينها أن هذا هو "صباح الخير" الأول بعد صباحات كثيرة لا تعرف معناه من قريب ولا من بعيد..
فتحت ملاكي عينيها ونظرت لي من خلال بستانين شديدي الخضرة، وابتسمت فيما همست لها: "صباح الخير يا ملاكي"..
اتسعت ابتسامتها حينها وسرعان ما تلاشت وهي تطلب مني أخذها للمنزل، ولم تُفلح كل محاولاتي في جعلها تُغير رأيها، كانت تريد الجلوس وحيدة لبعض الوقت، واحترمت قرارها مُرغماً كي لا أضغط عليها وسمحت لها بالذهاب لأنني أعرف أنها ستعود إليَّ بعدها..
ولكن هذه المرة مُختلفة، لقد سمحت لها بالذهاب وأنا أعرف يقيناً أنها لن تعود، وكيف لها أن تعود بعد ما سمعته.. أمي التي ولدتني لم تتحمل الحياة مع كائن مثلي.. هذه الإنسانة التي لا زالت دموعها تكسرني، تلك الدموع التي لم أعد قادراً على

رؤيتها أو سماعها، إنما أشعر بها كل ليلة وهي تسيل على وجنتيّ قلبي، أحس بهذا الماء المقدس وهو يحيط بفراشي البارد ليدفئه قليلاً، ليرسم دائرة حولي كي يمنع عني الكوابيس المريعة التي ما عادت تُفارقني في صحو أو منام!

في آخر مرة تحدث فيها مع أمي، كانت كلماتها قاصمة للظهر، نطقت فيها بعبارة كانت الأقسى وقعاً على قلبي من بين كل ما سمعته في حياتي: "بدأت أشعر أن بصري أصبح أضعف.. يبدو أنني سأخسر عينيَّ لشدة ما بكيت عليك يا نور عيوني!".. لو أنكِ تعرفين كم كانت عبارتك هذه قاسية عليَّ يا أمي، صدقيني، كنت أفضل الموت على استشعار الغصة في صوتك وأنت تتحدثين ناظرة للأرض، خاصة مع إحساسي بالدموع التي تحتبس في عينيكِ وتحاولين منعها من الهروب.

قلتِ لي: "بكيت بحراً عليك".. ومن ساعتها وأنا أغرق في دموعك، بل وأبكي أيضاً لأزيدني غرقاً.. شتان بين قطرة من بحر وقطرة من دمع، كلتاهما مالحتان، ولكن دمعتي هذه تختزل في داخلها أوجاعاً كُنت أحسبها مدفونة على مسافة ظننتها أشد عمقاً من المحيط، والواقع أنها كانت أبعد من هذا، لقد وصلت لنواة روحي، وحتى الأرض بعظمتها إذا غضبت، لم تستطع أن تكبت ثورتها لتنفجر براكينها التي لا تحرق أحداً في الحقيقة سوى بناتها اللاتي يُحببن الشمس..

ها هي براكيني اللعينة تطفو على السطح، بل تنفجر بعنف به وبمن عليه من عينين ذابلتين وملامح باهتة وبشرة ليس لها جَلد على احتمال مثل هذه الحرارة الحارقة..

ربما الأحرى أن أقول أن هذا إنائي ينضح بما فيه، فكل ما كان يحويه، أرشيف من الذكريات، وصخب عائلة تفرقت، كثيرٌ من الوحدة، وقليل من الصحبة، حتى صارت ذاتي تفارقني على هيئة هذه الدموع!

لن أعتب على من يخرج من حياتي، بل سأحترم قراره وأودعه بكل لباقة، هذا لأنني أصبحت شيئاً لا يطاق، مخلوقاً من أرق وقلق، وريبة وتردد، وخوف.. أنا وحيد، لم أرد يوماً أن أترك أحداً، ولم أفلت قط يداً كانت مشدودة على يدي، هم الذين تملصوا من أصابعي مُسرعين نحو الباب ركضاً بعيداً عني وكأنهم رأوا أبواب الجنان وهي تفتح!

ودون وداع أخير رحلوا.. لم تكن لي قيمة عندهم تكفي ليبذلوا مجهوداً ويرسلوا لي تلويحة، أو ربما رفعة حاجب ختامية. لا عتب عليكم يا سادة.. فحتى دمي لا يصدق أن أصاب بجرح كي يفر هارباً مني!

الوقت يقطعني بنصله الحاد، يركض وأنا أركض خلفه لألحقه، أمسك به من طرفه وأطعن نفسي بنفسي، أنا من أضيعه، وأضيعني بضياعه.. والآن، لأزيد الطين بلة.. أعتقد أنني سأذهب لمكان آخر كي أثمل!"

أغلق زين دفتر مذكراته، ونهض متمطياً وكل عظمة في جسده تئن من الشوق لدفء ملاك، إرتدى معطفه فوق ملابسه التي يرتديها منذ يومين، أخذ علبة سجائره وفتح باب الغرفة ليخرج فيتفاجأ بفارس أمامه وهو يوشك على دق الباب..

- ما هذا النشاط كله يا عزيزي؟

تراجع زين بسرعة كي لا يبوح بمشاعره وظهرت نظرة عزرائيل سريعاً من عينيه وهو يرد ببرود:

- لم أنم منذ يومين، لم أكن أقل نشاطاً في حياتي!
- لماذا؟

مط زين شفتيه وملامح عزرائيل الممتعضة تعتلي وجهه:

- يمكنك أن تسأل زين!

إبتسم فارس لهذه المُعضلة التي تحتل رأس هذا الشاب ثم قال:

- حسناً، ما رأيك أن أدعو زين على الفطور لأفهم منه ما حدث؟ ولتذهب أنت للنوم يا عزرائيل.

- لا أعتقد أنه في حالة تسمح له بالتحدث.
- سنتفاهم بخصوص هذا ونحن نتناول الفطور.. سأترك لك اختيار المطعم الذين سنأكل فيه. إلى أين تريد أن نذهب؟
- لم لا نأكل في الفندق؟
- مللت من طعام الفندق، أريد أن نذهب لمكان آخر، والآن أحضر مفاتيح سيارتك واتبعني.

استغرب زين لأنهم سيذهبون بسيارتين كي يأكلوا، فسأله مبتسماً:

- ولم التبذير؟ فلنذهب بسيارة واحدة.
- كلا، لدي عدة مواعيد اليوم وقد لا أجد الوقت لتوصيلك بعد الفطور.. والآن توقف عن مناقشتي وأنا واقف على الباب واتبعني سريعاً.

دس فارس قطعة من البيض المقلي في فمه وهو ينظر لزين الذي لم يلمس طبقه حتى الآن، سأله في شك:

- لم لا تأكل؟
- ليس لدى زين شهية للأكل.
- فليأكل عزرائيل إذاً!
- أنت تعرف أنني لا أتناول الطعام.. لست بحاجة لهذه الأشياء التي يحتاجها البشر الفانون.

وضع فارس الشوكة على الطاولة وكأن شهيته قد اختفت، نظر في عيني زين وهو يسأله في ملل:

- هل يمكنني التحدث مع زين يا عزرائيل؟

تجمدت ملامح زين بعد السؤال وفارس ينتظر الإجابة.. في داخله كان عزرائيل يجر زين ليتحدث والأخير يحاول الهرب، ثم استسلم للأمر الواقع ليظهر على المسرح، وفي لحظة تغيرت ملامح وجهه، من برود عزرائيل الخالي من التعابير، إلى الشك الذي يطفح من مسامات زين..

لاحظ فارس التغيير المفاجئ، والذي يستحيل أن يكون تمثيلاً، فابتسم لرؤية شيء من الإنسانية في هذا الكائن الذي يتغذى على الدم، ومع التغير الذي حدث لزين، كان هناك تغيير في ملامح فارس، وكأنه رأى ابنه الوحيد أخيراً، ابتسم له وسأله بحنان أبوي:

- كيف حالك يا زين؟

هز زين رأسه لصعوبة السؤال، ومد يده ليملأ ملعقة بفطيرة التفاح التي يُحبها قبل أن يدسها في فمه ويجيب دون أن يرفع رأسه عن الطاولة:

- ما زلت حياً، للأسف.

- لا تستخدم هذه النبرة معي يا فتى، أكره رؤيتك بهذا الشكل، أنت تعرف أنني أهتم لأمرك وأحاول الإعتناء بك بكل قوتي، وسأموت من القهر فعلياً إن أصابك مكروه، ولكن ليس قبل أن أقتل كل من كان سبباً في أذاك!
- أعرف.. ولكن ما بيدي حيلة من دونها!
- ملاك؟
- وهل هناك غيرها؟ أو بالأحرى، هل كان هناك غيرها؟

سأله فارس في دهشة:

- ما الذي حدث؟
- لقد تركتني.
- لماذا؟
- لأنني كشفت لها كل أسراري!

إتسعت عينا فارس في رعب لهذا الخبر وهو يسأله بتردد:

- ما الذي أخبرتها به؟
- أنني قاتل أحمل على عاتقي مئات الأرواح، وأنني عزرائيل هذه المدينة اللعينة الذي تعني له الروح ضغطة زناد بسيطة، أو ضربة منجل مُحكمة!
- ما هذا الغباء؟ كيف تفعل شيئاً كهذا؟

وضع زين ملعقته في طبقه مع صعوبة ابتلاع اللقمة التي في فمه، ثم أجاب في ندم:

- لم أكن أريد تخبئة أي سر عنها، لا أريدها أن تحبني وتتفاجأ بأنها أحبت مخلوقاً آخر، هذه الفتاة لا تستحق أن يُكسر قلبها.
- ولكنك كسرت قلبها بهذه الطريقة!
- أعرف، ولكنني لم أتحمل، لقد خرج مني الإعتراف كردة فعل، كما حدث في اللحظة التي اعترفت لها بحبي لها. لا أفهم حتى الآن لم كنت أكذب عليها طوال هذه الفترة؟

لماذا لم أخبرها بالحقيقة كاملة في اللحظة التي شعرت بقلبي وهو ينبض من أجلها؟ يا لي من غبي!

مد فارس يده ليمسك بيد زين مُطمئناً وهو يقول:

- لا تقسُ على نفسك.. لقد كذبت عليها كي تحميها.
- على العكس، لقد كذبت عليها لأن الكذب كان أسهل بأضعاف من الإعتراف، لطالما كانت الأكاذيب تتسارع لرأسي قبل الحقيقة، والآن أنا مُحتار ومكسور، أخبرني يا فارس، هل يمكن أن تعود لي بعد ما حدث؟

كان السؤال مفاجئاً وموجهاً للشخص الخطأ، سكت فارس طويلاً مُفكراً في الأمر، ولكن الإحتمالات كلها كانت تقول له ما تُحمد عقباه.. تحدث أخيراً بعد صمته ليقول:

- لا أعرف، بصراحة، ولكن إن كانت تحبك فستعود، بالطبع سيكون لها شروط عديدة، أولها أن تتوقف عن القتل وتبتعد عن كل هذا العالم، هل أنت مستعد لفعل هذا من أجلها؟
- بالطبع، ودون تردد.
- وماذا عن الحديث الطويل الذي أخبرتني به عن أنك تريد تطهير المدينة من الأنجاس الذين احتلوها؟ هل ستتنازل عن هدفك هذا من أجلها؟
- لم يكن هذا هدفي أنا، كان هدفي هو التخلص من زياد، وأن أصبح أقوى بحيث أحمي نفسي وأمي، ولكن عزرائيل هو من أتى بكل هذه الأفكار، قد أكون فكرت بهذا الأمر من قبل، ولكنني أعرف أن شخصاً واحداً لا يمكنه تنظيف مجتمع القاذورات هذا، الأمر أصعب وأعقد من تفكير عزرائيل الدموي!

أخفض فارس رأسه وكأنه يحاول استيعاب الكلام الذي يسمعه، ثم ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يرفعه لينظر لزين قائلاً:

- إن كان هذا صحيحاً، فاذهب معها، اترك الدنيا كلها خلفك واتبعها، ولكنني أحذرك، إن استطعت الخروج من هذا العالم الذي نعيش به، فلا تعد مطلقاً، لأي سبب، سيلاحقك ماضيك بكل تأكيد، وعليك تقبل هذا، وبالتالي فستقضي حياتك هارباً من أيامك السوداء.
- إن كان هذا يعني أنها ستكون لي فأنا على أتم الإستعداد للهروب من مدينة لأخرى طوال حياتي من أجلها!
- إفعل هذا إذاً، حاول معها فربما تقتنع وتعود إليك، وإن لم تفعل، فستكون متيقناً من أنها لم تكتب لك من الأساس، ولكنني أكرر، إن خرجت من هذا العالم فلا تعد له لأي سبب مهما ظننته مُلحاً ومهماً..
- وهو ما سأفعله بالضبط..

أومأ فارس برأسه ثم نهض وبدأ يجمع أشيائه عن الطاولة فسأله زين:

- هل ستذهب بهذه السرعة؟

تجمد فارس لثواني دون أن يرد قبل أن يقول:

- أتمنى لو كان بإمكاني البقاء معك حتى العشاء، ولكني لدي موعداً لا أستطيع التأخر عنه.
- موعد مع من؟

إبتسم فارس وهو يقول ممازحاً ومتفادياً السؤال في الوقت ذاته:

- سأخبرك لاحقاً.. وبالمناسبة، ستدفع أنت ثمن الفطور، باعتبار أنك قتلت شهيتي للطعام بحديثك!

ضحك زين وراقب فارس وهو يخرج من المطعم ليركب سيارته وينطلق بعيداً، أخرج زين مظروف رسائل سميكاً من جيب معطفه، تناول قلمه وكتب عليه من الخارج: "إلى ملاك".

تأمل المظروف لدقائق طويلة في شرود، ثم أخرج محفظته ورمى بمبلغ على الطاولة دون أن يهتم بطلب الحساب ليتأكد من المبلغ الذي عليه.. خرج من المطعم، وركب سيارته وانطلق نحو

منزل ملاك مباشرة حيث جلس في سيارته لساعات متردداً، كان وضعه يُرثى له، وكان عليه استجماع كل قوته كي يتجاوز الأمتار القليلة التي تفصل بين سيارته وباب منزلها، وقف أمام باب المنزل ودس الرسالة من تحته وركض سريعاً ليهرب لسيارته وكأنه طفل مُزعج يدق على جرس جارهم!

في مساء اليوم نفسه..
إقترب زين بسيارته من مقر المنتقمين ليفاجئ بعدد كبير من السيارات المركونة في الخارج، عدد غير معتاد ومريب من السيارات، أوقف سيارته ومسح وجهه وقد أدرك أن هناك مشكلة بكل تأكيد، وكأن مشكلته مع ملاك لا تكفي لهذه الليلة ؟!
هبط من السيارة مستغرباً، ثم مشي نحو القصر دون أن يعرف ما ينتظره بالضبط.. دخل من باب المقر المفتوح على مصراعيه ليجد جمعاً من الرجال مُلتفين حول الطاولة الكبيرة في منتصف الصالة، ينظر حوله وقد بدا أنه يبحث عن فارس بين الرجال ولكنه لا يجده..
سأل زين أحد الرجال:
- ما الذي حدث ؟
- إنها مصيبة..
زفر زين بضيق وهو يرد:
- لا وقت لدي للمصائب.. جدولي ممتلئ بالفعل !
نظر له الرجل بحسرة دون أن يرد، وكأنه قرر تركه لمواجهة مصيبته هذه لوحده، ليرى إن كان قادراً على تحملها أم لا..
أسرع زين ليتجاوز الرجال بصعوبة حتى يعرف ما تجمعوا حوله..
في وسط الطاولة جسد مغطى بملاءة بيضاء تحول لونها للون الأحمر الغامق بعدما غرقت بالدماء.. تجمد زين، ورفع رأسه باحثاً حوله ثم فهم ما حدث، إقترب سريعاً ومد يداً مرتجفة نحو الغطاء ليبعده عن رأس الجثة ليجد أن القتيل هو فارس..
كان محروقاً بشدة، وملامحه مطموسة تماماً، ولكن هذا الإجتماع يستحيل أن يكون على رجل عادي من رجال العصابة، هذا اجتماع المنتقمين جميعاً لتشييع زعيمهم بكل تأكيد..

إستدار زين لأقرب الرجال منه وسأله في توسل:

- أرجوك أخبرني أن هذا ليس فارس.

هز الرجل رأسه في أسى وهو يقول:

- لا أستطيع للأسف، هذا هو فارس!

تجمد زين مكانه تماماً بعدما ألجمته المفاجأة، أخفض رأسه في حزن بالغ، هذا الرجل هو أقرب شخص إلى الأب في حياة زين، كان فارس يحبه، وزين كان يعتبره كأب له، وإن كان لم يخبره بهذا قط، كان يظن أن وضعه لا يسمح له بأن يعترف بشيء كهذا، رغم أن فارس قد أكد له حبه مرات عديدة على مدار الشهور التي قضوها سوية..

لقد فقد الليلة والده، وقبلها خسر الفتاة الوحيدة التي أحبها، وعندما أضاف أمه إلى القائمة اكتشف أنه قد خسر كل الأشخاص الذين يهتم لأمرهم في هذه الدنيا !

الفصل الثالث عشر
سيمفونية الإنتقام

يبدو أن الوقت قد حان ليعترف زين بالحقيقة، وكان لابد أن يوافقه عزرائيل، لم يكن أي منهما موتاً، كانا مُمَثلين فحسب، يتظاهران بأنهما شيء ليسا عليه.. إعتراف كهذا قد يكون أقوى من قدرة عزرائيل على البوح، ولكنه ألمٌ لابد منه.. للمرة الثانية يَسلُب منه الموت شخصاً عزيزاً، وللمرة الثانية سيضطر لأن يقف عاجزاً مُكبل الأيدي والأقدام بلا حول وقوة، لم يملك القدرة على منعهم من الموت، وبالطبع فهو لا يملك القدرة على إعادتهم إلى الحياة..

وقف زين مع عصابة المنتقمين كاملة أمام قبر فارس والأفكار الآنفة تحتشد في رأسه، تَخبط وهلاوس، يرى فارس جالساً على تُربة قبره ناظراً إليه في عتاب، وكأنه يسأله عما حل بعزرائيل الذي كان يحسبه ذراعه الأيمن، كيف غدره هكذا وتركه لبراثن الموت الحق!

كان هناك رجلان يقومان بتسوية التراب المتجمع فوقه والوجوم بادي على وجوه الجميع.. يقفون دقيقة حداد ثم يتفرق الرجال جميعاً ليتجه كل منهم نحو سيارته..

الموت بالنسبة لهم يُساوي دقيقة رثاء، وبعدها لابد لهم أن يعودوا لحياتهم التي لن تقف، بكل تأكيد، من أجل رجل أو قبيلة.. وإن كان فقيد الليلة سبباً في إطعامهم وإيوائهم على مدار السنوات الماضية، هذا ليس مُبرراً ليضيعوا وقتهم حزناً عليه.

يستغرب زين من إنصرافهم بهذه السرعة فيصيح بهم:

- إلى أين أنتم ذاهبون ؟

يتوقف "هُمام" مع نداء زين فيما لا يأبه الباقون له ويتابعون المسير، يستدير ويقترب من زين حتى يصبح أمامه مباشرة..

- لا عمل لنا هنا.. انتهى أمر "المنتقمين"..

يسأله زين بدهشة:

- وماذا عن فارس ؟
- فارس هو الشخص الذي كان يجمعنا سوية، جعلنا نعمل معاً لمصلحة الجميع، أجبرنا على أن ننسى اختلافاتنا.. عدا عن هذا فلا شيء يمكن أن يجعل هؤلاء الرجال يجلسون على طاولة واحدة مرة أخرى..
- ألا تريدون الانتقام له ؟
- الذي قتل فارس شخص شديد السلطة والنفوذ، لهذا يستحيل أن نقترب منه حتى لو حاولنا، الذي تجرأ على قتل رجل مثل فارس لن يتردد لحظة واحدة قبل أن يقتلنا جميعاً لو فكرنا مجرد التفكير في الانتقام.. لهذا كان قرارنا غير المعلن هو أن نترك المكان وننسى أي شيء يتعلق به..

زين يراقب الرجال وهم يركبون سياراتهم وينطلقون مبتعدين وقد بدا عليه الاستغراب والغضب في آن معاً.. يسأل همام بضيق:

- لم تخبرني كيف قُتل؟
- أليس الأمر واضحاً؟ لقد مات محروقاً!
- فهمت هذه النقطة.. كيف حُرق؟ وأين؟
- كانت سيارته مُفخخة كما يبدو، إنفجر المحرك واندلعت فيه النيران فيما هو عالق في السيارة، لست متأكداً للغاية من التفاصيل، ولكن هذا كلام من شاهدوا الحادث..
- حادث؟ لقد قتل، وبالتالي فهناك من هو خلف هذه الجريمة، ويجب أن ينال عقابه بأسرع وقت..

هز همام رأسه في أسى وهو يقول:
- لا يمكن أن أكون شريكاً في عملية كهذه، أنا آسف.
- بهذه البساطة ؟
- للأسف.. لا يمكننا أن نفعل شيئاً..
- يمكننا فعل الكثير..
- ولكن الانتقام ليس أحدها.. لقد أصبحنا في خطر داهم، كل واحد فينا، وأنت معنا بالمناسبة، لهذا لن يخاطر أحد بحياته وحياة عائلته من أجل ثأر مستحيل..

يخفض زين رأسه ويسأل ناظراً للأرض:
- من الذي قتله ؟
- يُستحسن ألا تعرفه..

يرفع زين رأسه لينظر إلى همام في غضب وهو يقول:
- كُف عن المماطلة وأخبرني قبل أن أقتلك!

كانت في عيني زين لمعة غريبة، تلك اللمعة التي كشفت لرجال العصابة أن مظهره البريء لا ينفي أنه يملك قلباً من حجر، وعقلاً حديدياً يستحيل تغيير ما بداخله مهما حاولت.. تراجع همام خطوة وهو يقول محاولاً التظاهر بالثقة قدر الإمكان:
- إنه الجنرال "بيتر".. هل سمعت به من قبل ؟
- كلا..

يضحك همام باستهزاء:
- إذاً فأنت لا تعرف شيئاً.. إنه أحد كبار رجال الجيش، وكذلك فهو من أكبر تجار الكوكايين والحبوب المخدرة في المدينة.. كانت هناك مشاكل قديمة بينه وبين فارس واليوم انتهت !
- وأين كنتم عندما انتهت المشاكل ؟!

يفهم همام مغزى سؤال فيجيبه مؤنباً:
- لا تلق اللوم علينا يا فتى.. ليس هناك مهرب من القدر، ولم يكن بإمكاننا فعل شيء..

- أتعني أنكم سلمتموه للموت دون مبالاة، ثم دفنتموه بأيديهم وتباكيتم عليه ؟ أليس كذلك ؟!
- حتى تبقى حياً في مجالنا هذا، يجب أن تسلم روحك للموت، حتى يبقى قلبك قوياً وخالياً من المشاعر، وإلا فلن تبقى حياً لدقيقة واحدة..
- إن كنتم مستعدين للسكوت عن ما حدث ونسيان دمه فأنا يستحيل أن أسكت..

عقله أصلب من أن يتزحزح عن فكرة ما أن تدخل رأسه، ويبدو أن همام رغم قساوة قلبه عجز عن تصديق أن هناك شاباً عنيداً لهذه الدرجة، لم يكن يبالي بمقتله طالما أنه سينفذ ما برأسه..

سأله همام بشك:

- وماذا بيدك أن تفعل؟
- سأفعل الشيء الذي تخافونه جميعاً..
- أتفكر حقاً بالانتقام ؟
- طبعاً..
- ألست خائفاً ؟
- عزرائيل لا يخاف !

يضحك همام وهو يرد:

- تعجبني عندما تتحدث عن نفسك بصيغة الغائب.. ولكن لا تنسَ يا عزيزي أن الجنرال "بيتر" لا يخاف من عزرائيل..
- ربما لم يكن عزرائيل السابق مخيفاً، ولكنني أعدك أنه سيرتجف من خوفه ويرجوني كي أتركه يعيش عندما يراني، ثم سأزرع رصاصة في منتصف جبهته كما يستحق..
- أنت حر.. ولكن علي تحذيرك، أنت لست بقوة الجنرال، لهذا تأكد أنك تلعب بعداد عمرك عندما تفكر في إيذائه..

- أنا لا ألعب بعداد عمري، مهنتي القتل وقبض الأرواح، ولا أحد محصن من عزرائيل..
- حسناً.. سنرى.

يرد زين بثقة واضحة:

- سترون وستسمعون..

يومئ همام برأسه غير مصدق لما يسمع، يستدير ويمشي بضع خطوات ثم يستدير لزين ويعود له وقد بدا أنه قد تذكر شيئاً..

- نسيت أن أخبرك أن فارس قد ترك لك كل أملاكه.. القصر وفندق بارادايس، والكثير والكثير من الشقق والحصص في عشرات الشركات، عدا عن الأموال التي خبأها في القصر وتلك الموضوعة في البنك..

زين يبدو مستغرباً مما يسمع، يخفض رأسه بأسى فيما يواصل همام الكلام عن فارس:

- كل هذه الأشياء باتت ملكك الآن.. أنت تعرف أنه أرمل وليس لديه أي أولاد أو أقرباء.. كان وحيداً، وكان يحدثني كثيراً عنك.. كان يحبك كثيراً.. كان يعتبرك مثل الابن الذي لم يحظ به قط.. لهذا يمكنك أن تعيش امبراطوراً لبقية حياتك وأنت تتنعم بملايين الدولارات.. هذا طبعاً إن كنت ذكياً كفاية ولم تفكر بالانتقام له..
- كل ما قلته يزيدني إصراراً على ألا يضيع دمه سُدى..
- كما تريد..

يربت همام على كتف زين وهو يردف:

- انتبه لنفسك..

يهز زين رأسه بلا مبالاة فيما يستدير همام ويمشي مبتعداً..

يعود زين للقبر ببطء ويقف أمامه، ينظر له وفي عينيه وعيد وغضب.. كلاهما غاضبان.. زين وعزرائيل على السواء.. وقد قررا أنهما سينتقمان له ولو بعد حين.. وبالانتقام نعني أن يستلم عزرائيل مقاليد الحكم في جسد زين لعدة ساعات، فزين عاجز

عن القتل لأي سبب كان، وإن كان يؤمن أن الجنرال يستحق الموت..
سيُصب غضب عزرائيل على الذي تجرأ وسَلَب منه شخصاً يُكن له زين الحب، وهذا الغضب يعني الهول ولا شيء غيره.

دخل زين للقصر من الباب المفتوح وأغلق الباب خلفه بهدوء، إستدار بعدها لينظر حوله بحسرة قبل أن يقترب من الطاولة التي كانت عليها جثة فارس قبل أقل من ساعة، مد يده ليلمس قطرة من الدم غفل عنها الرجال، ورفع اصبعه الملوث بالدم أمام عينيه بغيظ شديد..

صعد السلالم ببطء إلى غرفة فارس، فتح باب لغرفة وضغط زر النور لينظر لمحتويات الغرفة ببرود غريب.. إقترب من السرير وجلس عليه وقد بدا أنه يعاني من صراع داخلي..

يمكنه أن يحصل على كل ما يحلم به، يمكن أن ينسى حياة الإجرام هذه ويواصل حياته بسعادة مع ملاك، يمكن أن يتزوجها ويعيشا بقية حياتهما دون أن يفكر أي منهما في العمل ليوم واحد، وضعه الحالي يسمح له بالبقاء بجوارها دون أن يفكر بالمال حتى..

ولكن هذه السعادة على حساب دم فارس..

الحيرة أقل ما يمكن أن نصف به حالته، عزرائيل وزين يتجادلان في جسد زين الساكن تماماً، وكل منهما يلقي بوجهة نظره في وجه الآخر محاولاً إقناعه..

المشهد داخل رأس زين كان غريباً، كانا يجلسان على طرفي طاولة كطاولات التحقيق، هناك ضوء فوق زين يظهر ملامحه بوضوح، أما عن عزرائيل، فلا ضوء يمكن أن يكون كافياً ليظهر ملامحه لشدة قباحتها والسواد الذي يطفح منها، وإن كانت عيناها الحمراوان تلمعان في الظلام وأسنانه البيضاء الحادة تعكس النور لتزيد شكله غرابة وإخافة..

كان زين متردداً في رأيه..

- يمكننا أن نعيش بقية حياتنا بسعادة.. يمكنني أتزوج ملاك وأخرج من هذه المدينة أخيراً..

وكان عزرائيل مصراً على رأيه بشدة..

- تريد الزواج منها لتضعني في الجانب المظلم من عقلك، كي تبقى بجوارك دائماً وتمنعني من الظهور، أليس كذلك ؟ هذا في أحلامك يا صديقي..
- سنجد طريقة تظهر فيها في وجودها.. كل شيء ممكن مع الوقت.. فقط أعطني فرصة.
- هذه الفتاة تحبس أنفاسي يا فتى، وليس بالمعنى الجيد. كيف تريدني أن أتخيل نفسي متحكماً بجسدك فيما هي قريبة مني..
- ولكنك لن تضطر للقتل من أجل المال بعد اليوم..
- لم أقتل أحداً من أجل المال، أنا هنا من أجل التطهير.. سأنظف هذه المدينة من القاذورات المتراكمة في كل شارع من شوارعها..
- هذه المدينة ستبقى قذرة مهما فعلت.. لن يمكنك تغيير هذه الحقيقة.. إنها تفوح برائحة الخطيئة من على بعد مئات الكيلومترات، أتحسب تنظيفها بهذه السهولة؟

إبتسم عزرائيل في وعيد وهو يقول:

- إن كانت القذارة ملتصقة بهذه المدينة، فسأرمي بالأسيد عليها لأحرقها بمن فيها، سأقتل هؤلاء الجراثيم جميعاً عن بكرة أبيهم.. بالمناسبة، لا أصدق أنك تحاول إقناعي بعدم الانتقام لفارس، ألم تقل أنه يذكرك بوالدك المتوفّى ؟ كيف تسمح بأن يضيع دم أبيك بهذا الشكل؟
- أنا أحب فارس. ولا يمكنك أن تفعل شيئاً لتحاول اقناعي بالعكس، ولا تحاول إقناعي بأنك تحبه أكثر مني، أنا أعرفك أفضل من أي شخص آخر، وأعرف أن لا مكان في قلبك للحب وغيره من المشاعر البشرية.. إن أفضل

ما يمكن أن تفعله لشخص ما هو أن لا تكرهه، عدا هذا فأنت غير قادر على أن تحب أحداً. أفهم وجهة نظرك ولكن يجب أن تفهم وجهة نظري كذلك.. أنت توشك على الدخول في حرب شعواء مع أحد أكبر رجال الدولة، هذا الرجل يمكنه تحريك جيش ضدك إن أراد.. هل تستطيع الوقوف في وجه جيش ؟

- كل جيوش العالم عاجزة عن إيقافي.. أنا عزرائيل !

وكالعادة كانت الغلبة لعزرائيل، صاحب اليد العُليا الملوثة بالدماء.. وكأنه يستحيل على زين اقناعه بأي شيء..

قال زين باستسلام:

- حسناً، إن كنت مصراً على الانتقام فيجب أن نفعله بطريقة تبعد عنا أي شبهات، سنفعلها كما فعلناها عندما قتلنا زياد.. بتروي وحذر..
- موافق.. والآن سنبدأ بجمع كل المعلومات اللازمة عن الجنرال، سندرس نقاط ضعفه وقوته حتى نعرف اللحظة الحاسمة التي سنضرب فيها ضربتنا..

بعد أسبوعين..
تراصت مئات الأوراق وعشرات الملفات فوق الطاولة الكبيرة التي تتوسط الصالة، وعدة زجاجات مشروب فارغة وكأس انتصف محتواه، زين جالس على أحد الكراسي وعيناه تنتقلان بين الكلمات المتناثرة فوق الورقة بين يديه وفي يده سيجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد بدا أن زين قد نسي أنه قد أشعلها حتى.. لو رأينا المشهد بحق لوجدنا أن زين لم يكن وحيداً، فوق كتفيه يقف عزرائيل بشكله المرعب وهو يقرأ من الورقة في اهتمام، كانت هذه بطاقتهم الرابحة للحصول على انتقامهم أخيراً..
السيجارة تحرق يد زين دون أن يشعر حتى، ينتبه عزرائيل لما يحدث، يرفع يده المشعرة لنرى الدخان يتصاعد من أصابع عزرائيل، يضحك الأخير ويقترب من زين ليهمس في أذنه:
- أنت تحترق يا صديقي !
ينتفض زين مع شعوره بالنار التي تحرق أصابعه، يمسك بيده بألم ثم يغمسها في كأس النبيذ في محاولة لإيقاف الألم.. يضحك عزرائيل بشدة ويجلس على الجانب الآخر من الطاولة، فيما يخرج زين أصابعه من الكأس ويقوم بتجفيفها بمنديل قماشي.
يشعل زين سيجارة أخرى وكأنه لم يتعلم الدرس بعد، ويجرع محتوى الكأس دفعة واحدة.. يلقى نظرة سريعة على الطاولة ليلاحظ أن جميع الزجاجات فارغة، ينهض بسيجارة متدلية من بين شفتيه ويختار زجاجة نبيذ أخرى بعد أن يتفحص تاريخها بعناية.. يعود للطاولة ويضع الزجاجة وهو يجذب أنفاس سيجارته بعصبية، يمد يده ليبحث بين الأوراق ثم يتناول صورة مدفونة تحتها، كانت صورة رجل في أواخر الأربعينات من

عمره، بشارب كث وعينين غائرتين في وجهه، يرتدي قبعة كرعاة البقر، ويبدو أن الصورة مأخوذة خلسة..
يتأمل زين الصورة بتركيز وهو ينفث دخان سيجارته بحنق واضح، ثم يقرب طرف السيجارة المشتعل نحو الصورة ويحرق وجه الرجل بها لتخترق السيجارة الصورة للجانب الآخر منها..
رفع زين رأسه بعدها نحو عزرائيل وهو يسأله:

- هل أنت جاهز ؟

رفع عزرائيل قدميه اللتين تشبهان أقدام الماعز فوق الطاولة، ونفث دخان السيجارة الذي جذبه زين إلى رئتيه قبل أن يجيب في حزم :

- لا أعتقد أنني كنت جاهزاً هكذا في حياتي..

في اليوم التالي..
الشمس تضرب وجه زين النائم على السرير في غرفة النوم الرئيسية التي كانت أصلاً لفارس، وعلى جانبه يجلس عزرائيل، في المنطقة التي لا تصل إليها الشمس من السرير، كان الملل بادياً عليه وعيناه تتحركان كل حين وآخر نحو الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط وكأن الوقت لم يحن بعد، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً إلا بضعة دقائق، يزفر عزرائيل بعصبية وهو يمسح على وجهه المغطى بالحروق وكأنه يحاول الحفاظ على تركيزه، ثم يهمس دون أن يتحرك:

- استيقظ !

يفتح زين عينيه دفعة واحدة مع الصوت النابع من داخله، ينظر لعزرائيل وثم للساعة ويقفز ليخرج من الغرفة سريعاً، يرخي عزرائيل جسده ليستلقي على السرير ولكنه ينتفض قافزاً بسرعة مع ملامسة أشعة الشمس لجسده، ينهض مُجبراً ليقف في منتصف الغرفة منتظراً في تململ وترقب..

يعود زين للغرفة مرتدياً ملابس جلدية ثقيلة، وقبعة سوداء، يمشي نحو الخزنة التي تحتوي الأسلحة، ويتبعه عزرائيل، يفتح زين الخزنة ليدخلا إليها، يقف الاثنان دقيقة وهما يتأملان الأسلحة وكأنهما ينظران للوحة فنية جميلة.. كانا يختاران أسلحتهما لهذه المهمة ..

يأخذ زين مسدساً صغيراً ويرفع بنطاله ليثبته في جراب فوق كاحله، ثم يحمل مسدساً آخر ويضعه في جيب خاص في المعطف السميك، يتجه نحو قناصة كبيرة في وسط الحائط، يحملها بين يديه متأملاً تفاصيلها ثم يستدير لعزرائيل فيبتسم له الأخير وهو

يومئ برأسه، مؤكداً أن هذا هو السلاح المناسب لمهمة مثل هذه..

يضع زين القناصة في حقيبة تشبه الحقائب المخصصة للجيتار ولكنها معدلة كي تستوعب قناصة بهذا الحجم، يغلق زين الحقيبة ويضعها على كتفه، يستدير لعزرائيل قائلاً:

- هذه القناصة ستعزف اليوم سيمفونية شديدة الجمال، تُسمى "الانتقام"، تلك السيمفونية التي كنا ننتظر سماعها منذ زمن طويل، ولأنها تأخرت علينا كان لابد أن نتعلم كيف نعزفها سوية.. وفي حفلتنا الخاص لهذه السهرة، ستكون أنت العازف الرئيسي في هذه الأوركسترا الدامية..

الميناء .. موقع إنزال البضائع.
الساعة التاسعة صباحاً.
كان الجو متجمداً، والشمس تكاد تكون بلا فائدة مثل مصباح البراد، فهي ضوء بلا حرارة حالياً.. ووسط هذا الصقيع يقف عدد كبير من الرجال بجوار سيارات سوداء وقد بدا أنهم ينتظرون شخصاً ما في موعد، يحمل كل منهم سلاحاً رشاشاً ويحيطون بسيارة معينة من السيارات.. ثم تظهر عدة سيارات أخرى من بعيد وتتوقف أمام سيارات الرجال، ويهبط منها عدد من الرجال المدججين بالسلاح كذلك، يسرع أحدهم نحو أفخم سيارة بينها ويفتح بابها ليهبط رجل يبدو أنه زعيمهم..
كان هذا هو الجنرال، بقبعته المميزة، وبذلته الفخمة ومعطف الفرو الأسود الذي يضعه على كتفيه.. في نفس الوقت يسرع رجل من المجموعة الأخرى ليفتح باب السيارة التي يحيط بها الرجال ليخرج منها رجل أشقر قصير القامة، يقترب الرجل من الجنرال ويتصافحان..
- تشرفت بمقابلتك أخيراً أيها الجنرال.
كان الرجل يتحدث بلكنة أجنبية، يهز الجنرال رأسه دون اهتمام ويسأله:
- أين هي البضاعة ؟
يفتح الرجل فمه ليرد عندما يلاحظ نقطة حمراء على رأس الجنرال، يتجمد وهو يرد بتردد:
- البضاعة موجودة، ولكن..
ينظر الرجل للنقطة الحمراء باستغراب وقد بدا أن الجنرال لم يفهم ما يعنيه بنظراته حتى الآن.
يسأله الجنرال باستغراب:
- ما الأمر ؟

لم يكد الجنرال ينهي الجملة حتى اخترقت رصاصة رأسه ليسقط جثة هامدة على الفور، يتحفز الرجال جميعاً دفعة واحدة وهم يلقمون أسلحتهم ويصوبونها في جميع الاتجاهات، ويسرع ثلاثة منه ليحموا الرجل الأشقر دون أن يفهم أي منهم ما يحدث..
وفي نقطة بعيدة للغاية كان زين قد ثبت القناصة وهو يراقب ما يحدث بعينيه، وقد بدا أنه لم يكتفي بعد، وكأن ضحية واحدة لا تكفي انتقاماً لمقتل فارس.. فيطلق زين رصاصة على أحد رجال المجموعة الأولى، ليبدأ الرجال حينها بتصويب الأسلحة نحو بعضهم في توتر.. يلقم زين القناصة مجدداً ليطلق رصاصة أخرى على الرجل الأشقر ليسقط قتيلاً على الفور، وكان هذا كافياً ليستنفر الرجال وهم يطلقون النار على بعضهم..
يتوقف زين عن إطلاق النار وهو يراقب الرجال وهم يقتلون بعضهم بوحشية، وجثث العصابتين تتساقط حول جثتي زعيميهم.. وكانت دقيقة من الزمن أكثر من كافية كي لا يبقى رجل منهم واقفاً، يعود زين لينظر عبر المنظار ليتأمل كل جثة على حدى، يلاحظ أن أحد الرجال لا يزال حياً فينهي أمره برصاصة في الرأس، ثم يدور بالمنظار حتى يصل للجنرال، يصوب على عينه اليمنى ويطلق رصاصة لتحفر جمجمته، ثم يطلق رصاصة أخرى على عين الجنرال اليسرى.
يتأمل زين شكل الجثة النهائي بتشفي ثم يعتدل وهو يحمل القناصة بين يديه، يرفعها لشفتيه ويقبلها ثم يرفع رأسه للسماء وهو يقول برضا:

- لقد أخذت بثأرك يا فارس..

بجواره يقف عزرائيل الذي يحاول تمالك نفسه كي لا يضحك ولكنه لا يستطع، فينفجر ضاحكاً بكل قوته في ضحكة مُستفزة للغاية، يستدير زين نحوه باستغراب وهو يسأله:

- لم تضحك؟

يرد عزرائيل سريعا، مبرراً موقفه في عذر يستحيل أن يكون أقبح من ذنب ضحكة بهذه الشناعة :

- أنت لم تأخذ ثأر أحد، أنا من ضغطت الزناد.
- المهم أن روح فارس ترقد الآن بسلام.

يضحك عزرائيل مجدداً وهو يقول:

- هل تعتقد حقاً أن روحاً مثل فارس ترقد الآن في قبرها بسلام ؟
- ولم لا ؟ ما الذي يضحكك لهذه الدرجة ؟

يتوقف عزرائيل عن الضحك ويشير للسماء وهو يرد:

- ما يضحكني لهذه الدرجة هو أنك كنت تنظر للسماء وأنت تتحدث مع روح فارس..
- وما الخطأ في هذا ؟
- لا تخبرني أنك تعتقد أنه الآن في الجنة ؟!
- أينما كان.. لابد أنه قد شعر ببعض الراحة..
- حسناً. فلتقتنع بما تريد، والآن فلنذهب من هنا قبل أن تفوح رائحة الجثث!

يثبت زين القناصة في الحقيبة ويضعها على كتفه ليخرج من المكان بابتسامة على وجهه..

لقد نجح في إنتقامه، وإن كان شعوره أقل مما توقعه، كانت هذه هي المرة الثانية التي يقوم فيها بجريمة قتل لأسباب شخصية، خاصة أن مقتل أمه لا يزال مجهول الفاعل، ولا يزال يؤرقه كل ليلة في نومه وهو يتخيل أن القاتل لا يزال حياً يُجرِم!

كلمات فارس الأخيرة تتسارع في رأس زين، وكأن فارس كان يشعر بأنها المرة الأخيرة له معه، فكلماته كانت تحمل آلاف المعاني في آن واحد..

- " أتمنى لو كان بإمكاني البقاء معك حتى العشاء، ولكني لدي موعداً لا أستطيع التأخر عنه."

كانت هذه عبارة فارس الأخيرة تقريباً، لم يعرف حينها أن موعده هذا سيكون مع عزرائيل الحقيقي، يا للسخرية، آخر شخصين رآهما في حياته هما عزرائيل وعزرائيل!
لقد انتهت هذه المهمة كما خطط لها، رغم يقينه من أن تبعاتها ستلاحقه لسنوات، ولكنه لم يكن يبالي، سعادته وشعوره بإنجازه كانا كسراب فوق عينيه كي لا يرى الفظائع التي ستحدث له بسببهها..
يتبقى له جرحان، الإنتقام لأمه، وملاك.. النزيف كان حاداً، ولولا كمية الدماء التي سكبها ليُغطي على ما فقده لمات منذ زمن..
سيمفونية الإنتقام عُزفت بإمتياز اليوم، والآن يريد الإستماع لموسيقى رومانسية بجوار ملاك في غابة خضراء والنار أمامهما تُدفئ لحظة تطفح بالحرارة.. كانت أحلامه بعيدة المنال، ولكن رأسه الحديدي لم يكن قادراً على التراجع قبل أن ينالها!

الفصل الرابع عشر
عزرائيل عاشقاً !

مر أسبوع على الرسالة ولا زالت ملاك عاجزة عن فتحها، وضعتها فوق طاولة الطعام لتراها كلما تنقلت في المنزل، ولم تملك القدرة على فتحها حتى الآن.. ما زال جرحها جديداً، تنتظره كي يلتئم قليلاً، وكانت خائفة من أن تطعنها الرسالة في مقتل، فتعود إليه بعد أن قررت الرحيل.
لا يكسرها سوى أنه أحبها بصدق، هذا يعني أنه يملك جانباً طيباً، وإن كان هذا الجانب ضعيفاً وخجولاً، ولكن هذا لا ينفي وجوده.. أما عن الجانب الآخر، أو الجانب المظلم كما تُسميه، فهو لم يظهر في وجودها إلا في ساعات الخطر، لم يظهر زين القوي إلا حين تعرضت هي شخصياً للأذى، ولا يمكنها أن تنسى ما حدث عندما هاجمه شارل ورفاقه، وكيف شعرت بضعفه الغريب في وجودها، ذاك الضعف الذي سألت نفسها عن سببه مئات المرات دون أن تملك جواباً حتى الآن.
ولكن كيف لها أن تُسامحه بعد كل ما فعله؟
كانت تسأل هذا السؤال بكثرة.. وكان هناك صوت ضعيف في داخلها يقول لها بأنه لم يفعل شيئاً لها، لم يجرحها قط، ربما مزق العديدين بسكينه، ولكنه لم يترك بصمة إصبع فوق جسدها،بل لم يكن يجرؤ على لمسها وكأنه يرهب الإقتراب منها أكثر من اللازم..
خجله في وجودها، وتردده في الإقتراب منها في حين أنه زير نساء سابق يؤكد لها أن قلبه مال نحوها وأنه يراها بعين فؤاده.

جلست إلى الطاولة وهي تنظر لوجبة شهية من كلمات زين في مظروف منفوخ يحتوي على العديد من الصفحات كما يبدو، أمسكت به وفتحته بتردد، فاح عطر مألوف، رائحة زين التي لا يمكن لملاك أن تُخطئها بعد أن باتت ليلة كاملة وهي تحيط بها..
فتحت الصفحة، وأخذت نفساً عميقاً دون أن تجرأ على النظر إليها، جمعت طاقتها وبدأت تقرأ بسرعة وكأنها تريد أن تلتهمها:
"صباح الخير يا ملاكي.. صباح الخير وإن قرأت رسالتي هذه مساءً.. طالما أنت مستيقظة، فالنور ولابد يعم المكان بأكمله!"
كانت هذه هي العبارة الأولى التي استهل بها زين رسالته، إبتسمت رغماً عنها لمغازلاته التي لا تنتهي حتى حين تكون غاضبة عليه لهذا الحد، كانت بداية مُشجعة، ولكن الآتي كان ينحدر نحو قاع مظلم:
"أعتقد أنك تكرهينني الآن، تسألين نفسك كيف أحببت شاباً بهذه المواصفات؟ وتشككين في كونك تعرفينني، وفي الواقع، لا أحد يعرفني، ولا حتى أنا.. حياتي الحالية غريبة للغاية.. نوم خالٍ من النوم، وحياة خالية من الحياة، إبتسامات خالية من السعادة، وكف خالٍ من كفك، وذراعان لا يحيطان بكِ، وقلب ممتلئ بكِ..
متعب للغاية، أشعر بتنميل في يدي الممدودة نحوك محاولاً الوصول إليكِ دون جدوى، أنتِ بعيدة عن العين، ولكنك الوحيدة التي أراها بعيني، والأقرب لقلبي.. تعبت من الكذب والتظاهر بأنني بخير، أنا لست بخير، أنا بجهنم، أنا بنار، أنا بعيد أشد البعد عن أن أكون "بـ خير"، أنا غريب في أرض لا أعرف فيها أحداً،.
أحاول التنقيب في خلاياي لأعرف سبب هذا الشعور، لكنني عاجز عن إيجاد سبب منطقي لكل هذا الحزن والقلق والتوتر، لهذه الغصة، ولهذا النوم الكثير الذي أهرب به من الحياة، والذي يفترض أن أهرب منه لأواجه مشاكلي الحقيقية.. أشرب قهوتي، وألتهم البقايا الباردة لوجبة عشائي يوم أمس، وأدخن كقطار

يعمل على الحطب، يُفترض أنني اعتزلت السجائر، ولكنني لم أستطع، لا يمكنني اعتزالها في الحين الذي اعتزلت الجميع فيه، على الأقل هي شيء ملموس.. على الأقل هي مستعدة لأن تحترق في سبيل أن يتحسن مزاجي قليلاً!

يا لي من أناني.. ها أنا أستفيض في الحديث عني أنا، وأنسى الحديث عنا نحن.. نحن اللذان جمعتنا المصادفة، وكانت الراعي الرسمي لكل شيء مُتشابه.. كان هذا قبل أن نُدرك أنها ليست مصادفات.

هذا قدر، ورغم الإنطباعات الغريبة التي قد تدور في رأسك عني، إلا أنني أؤمن بالقدر.. وكإيماني به، فأنا مؤمن بنا.. لدي يقين بأنني سأمسك يوماً بيدكِ المزينة بخاتم ذهبي يحمل حروفاً من اسمينا، في بيتنا الصغير المُنار بشمعة حب لا تنطفئ، وسنتذكر كل ما مررنا به كي نصل لما نحن عليه، سأحتضنك طوال تلك الليلة كما فعلت في الليالي السابقة، وكما سأفعل في الليالي التالية، لا أؤمن بالخرافات.. أؤمن بالمستحيلات السبعة التي سأكون مستعداً لتحديها كي نكون معاً.. سأهديك قلبي ولقبي وكُلي ولن أطالب بأكثر من الحب والقبلات في المقابل..

وكذلك، أؤمن كلما رأيتك أنني أوفر رجال الكوكب حظاً، وأتساءل عندما أرى عينيكِ، كيف يتسع العالم لكل هذا الجمال؟

لن أترك يديكِ، هذا وعد، سأتمسك بكِ طالما أنك تريدينني بجوارك، وأنا مُتأكد أن يدكِ كانت لتكون في يدي لو لم أخبرك بالحقيقة، لقد خبأتها عنك طويلاً واعتقدت حينها أن الوقت قد حان لأكشفها لكِ.. أنتِ تستحقين أن تكوني في علاقة مع شخص تعرفين عنه من الداخل أكثر مما يُظهره لك، أنا فنان في التمثيل لو لم تعرفي، والآن سأتجرد من كل النصوص التي كتبتها لنفسي لأؤديها أمام الحضور، وسأكشف لك عن الحقيقة الكاملة.. ولا شيء غير الحقيقة!

في داخلي متوسط من ثلاثة إلى خمسة أشخاص.. الأول لطيف، كثير الضحك، كثير الهموم، ممثل يستحق أوسكار بجدارة، ها هو مستمر في الدور ذاته بنفس الثبات منذ سنين دون أن يخرج منه إلا عندما يكون دفتر المذكرات مُتربعاً أمامه، حينها، وحينها فقط، سيكشف عما يختلج في قلبه من أوجاع وشظايا.. الشخص الثاني خجول ونزق الطباع، كلما حاولت التهوين عنه عبس وتولى!
هناك شخص ثالث كذلك، ذكرته أخيراً رغم أنه الأقوى والأشد سطوة، يُسمي نفسه "عزرائيل"، ولا يملك القدرة على الإحساس إلا بالغضب، هذا الذي يحاول الإثنان تهدئته، ولكنهما عاجزان أمام جبروته، محاولتهما في كبت غضبته لا تذكرني إلا بمحاولة إطفاء بركان بكوب ماء؟!
هؤلاء هم أطراف الحرب العالمية الكامنة.. ذكرت منهم ثلاثة ولم أذكر منهم من أنا.. وحتى أنا لم أعد أجيد تمييز نفسي من بينهم، لقد أضعت هويتي، تركت نفسي لهؤلاء الثلاثة الذين يدعون أنهم يريدون مصلحتي، ومصلحة جسدنا العظمى هي ألّا نرى نظرة شفقة من أحد، أو نطلب المدد من مخلوق.. وإن حدث واضطررنا لفعل مثل هذا، فسأحكم عليهم جميعاً بالإعدام دون رحمة، ودون تردد..
هل ما زلت تريدين مواصلة القراءة بعد كل ما ذُكر، أنتِ فتاة رقيقة يا ملاك، ولست متأكداً إن كنت توقفت عن القراءة منذ أول فقرتين، ورغم شكوكي سأتابع الكتابة، لعل وعسى أن تستجمعي قوتك لتتابعي القراءة، لأنني لن أدع شيئاً أخبئه عنك بعد نهاية هذه الرسالة.
كل ما أريده منكِ هو أن تثقي بي، لا تدعي ماضي وحاضري الأسودين يخيفانك، لم أمسسك بسوء قط، ولن أفعل.. أريد منك أن تتعاملي معي وكأنني كتفك الثالث الذي يمكنكِ أن تتوسديه وإن كانت بيننا حرب نووية دون أن تعتذري، لا معنى لإعتذار

في شريعتي طالما أن قلبي يعذرك ويسامحك قبل أن تعتذري حتى!
لكن دعينا نتفق على نقطة واحدة، أنا لست فتى الأحلام، لست فارساً ولا أجيد امتطاء شيء عدا الكلمات..
تذكرين تلك العبارات التي أخبرك إياها من كل قلبي، والتي كنتِ تتهمينني بعدها بأنني أجامل، وتلك التفاصيل التي شاركتها معكِ في حين أن مخلوقاً آخر لا يعرف بها، بعيداً عن الكلام الكثير والإسهاب، سأحاول أن أثبت لك حبي بطرق مختلفة، بوسائل لا أملك خبرة فيها كتلك التي أملكها مع الكتابة، سأدع العناق الدافئ بيننا يستمر طويلاً، ولن أكون أول من يفلت، ستشعرين بما في داخلي عندما تسمعين دقات قلبي وهي تعزف لك كطبول في حفلة صاخبة..
سأدع البيت يسقط على رأسي، لا مانع، ولكنني لن أهرب وأتركك فيه وهو يحترق، سأنتشلك من الظلمة إلى النور، وإن لم أستطع فسأشعل أصابع قلبي العشرة شموعاً لتضيء عتمتك!
أشعر بعجز وقحط.. لا كلمات تُسعفني لأقول أكثر.. سفينتي التي كنت أشبهها بسفينة نوح، لم تعد قادرة على الإبحار في بحور اللغة حتى، وكأنني لا أجد حروفاً كافية لوصف شعوري في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذه الكلمات بنصف عين يحترق بدخان سيجارتي والعين الأخرى لا تريد الإستيقاظ على واقع من الشك..
لقد مللت، مللت من النوم كل ليلة وأنا لا أعرف إن كنت تفكرين بالموضوع أم أنكِ قد تركتيني أنتظر حتى إشعار آخر.. التفكير متعب، ولكن الإنتظار أحقر بكثير..
أنا آسف لأنني لم أكن الشخص الذي طلبتيه، ولكن هذا أنا، بكل أسف وصراحة، وأتمنى كل يوم لو كنت قادراً على التغيير، ولكنني عاجز عن فعل شيء كهذا!
أنا ملعون، هذه اللعنة تسلب مني كل من أحب.. أنا سيزيف، وأنتِ صخرتي التي سأدفعها لقمة الجبل إلى الأبد، وإن أفلت من

بين يدي فسأعود للقاع لأحملك معي مجدداً، أنتِ لعنة كذلك يا ملاك.. الحب في مدينة كهذه ما هو إلا لعنة، أن يكون لكِ قلبٌ ينبض في أرض القلوب المتحجرة هو الجرم الأكبر، والذنب الأكثر خطراً!
أنتِ لعنتي التي سأصر على التمسك بها.. أنتِ خطيئتي التي ينأى ظهري لحملها، وأنتِ طهري الذي قرر التشكل في شكل صخر!
ولكنني كذلك هزيل ولست كما رسمتني الأسطورة، القوة اللازمة للوصول للقمة يملكها عزرائيل فقط في هذه الأرض، والمذكور هو الوحيد الذي يستحيل أن يمسك بيديك قط!
لست كيس ملاكمة بين يديك، تضربينني بيدك اليمنى وأعود طوعاً لأتلقى لكمة أخرى باليسرى.. ولست وسادة عاطفية كذلك، تفرغين فيها غضبك وتصبين عليها سخطك.. أنا كتف، وبيت أسرار، وأم، وأب، وأخ، وصديق، وحبيب، أنا كل هؤلاء عندما تحتاجين إليهم، وأنا الفاقد لكل ما ذكر عندما أحتاجهم..
بإختصار.. أنا فاقد الشيء الذي يعطيه للآخرين بسخاء!
إعذري تناقضي المنسكب فوق الأوراق، وخطي السيئ، أنا أكتب بعينين ممتلئتين بالدموع، من الجيد أنني أرى الصفحة حتى!
أخبرتك سابقاً أنني أغرق، وأنكِ حبل النجاة، لا تدعيني في غيابة البحر، ومُدي يدك لتنتشليني من أوجاعي وشروري..
أتذكر أنني كنت أنساق كل يوم في غيابك إلى المقهى الذي التقينا فيه أول مرة، كالمنوم مغناطيسياً، وفي داخلي نزاع بين قوتين، أنا وعزرائيل، وكنت أربح الصراع بمجرد ذكر اسمك، فيكون لهذا الاسم مفعول كالسحر، ليتوارى عزرائيل من بعدها تاركاً زمام الأمور لي أنا.
حاولت دفعك بعيداً، لابد أن أعترف، ولكنني الآن أدركت أن لا مناص من المشاعر التي في قلبي اتجاهك، ماضيَّ الأسود، وذكرياتي المقيتة الدامية، وذلك الشيطان الذي يسكنني،

سيدفعونك بعيداً عني يوماً ما، ولكن السؤال الدائم كان متى سيحدث هذا ؟
وحدث ما لا يُحمد عقباه، وذهبت بعيداً عني.. ولذا قررت أن أخبرك بسيرة ذاتية قصيرة في هذه الرسالة.. سأحكي لكِ قصة شاب طبيعي، كل ما أراده هو الحياة في مكان مُسالم، ولكن هذه الأرض لا تتسع ليوتوبيا، وقلوب البشر ليست مُهيئة لبناء مدينة كهذه بكل تأكيد..
عندما دخلت لعالم الإجرام، كنت قد أقسمت أنني لن أخرج قبل أن أهدمه على رؤوس ساكنيه، لم أكن أعرف أنني أهدم أعمدة البيت الذي أتربع على عرشه، وأن النهاية ستكون بأن يسقط بأكمله فوقي على مبدأ "عليَّ وعلى أعدائي".
كتبت لي أمي في ورقة أقرب ما تكون لرسالة الإنتحار:
- "هذه رسالتي التي أكتبها بأصابعي المرتجفة الملوثة بدموع حمراء.. جفت مدامعي فأصبحت أبكي دماً"..
وها أنا أكتب ذات الرسالة الدامية، لشخص أعتبر نفسي وصياً عليه، وأخاف عليه كخوف الأم على ابنها..
لن أذكر المزيد من هذه الرسالة لأن حروفها مطبوعة في قلبي، محفورة فيه بسكين حاد إن أردتِ الدقة.. نحن البشر كائنات هشة للغاية، قد ترفعنا كلمة لعنان السماء، وقد تهوي بنا لأسفل السافلين.. تصوري أن الكلمات قادرة على قتلنا وجرحنا، وإحيائنا، لا أستطيع تخيل شعور الخنجر إن كانت حروف قادرة على إيذائنا بهذا الشكل!
حسناً لا تأخذي عني فكرة الشاب الرومانسي المُغازل، القادر على حياكة السطور كما يريد، أنا ضعيف وقلمي شحيح، استغرقتني هذه الرسالة عدة أيام وبضع ليالي والكثير من الدموع..
حروفي ليست بالبراءة التي تحسبينها، ولكنها صادقة.. وكلماتي قاسية ولاذعة، لا تدعي كثرة حروف العطف تخدعك!

رغم كل ما سبق، إلا أنني عاجز عن البوح، سيكون عليكِ أن تتحسسي قلبي لتري الجروح والندوب، لتشعري بالدم الهارب في نزيف داخلي مرير، لا أعتقد أن أحداً سيمكنه الوصول لهذا العمق غيرك.
أنا خطير ومؤذٍ للغاية، مثل تنين مصاب بالزكام، أو أسد جريح.. حساس كفقاعة قد تنفجر دون لمس، وأخيراً، أنا الآن مفضوح تماماً أمامك كجرح مفتوح، أو وجه محروق !
أعتقد أن الوقت حان لأتوقف عن الحديث.. إن كنتِ ستغيرين رأيك فقد لا تكونين بحاجة لكل هذه الرسالة.. ولكنني سأكشف لكِ سراً قبل أن أغمد قلمي في غطائه، صحيحٌ أنني لا أحب تخريب النهايات على أحد، ولكنني سأقوم باستثناء خاص من أجلك فقط، في نهاية هذه القصة التي تلعبين دور البطولة فيها، كل شيء سيكون على ما يرام، وستكون الخاتمة أجمل من كل توقعاتك..
ويا قطتي المدللة، إن داهمتك الأوجاع، وشعرتِ إنكِ محاصرة، فأنا قافلة سلام مُحملة بالحب الخالص لكِ ولقلبكِ، ورتل عسكري من المشاة المدججين بالسلاح في وجه الحياة.. وأخيراً، إن لم ينفع كل ما سبق، ونفذت منكِ الأرواح، فأنا روحك العاشرة!
وفي النهاية، أعرف أنكِ انتبهت لنقطة بعد كل هذا الكلام الطويل، ليس شيئاً قلته، بل هو شيء لم أقله.. لذا أهديك أقصر كلمة في الأبجدية، وأكبرها معنى في القلوب.. أهديكِ تلك الكلمة الثقيلة على اللسان، من حائِها للباء، حبٌ لكِ، وأنتِ الحب !
المرسل: تعرفين من!"
وانتهت الرسالة التي استهلكت من ملاك الكثير من الوقت، والكثير من المشاعر التي خرجت على هيئة دموع.. قد تكون طويلة، ولكنها كانت تشعر بصدقها، كلماتها تُطمئنها رغم أن بعضها يحوي الكثير من الرعب والفظائع التي لا ينكر القيام بها..
لم يودع اسمه في نهايتها ليقينه بأنها ستعرفه، ومن غيره يعرفها في المدينة، ويضع رسائل تحت بابها؟

الآخرون لن يدقوا على منزلها وإن كان يحترق!
كانت هذه آخر فكرة خطرت لملاك قبل أن تسمع صوت دق عنيف على باب منزلها، دقات شخص يريد الدخول بأي طريقة، وبأسرع وقت.. وخطر لها شخصان.. الأول ميت، وإن كان حياً فهو يملك مفاتيحاً ولن يدق على الباب بحال من الأحوال.. هزت رأسها للفكرة الغبية، وتمنت أن يكون لصاً على أن يكون شبح أبيها المُنتحر!
قد تترك اللص يخرج حياً من المنزل، ولكن الأخير سيموت ميتتين إضافيتين قبل أن يدوس عتبة الباب خارجاً!
الثاني معروف، تحمل بين يديها رسالة إعتذار واعتراف مكتوبة بخط يده.. ولكن هذه ليست دقة شاب قادم ليعتذر، إذا فهو ليس زين..
إقشعر بدنها دون أن تملك القوة لتنهض وتنظر من عين الباب، هذه مدينة من المجرمين، وقد يكون الشيطان بذاته واقفاً في الجانب الآخر من الباب المُغلق!
تسارعت دقات قلبها وبدأت ترتجف رغماً عنها، وحدث ما كانت خائفة منه.. سمعت صوت خلع الباب الذي كاد يخلع قلبها من محله، وبعدها تعالى صوت خطوات تدخل المنزل..
كانت هذه خطوات غريب مجهول النوايا على أرضية منزلها الذي تجلس فيه وحيدة ضعيفة، وبعيدة عن أقرب مصدر للأمان في حياتها!

الفصل الخامس عشر
زوار الليل

- على مقياس من واحد إلى عشرة، ما هو احتمال أن نقتل أو يلقى القبض علينا من قبل الشرطة ونحن نفعل ما نفعله ؟!

خرجت العبارة من بين شفتي "حسن" بتوتر بالغ، وعيناه مركزتان على صديقه "مارك" وهو يعالج قفل باب القصر الخارجي، ألقى نظرة لا مبالية عليه في اللحظة التي صدرت فيها صوت تكة خافتة معلنة أن القفل قد استسلم لمحاولاته..

قال "جيمي" وقد اعتلت وجهه أمارات الفخر بما يفعلونه :

- لا أحب الاحتمالات، ولكن فرصتنا جيدة فعلاً يا عزيزي!

سأله حسن في حيرة:

- لم أفهم، فرصة مقتلنا أو قضائنا للسنوات القادمة من عمرنا في السجن، أم فرصة تحقيقنا لما جئنا من أجله؟ أنت تعرف أن شابين مثلنا لن يصمدوا في سجون هذه المدينة لأكثر من ساعات، ولا تقنعني أن والدك سيتمكن من إخراجنا من السجن خلال ساعات.

ابتسم مارك ببرود وهو يرد:

- لا أعرف، ولكنني لست مهتماً بالشرطة كثيراً، ولا يجب أن تهتم بهم كذلك.. فما سنواجهه في الداخل قد يجعلنا نفقد حياتنا ونحن نتمنى لو يُقبض علينا..

كان يتحدث ببرود شديد، وكأن فكرة مقتله في الداخل ليست ذات الأهمية عنده، زفر حسن بتوتر فيما أزاح مارك الباب الكبير ببطء محاولاً عدم إصدار أي صوت، وأشار له بالدخول وهو يهمس:

- ألا تشعر بشعور الخروف الذي يساق إلى المذبح ؟

نظر حسن له بضيق شديد ونبضات قلبي تتسارع بشكل ملحوظ:

- يا لخفة دمك !

أفسح لهما مارك المجال ليدخلا قبله فدخل حسن بقدمين مرتجفتين، وتبعه جيمي ومارك، دون أن يعرفوا أنهم سيندمون على فعلتهم هذه لبقية حياتهم..

إن كان في حياتهم بقية !

كانت فكرة غبية، وكانوا موقنين من هذه الحقيقة منذ البداية، قبل أن يقدموا على فعلتهم هذه حتى. ولكن ما باليد حيلة، كان حسن ضعيف الشخصية بطبعه ويكاد يكون من النوع الذي يتلقى الأوامر من هذا وذاك دون أن تكون لديه القوة الكافية لمعارضة أية فكرة يطرحها أي شخص، وينتهي به الأمر بتأييد الجميع وثم تنفيذ الفكرة التي تم الإتفاق عليها دون أخذ رأيه حتى..

أما عن جيمي فكان موافقاً وبقوة، لا يهتم بشيء غير الكنوز التي سيجدها في الداخل بلا شك، كان يسمع عن هذا القصر منذ كان صغيراً، ولهذا كان يعرف أنه سيجد في داخل هذا المكان ما يغنيهم عن الحاجة لأن يأخذوا المال من أهلهم مجدداً..

لم تكد قدما حسن تلامسان بلاط القصر حتى انطلقت تلك الصرخة التي أقل ما يمكن أن يقال عنها هو أنها مُرعبة..

صرخة وجع، وعذاب!

صرخة امرأة لابد أنها تذوق أشنع صنوف التعذيب في هذه اللحظة. تجمد حسن مكانه وحبس أنفاسه مع إنتهاء الصرخة كي لا يصرخ بدوره من شدة الرعب الذي كان يختلج صدره..

دفعه جيمي للداخل بعصبية، وأغلق باب القصر بهدوء حتى تركه مواربا، ثم إستدار نحو حسن وهو يصيح به:

- لماذا توقفت ؟ أتريد أن يرانا أحد؟

لم تكن هناك فرصة أن يراهم أحد، ولكن فرصة سماع الناس لهذه الصرخة كانت قوية للغاية، خاصة أنها ولابد ستلفت أنظار الجميع للقصر سيئ السمعة..

- ألم تسمع هذه الصرخة ؟
- أي صرخة أيها الغبي ؟ لم أسمع شيئاً، هل بدأت تهلوس بعد كأسين من المشروب ؟

نظر حسن إلى مارك وهو يسأله برجاء:

- أخبرني أنك سمعت الصرخة ؟
- لم أسمع شيئاً، أنت تتخيل..

سألهما حسن وهو يرتجف:

- ما الذي يحدث في الداخل ؟

زفر مارك بضيق دون أن يرد، أخرج من جيبه كشافاً صغيراً لينير الظلمة من حولهم، ولكن عبثاً يحاول، فلم يتمكن ضوء الكشاف الضئيل من فعل شيء، وكأن الظلام الشديد من حولهم أقوى من النور الخجول..

- توقعت هذا..

قالها حسن وهو يرمي بالكشاف على الأرض بعصبية فيرتطم بالجدار مصدراً دوياً عالياً تردد صداه لفترة مريبة من شدة طولها، وأنزل الحقيبة الكبيرة من على ظهره وأخرج منها كشافاً مستديراً يوضع على الرأس، شغله فاشتعل نوره الأزرق القوي حتى إستطاعوا رؤية ما حولهم، ثبته على رأسه جيداً وأعطى كلاً منهم كشافاً مماثلاً..

- لم تجب على سؤالي..

قالها حسن فنظر له مارك بضيق لمدة طويلة فكاد نور الكشاف المثبت فوق رأسه يُعميه حرفياً، ثم قال:

- ماذا تريد مني أن أقول؟ هذا منزل لعين مسكون بعشرات الأرواح اللعينة، لذا يمكنك إعتبار ما تظن أنك قد سمعته كدعابة بسيطة لا ترقى لما سنراه ونسمعه عندما يكتشفون سبب وجودنا هنا فعلاً!

كانت فكرة غبية.. فكرة غبية بحق !

نظر جيمي حوله حتى وجد زر النور، ضغطه رغم توقعه لأنه لن يعمل ولكن ظنه خاب عندما صدر صوت سريان الكهرباء الغريب وتبعه الضوء وهو يعم المكان، أطفأ كل منهم الكشاف المثبت فوق رأسه وهم يتأملون المكان بإعجاب، فيما كان حسن يفكر بشكل مختلف..

كان هدفهم واحداً، المال، والذهب الذي سمعوا عنه، لم يكن أي منهم يحتاج للمال، ولكنه الجشع الذي لم يقتل القط، ولكنه قتل ثلاثة متطفلين دخلوا إلى منزل عزرائيل !

أوقف زين سيارته أمام القصر ليلاحظ أن أنوار القصر مضاءة، والباب موارب بشكل يسمح للضوء بالتسلل للخارج، عدا عن السيارة الحديثة المتوقفة أمام القصر، ترجل زين من سيارته سريعاً، وفتح الصندوق الخلفي ليخرج منه بندقية، تأكد من حشوها بالرصاص وثبتها على كتفه ثم مشى ببطء إلى القصر..

في الداخل كان المشهد مختلفاً عما تركه زين عليه، الفوضى تعم المكان، كان أصحابنا الثلاثة يجولون في الصالة وهم يضحكون وكل منهم يحمل زجاجة مشروب من البار الصغير، يبدون واثقين من خلو المكان من السكان دون أن يلاحظوا أن التقويم يشير لهذا اليوم وأن كل يوم من أيام هذا الشهر يحمل بصمة واحدة على الأقل تعني ضحية أزهقت روحها على يد عزرائيل..

زال خوف حسن دفعة واحدة من تأثير المشروب، وها هو يرقص ويغني بصوت عالٍ فيما يواصل مارك وجيمي إختيار زجاجات المشروب التي سيأخذونها معهم..

- جميع زجاجات الويسكي لي أنا.. تعرفون أنني لا أقاوم قنينة معتقة بهذا الجمال..

قالها جيمي بسعادة وهو يمسك بزجاجتي ويسكي في يديه، ضحك مارك وهو يقول دون مبالاة:

- خذ ما تشاء، ولكن تذكر أن هناك كنوزاً أخرى مخبأة في الطابق الثاني، لذا علينا الاسراع..

أومأ جيمي برأسه وهو يثبت الزجاجات بجوار بعضها في منتصف الصالة مُستمتعاً بكل لحظة...

- ما الذي تفعلونه هنا ؟

صاح بها زين، الذي يتحكم عزرائيل بجسده منذ زمن، وهو ينظر للخراب الذي أعاثه الشبان في المكان، ليتجمد الثلاثة وهم

ينظرون له وللبندقية على كتفه، نظر حسن إلى صاحبيه مستنجداً فيما إستجمع مارك شجاعته وهو يقول:

- يمكنني أن أسألك السؤال ذاته..

أنزل زين البندقية عن كتفه ولقمها سريعاً وهو يوجهها نحوهم مجيباً:

- لا تجب على سؤالي بسؤال آخر.. ما الذي تفعلونه في منزلي ؟

نظر الشبان الثلاثة لبعضهم مُستشعرين الخطر، بالطبع هذا منزله، ربما يكون هذا التفسير الوحيد لدخوله لهذا القصر حاملاً بندقية، كما أن عينيه توحيان بإجرام لا يذكره إلا بالقصص التي كان يسمعها عن سكان القصر السابقين..

حان وقت الهروب!

رمى كل منهم بكل ما في يديه على الأرض وأسرعوا محاولين الهروب، إبتسم زين في شفقة للمحاولة وهو يطلق رصاصة أصابت جيمي في بطنه ليسقط أرضاً فوق المشروب المسكوب وشظايا الزجاجات المحطمة..

لم يبالي مارك أو حسن بسقوط صاحبهم، كانا مُهتمين بالنجاة بحياتهما في هذا الوقت.. واصلا الركض دون أن ينظر أي منهما للخلف، رمى زين بالبندقية أرضاً من بعدها لعلمه أنها لن تنفعه في حالة المطاردة، وأخرج مسدسه ولقمه بسرعة وهو يبتسم:

- تريدون الهروب ؟ حسناً، فلتحاولوا..

ركض بعدها سريعاً لخارج القصر ليجدهما يركبان في السيارة وينطلقان بعيداً، أطلق زين رصاصتين على السيارة وأسرع بعدها ليركب في سيارته بدوره ليشغلها ويسرع خلفهم تاركاً ورائه سحابة من الدخان..

بدأت المطاردة في الطريق الترابي المؤدي إلى القصر، مد زين يده الحاملة للمسدس من نافذة سيارته ليطلق رصاصة أصابت

إطار سيارة الشبان الخلفي ليجعلها تنحرف بعنف ومارك يحاول الحفاظ على سيطرته عليها بصعوبة بالغة..
كانا يهربان من الموت، حرفياً..
داس زين على دواسة البنزين أكثر حتى أصبح ملاصقاً بهما من الخلف، مد يده من النافذة وأطلق رصاصتين اخترقتا الزجاج الخلفي للسيارة لينحني مارك وحسن دفعة واحدة بخوف شديد، لم يكتفي زين بهذا، بل أسرع أكثر ليضرب سيارتهما من الجانب الأيسر لتنحرف السيارة بشدة مما أجبرها على الخروج من الطريق إلى التراب لترتطم بشجرة بعنف شديد، فيما تمكن زين من التوقف في الوقت المناسب قبل أن يصطدم بهما كذلك..
أسرع حسن خارجاً من السيارة وهو ينزف لشدة الضربة فيما كان مارك يجاهد للخروج من خلال الزجاج الجانبي المحطم، أطفأ زين سيارته وأضاء نورها العالي ليعميهما أكثر ويتمكن من مراقبة المشهد بشكل أفضل، مد يده ليتناول مخزن رصاص آخر للمسدس ويقوم بتركيبه بدلاً من الفارغ، ثم ترجل من السيارة في الوقت الذي كان فيه الاثنان يزحفان مبتعدين عن السيارة بخوف..
مشى نحوهما ببطء وثقة، فريسة سهلة، وكان من النوع الذي يحب اللعب بطعامه !
أطلق زين رصاصة إخترقت رأس مارك وأسقطته جثة هامدة، صرخ حسن صرخة تخجل أفواه النساء من إنتاج مثلها، حتى أنها أجبرت عزرائيل نفسه على الضحك!
تابع زين المشي ببطء وهو يطلق رصاصة تلو الأخرى على التراب المحيط بحسن والأخير يعتقد أنه محظوظ لتفادي هذا القدر من الرصاص، دون أن يعلم أن عزرائيل يتسلى بسماع صرخاته، سيمفونية الألم والعذاب التقليدية، الوحيدة القادرة على أن تُطرب قلب عزرائيل..

إقترب زين من حسن أكثر حتى أصبح خلفه مباشرة، وداس في ظهره بقوة ليثبته مكانه، إنحنى وأمسكه من شعره ليطلق رصاصة على رأسه جعلت الدم ينفجر منه بعنف ليصيب بعضه وجه زين..
لم يكن زوار الليل هؤلاء يعتقدون أن هذا اليوم سيكون آخر أيام حياتهم، ولكن مقابلة عزرائيل غالباً ما تكون مفاجئة..
ومميتة بالتأكيد..

المشي في البرية مريح للأعصاب غالباً، خاصة تحت هذه الأمطار الدافئة، الطبيعة والمطر يزيلان التوتر ويسمحان لك بتنفس الهواء النقي، وحقيقة أن زين يجر خلفه جثة حسن لا يجب أن تغير من جمالية الليل الماطر في الغابة، رمى زين بجثة حسن فوق جثة مارك في الصندوق الخلفي لسيارته ثم أغلقه وهو يسرع نحو القصر، وهناك أخرج جثة جيمي ورماه فوقهم ليحشر الثلاثة في الصندوق بصعوبة..

إنطلق بعدها لأقرب مزبلة ليرمي بجثثهم، ولكن ليس قبل أن يأخذ بصماتهم الدامية ويضعها على أوراق اللعب ليثبت للجميع أن القاتل هو عزرائيل، فهو لا يسمح بأن يسلب منه أي أحد أبسط حقوقه، أن تنسب هذه الضحية له وحده !

عاد زين للقصر، وأغلق الباب خلفه كي لا يفاجأ بأي متسلل جديد، خلع معطفه المبلل ورماه على الأرض بلا اهتمام، ونظر لزجاجات الويسكي المصطفة بعناية على الأرض، ثم تناول إحداها وفتحها سريعاً ليجرع منها جرعة كبيرة، ألقى نظرة على المكان المخرب عن بكرة أبيه وجلس على كرسيه يتأمله دون أدنى اهتمام..

كان هذا عندما انطلق صوت دق على باب القصر، وفي رأس زين دارت عدة أفكار، لم يعتد على الزوار، ولم يخبر أحداً عن وجوده في هذا المكان إلا من يثق بهم، وهم شخص واحد !

كانت فكرته عن الشخص القادم متضاربة، وكان يأمل لو تصيب توقعاته هذه المرة.. نهض ومشى نحو الباب، أخرج مسدسه من خلف ظهره ولقمه ثم فتح الباب ببطء..

وأمامه كانت شمس عزرائيل!

في أقل من ثانية سقط المسدس من يده وأصبح زين المُمسك بزمام الأمور فيما تراجع عزرائيل بعنف بعيداً عن الشمس..

لم تكن ملاك في الحالة التي توقعها زين.. كانت أمامه، مجروحة وقد إمتلأ وجهها بالكدمات الحديثة، مبللة من رأسها لأخمص قدميها، إتسعت عيناه لرؤيتها بهذا الشكل:

- ما الذي حدث ؟

أجابته وسط دموعها:

- شارل !

لم تستطع المتابعة وهي تجهش بالبكاء، إرتفع الدم لرأس زين وهو يحاول الحفاظ على أعصابه فيما همس:

- سأقتل هذا اللعين.. أقسم بهذا !

شعرت ملاك بأن زين سيذهب الآن لقتل شارل بالفعل، فاحتضنته بسرعة وهي تقول في خوف:

- لا تذهب، لم آتِ إليك كي تتركني وحيدة !

الفصل السادس عشر
الملاك المبلل

الفتنة فعل مطاط، قد تفتنك الكثير من الأشياء التي لا تحرك ساكناً في آخر، ولكن ملاك كانت استثناءً لهذه القاعدة، لو كانت دواءً لوصفها الأطباء لجميع الأمراض دون تردد، كانت فاتنة بشكل مرعب، كيف يمكن للكدمات أن تكون بهذا الجمال وهي على وجهها؟

كيف تكون دافئة حتى وإن كانت متجمدة؟ يبدو أن الدفء الذي يشعر به زين وهي بين ذراعيه نابع من الداخل، وكأن هناك بئر نفط في قلب زين، وملاك تحمل في جعبتها الكثير من أعواد الثقاب، تلك اللمسة كانت تشعل النار في كليهما ليتحولا لكتلتين من اللهب.

تراجع زين عدة خطوات حتى أصبحا داخل القصر، ودفع الباب بقدمه ليغلقه في دوي عالٍ مخيف، ولكن ملاك لم تتزحزح، لم ترتجف حتى، كانت تشعر بالأمان وهي معه، تملك قناعة بأن لا شيء سيؤذيها طالما أن زين إلى جواره، فما السوء الذي قد يمسها وهي في حضنه؟

- يجب أن تبدلي ملابسك قبل أن تصابي بنزلة برد.

قبلت ملاك كتفه وهي تقول في ثقة:

- أبقني بين يديك وأعدكَ بأن الشيء الوحيد الذي قد أصاب به هو سهم إضافي من سهام كيوبيد!

ابتسم زين فيما اشاح عزرائيل برأسه بعيداً وأنفه يعبق برائحة حريق جلده، جلد ملاك يحرقه ولكنه لا يبالي بالأمر، جسده أسود

دون تدخلات ملائكية خارجية لذا لن يظهر أثر الحرق عليه أصلاً.

- كيف يمكنكِ أن تكوني رومانسية هكذا حتى وأنتِ تشعرين بالبرد والوجع ؟
- يمكنني أن أسألك السؤال ذاته، كيف تستطيع أن تكون حنوناً بهذا الشكل بينما هناك بركة من الدم تحت قدميك يمكنني أن أجزم أنك من سفكها؟!

انقلبت مشاعر زين دفعة واحدة بعد هذا السؤال، ابتعد عنها وأعطاها ظهره دون أن يعرف ما يمكن أن يقول، لحقت به ووضعت يدها الحانية على كتفه فنظر إليها وهي تقول مبتسمة:

- لم أقصد شيئاً، لا يهمني ما فعلته في حياتك، لم تؤذني يوماً، بل خاطرت بحياتك مراراً من أجلي، هذا ليس فعل قاتل، هذا فعل رجل عاشق.
- هذه هي الحقيقة، أنا أعشقك بالفعل وإن كان العشق شيئاً قليلاً لوصف ما أحمله تجاهك في قلبي.
- وأنا أريد زين العاشق، صفاتك الأخرى لا تهمني حالياً لأنني أشعر بالأمان معك أكثر مما أشعر به مع أبي.

أخفضت ملاك رأسها في أسى عندما ذكرت أباها، فمد زين يده وأمسك بذقنها ليرفع رأسها حتى نظرت في عينيه وهو يقول:

- أنتِ ابنتي المدللة، ولن أسمح لمخلوق بأن يمسك بسوء بعد اليوم، سأقف بينك وبين أوجاعك كحاجز متين لا يسمح إلا بعبور الفرح والسعادة لحياتك، وربما بعض المخدرات..

ضحكت ملاك وضربته على كتفه ممازحة فيما أردف زين:

- اصعدي الدرج، وادخلي آخر غرفة في الممر، هذه غرفتي، افتحي الخزانة واختاري ما شئت من الملابس، وان شئت اخلعي ملابسك وعودي عارية، صدقيني لن أمانع.

ضربته ملاك على صدره بقوة أكبر فضحك، أخفضت رأسها في خجل واضح دون أن ترد.. فأكمل زين:

- افعلي كما قلت لك بينما أتعامل مع الفوضى التي في الأسفل، وعودي كي نتحدث، وكذلك أعرف أنك جائعة، وأعرف كذلك أنني لا أجيد الطبخ، لذا سنتساعد لنطهو وجبة قابلة للأكل..

أومأت ملاك برأسها مبتسمة وصعدت السلالم فوراً، وزين يراقبها بعينيه وهي تتقافز فوق كل درجة، لم تصدر السلالم أي صوت على عكس عادتها، يكاد يقسم أن كل درجة حبست أنفاسها كي لا يخرج منها صوت يزعج ملاك الجميلة..

تنحنح عزرائيل الذي أصبح قادراً على الحركة بحرية الآن لابتعاد ملاك، التفت له زين فوجد على وجهه القبيح ابتسامة سمجة، ابتسم زين بدوره وأشاح بوجهه بعيداً، ثم أسرع ليحضر ممسحة من المطبخ ويبدأ بمسح دم زوار الليل عن أرضية القصر، لم يستغرق منه الأمر وقتاً طويلاً بحكم أنه معتاد على مثل هذا الفعل..

هبطت ملاك السلالم مُرتدية أحد قمصانه لتجده يحمل ممسحة دامية، أشاحت بوجهها متظاهرة بأنها لم ترَ شيئاً واتجهت نحو مقعد زين المفضل وجلست عليه، أشعلت سيجارة وأخذت تتأمل الدخان الصاعد منها في محاولة لتجاهل أن حبيبها يمسح دم ضحاياه عن الأرض!

عاد زين إليها بعد أن أنهى مهمته المتعبة التي كان ينوي تأجيلها للغد، سحب كرسياً ورمى بجسده عليه في تعب، لم يكن قادراً على التحدث بعد أن ضبط متلبساً بالجرم المشهود.

أراحته ملاك من عذابه وهي تقول:

- لا تخف، لن أسألك عن مصدر الدماء.
- قد يكون هذا ثاني أفضل قرار قمتِ باتخاذه اليوم.
- وما هو الأول؟

- أنكِ اخترتِ القدوم إليَّ من بين كل الناس.

اومأت ملاك برأسها ثم قالت وكلامها يحمل مزيجاً غريباً من الحزن والاستفزاز في الوقت ذاته:

- ولكن الحقيقة أنني لا أملك غيرك بعد الآن.
- لا يهمني، ولا تفسدي عليَّ شعوري الجميل، كان بإمكانك أن تبقي وحيدة، ولكنك أردتِ التواجد معي رغم أنكِ حزينة وتعرضت للأذى على يد رجل سيكون ميتاً خلال يومين بالكثير، هذا إن لم أتسلل من القصر الليلة دون أن تشعري لأجعله يدفع ثمن أنه تجرأ على مسّك بسوء.
- كلا، أريد منك أن تعدني أنكَ لن تؤذيه.

هز زين رأسه رافضاً الفكرة، فيما انفجر عزرائيل ضاحكاً لهذا الطلب، نظر زين بطرف عينه لعزرائيل الذي همس له:

- أنت تعرف أن هذا الوعد مستحيل..

أخفض زين رأسه وهو يقول متجاهلاً عزرائيل:

- هذا وعد صعب للغاية، ولست من النوع الذي يعطي وعداً وهو ليس متأكداً من أنه سيكون قادراً على الحفاظ عليه.
- هذا طلبي أنا، وأرجو أن تحترمه وتعدني بهذا، وإلا فسأذهب لبيتي لأبقى وحيدة هناك.

نظر زين لعزرائيل مجدداً ولكنه أطال النظر هذه المرة، لم يكن صاحب القرار في تحديد من يعيش ومن يموت، كان عزرائيل من يقرر، وغالباً ما يكون الموت هو اختياره..

كان عزرائيل يهز رأسه نافياً الفكرة وزين يرجوه بعينيه كي يوافق على طلب ملاك كي لا تذهب.. لاحظت ملاك نظرته المطولة للفراغ فسألته في شك واضح:

- ما الذي تنظر إليه؟

رد زين دون أن يحرك عينيه عن عزرائيل:

- لا شيء.

زفر عزرائيل في ضيق لاستمرار نظرات زين، ثم هز كتفيه في لامبالاة قائلاً:

- حسناً، إفعل ما يحلو لك، هي حبيبتك وليست حبيبتي، لذا لا أملك أي عداوة حقيقية مع الرجل.

ابتسم زين وإن كان يعرف أن عزرائيل يُفضل أن يقتل شارل، وأنه يهتم لأمر ملاك وإن كان يهاب قوتها الغير مفهومة عليه، وأنها تكبح جماح سيطرته بوجودها.

سأله زين للتأكيد وإن لم يحرك شفتيه كي يسأل:

- وعد؟

أومأ عزرائيل برأسه في ملل أي نعم.. استدار زين لينظر لملاك التي كانت مستغربة لهذا الصمت الطويل والنظرة المطولة للجدار، فاتسعت ابتسامته أكثر، لابد أنها تظنه مجنوناً، ومعها حق في هذا الظن..

أخذ زين نفساً عميقاً وهو يقول:

- أعدكِ أنني لن أمسه بسوء طالما أنك لا تريدين هذا، وطالما أنه لن يقترب منكِ مرة أخرى.
- يعجبني أنك أعطيتني وعدك ولكن بشروطك الخاصة.
- هذا كي لا اضطر لإخلاف الوعد في حال تغيرت الظروف في المستقبل.. قد أكون سيئاً ولكنني لست سيئاً لدرجة أن أخلف بوعودي أو أكذب!
- ولكنك كذبت عليَّ من قبل.
- متى؟

لم تُرِد ملاك أن تدخل في هذا الحوار، ولكنها في نفس الوقت تريد أن تزيح هذا الثقل عن كاهلها لتمنحه فرصة لأن يسرد الحقيقة الكاملة.

قالت في تردد:

- عندما كنت تقتل صباح مساء وتظهر أمامي بكل براءة.

- عدم إخبارك بالأمر ليس كذباً، لم تسأليني إن كنت قاتلاً وقلت لا! ثم أنني لم أقتل أحداً في حياتي.

ضحكت ملاك وهي تقول في استفزاز:

- ومن الذي قتل كل هؤلاء؟ هل كانت أمي من قتلتهم؟
- لستُ اليد الحاملة للسكين، أنا السكين التي تتألم وتنزف كلما اضطرت لطعن أحدهم.. يجب أن تفهمي أنني لست قاتلاً.. القاتل هو عزرائيل.
- يا لتلك الشماعة الرائعة، افعل ما يحلو لك وقل أن عزرائيل قد فعلها.

ضحك لصراحتها، كانت تناقشه بمنطقية وكأنهما في مناظرة.. وكان عزرائيل يراقب الحوار بينهما في استمتاع، كان يحب أنها تتحدث بثقة، ليست خائفة من أن صدقها قد يدفعه بعيداً، هذا شيء مميز في العلاقات البشرية لم يستطع فهمه، أن تملك هذا القدر من الثقة في مخلوق يكاد لا يثق في نفسه، يشاهد ملاك وهي تتحدث ويتمنى لو أن زين لم يعطها وعداً بأنه لن يؤذي شارل، كي ينتقم منه شر انتقام على ما فعله بهذا الملاك الجميل.

- سميها ما تريدين، قد يكون الأمر أي شيء ولكنه ليس شماعة بكل تأكيد، إنها الحقيقة.

هزت رأسها وإن بدا الارتياب على وجهها، أخذت نفساً عميقاً ثم سألته في تردد وكأنها لا تريد معرفة الإجابة:

- ما حكاية عزرائيل هذا ؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي زين رُغماً عنه لذكرها للموضوع، وإن كان يتوقع أن تتحدث عنه قبل وقت طويل..

أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء مفكراً في رد مناسب، رد لا يرعبها بقدر الخوف المختزن في الحكاية، رد لا يفوح برائحة الموت أو الدم..

لم يكن قادراً على الكذب عليها، عيناها أقوى من أفضل كاشف للكذب في العالم، وفي نفس الوقت لم يكن يريد الكذب عليها

أصلاً، لقد ملَّ الكذب ولم يستفد منه، كما أنه لا يستطيع ترك جزء من شخصيته مخفياً عنها بهذا الشكل رغم كل الشر الذي يحتويه هذا الجزء.. لكن فكرة إرعابها بما سيقوله كانت مفزعة، وفكرة تركها له إن عرفت الحقيقة تؤرقه في منامه، فمن تلك التي ستتحمل الحقيقة ؟

لا يزال غير مصدق لأنها وجدت فيها القوة الكافية لتأتيه بعد ما عرفته عنه، لقد جاءت بقدميها لمنزل قاتل سفاح، كُلها ثقة بأنه لن يؤذيها لمجرد أنه قد نطق لها باعتراف الحب.

هذه الثقة غالية جداً، وفي قاموس زين، خائن الثقة ملعون ويستحق الرجم حتى الموت، لذا لن يسمح لمخلوق بأن يؤذيها ما دامت حية لمجرد أنها اختارته لتضع فيه ثقتها.

أخذ زين نفساً عميقاً وصرح ببساطة محاولاً التمهيد للمصيبة:

- أنا هو عزرائيل !

مطت ملاك شفتيها اعتراضاً على فترة الصمت الطويلة وإجابته القصيرة المقتضبة، خاصة مع تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه وهو يجيب وكأنه لم يقل شيئاً يُذكر.

سألته محاولة استغلال قوة عينيها قدر الإمكان:

- ومن هو زين إذا ؟
- أنا هو زين أيضاً.

رمقته بطرف عينها في انزعاج واضح وهي تقول:

- لم أفهم شيئاً..

جذب زين نفساً طويلاً من السيجارة ثم أجاب:

- جميعنا نملك جانباً في حياتنا يبقى مخفياً في داخلنا، هذا الجانب الذي نخاف إظهاره هو الجانب ذاته الذي قررت الاستسلام له - رغم أنه لم يكن قراري فعلياً - لأحقق قدري المكتوب منذ خلقت في هذه المدينة.
- وهذا الجانب هو عزرائيل ؟
- بالضبط.

- وماذا عن زين ؟
- زين مدفون في أعماق عقلي، ضعيف للغاية، ويكاد يكون ميتاً.. وربما كان ميتاً بالفعل منذ زمن طويل لولاكِ !

زفرت وفي عينيها استغراب شديد:

- ما زلت لا أفهم..
- تصوري وجهي العملة، هذا هو أنا، على أحد الجانبين هناك عزرائيل، والجانب الآخر هو زين.. ولهذا أقول أن عزرائيل هو الجانب الظاهر أو جانب العملة الواضح للعيان، بينما زين مخفي وقابع في الخلف..
- ومع من أتحدث الآن ؟ زين أم عزرائيل ؟
- لم ينطق عزرائيل بحرف واحد وهو ينظر في عينيك، حتى عندما كان جسدنا في خطر وأنتِ موجودة، لم يستطع استلام دفة القيادة وأنت تنظرين له، ولهذا طلبت منك النظر بعيداً عندما تعامل مع قاطعي الطريق..

سألته بدهشة مما تسمع:

- جسدنا ؟
- بلى، هذا الجسد ملك لروحين، روح شديدة البراءة والنقاء، وربما كان هذا سبب توافقكما بهذا الشكل الجيد.. وروح شيطان رجيم، روح مشوهة، ولكنها شديدة القوة.. هذا الشيطان يسمي نفسه عزرائيل، ويعتبر نفسه رسول الموت في هذه المدينة.. لذا بعد عرض مواصفات الروحين سيتضح لك لمن ستكون الغلبة في النهاية.

تباً، كانت تحاول استيعاب ما يقول رغم غرابته، لو كان يكذب فهو أغبى كاذب، فالجميع يكذبون لتبييض صورتهم أمام الناس، أما أن يكذب ليقوم بتشويه صورته بهذا الشكل، فهو إما غبي أو صادق للغاية، وزين ليس غبياً بالتأكيد..

لابد أنه صادق، في كل حرف يقوله، كان الرعب في قلبها يفوق الوصف، لم تكن خائفة من زين، بل كانت خائفة مما في داخله، من الصراع الذي يتحدث عنه بين زين وعزرائيل في عقل واحد، في جسد واحد، لم تكن تتصور أن شيئاً كهذا موجود في الحياة الواقعية، فقد كانت تتوقع أنه محض خيال تقرأه في الروايات فحسب..

- حسناً.. إن سَلَمتُ بصحة ما تقول رغم أنني أعرف أنك تدرك غرابته، فكيف أتحدث مع زين الآن في حين أن عزرائيل هو الطرف الأقوى؟
- عزرائيل هو الأقوى.. ولكنه لا يستطيع التمثل في حضرتك، وهذا من حسن حظي !
- ولكنك قلت للتو أن زين ضعيف، وأنه قابع في الجانب الخلفي من عقلك ولا يستطيع الظهور، فكيف له أن يظهر في وجودي ؟ ألا تلاحظ أنك تناقض نفسك بكلامك هذا ؟
- أنا لا أناقض نفسي.. أنت التي تناقضين كل موازين القوى في العالم، مجرد وجودك في المكان يزيد قوة الجانب الضعيف ويُضعِف الجانب القوي..

لم ترد مفكرة في ما تسمعه.. محاولة تصديقه ما يخرج من فم زين من كلام، وفي نفس الوقت لا تستطيع تكذيبه.. كانت تعرف أنه يقول الحقيقة، فهي تعرف أنه ليس مثالياً، ولكنه رغم عيوبه العديدة ليس كاذباً، وفي هذه الحالة فهو صادق، وكانت الفكرة مرعبة للغاية..

شعر زين بقلقها فأمسك بيدها في حنان وهو يقول:

- ألم تفهمي ؟

شد على يدها بقوة ثم أردف:

- لا يمكن للشياطين أن تظهر في حضرة الملائكة !

كانت النظرة في عينيه صادقة بحق، ولمسة يده شديدة الحنان بشكل ينفي أنها يمكن أن تكون صادرة من كيان بهذه البشاعة كعزرائيل، إذاً فهو زين بالتأكيد، ولكنها لا تزال محتارة أمام كل هذه المعلومات التي تتساقط على رأسها والتي هي بالتأكيد أشد من قدرتها على الاحتمال..

- وعزرائيل ؟
- لقد توارى بعيداً منذ شعر بك في الجانب الآخر من باب القصر، واختفى في اللحظة التي دخلتِ فيها.. إنه يخاف من سطوتك الشديدة على قلبه.. إنه يحترق في وجودك..

أومأت برأسها وقد بدأت تستوعب منطقه المخيف، ثم سألته مترددة:

- وكيف يبدو عزرائيل هذا ؟
- في داخلي أراه بشكله الحقيقي المرعب، ولكنه مضطر للظهور بشكلي البريء متخفياً خلف قناع الشاب الطيب هذا كي لا يفضح نفسه..
- لم تجب على سؤالي.

جذب زين الأنفاس الأخيرة من سيجارته ثم دفنها في المنفضة وهو ينفث دخانها في الهواء ليرى الدخان يتشكل في شكل عزرائيل المقيت، حرك يديه في الدخان ليبعده بانزعاج ليرى من خلفه عزرائيل بذاته واقفاً، دون أن تبدو عليه أدنى علامات الحرج من الطريقة التي يصفه زين بها، كان متصالحاً مع ذاته لأبعد حد..

أجاب زين وهو يتأمل عزرائيل:

- إنه مخيف.. يملك أجنحة حمراء كبيرة، وعينين شديدتي السواد دون أي بياض فيهما، طويل للغاية، تخرج من أصابعه مخالب حادة، ويتدلى من أسفل ظهره ذيل مشعر.. وكذلك يخرج من مقدمة رأسه قرنان ضخمان !

اقشعر بدنها لمجرد التفكير في مخلوق بهذه المواصفات البشعة..

- كيف يمكنك أن تتعايش مع شيء كهذا ؟
- لقد اعتدت عليه، لا أنكر أنه لا زال يخيفني، ولكنني لم أعد أخاف من شكله، بل هي أفعاله التي ترعبني بحق !
- ما الذي يفعله ؟
- بالنسبة لعزرائيل لا يوجد ممنوع، لا قانون ولا مبادئ قد تردعه من فعل ما يراه صواباً، والصواب في نظره هو عين الخطأ في نظر الجميع، لذا اعتدت على الاختباء عندما يقرر فعل شيء سأرفض فعله في حال كنت أنا المتحكم..
- ما زلت لم تجب على سؤالي..
- لقد أجبت عليه بالفعل.. تخيلي أبشع شيء يمكن أن يفعله بشر، وستجدين أن عزرائيل مستعد لفعله غالباً دون أن يرف له جفن، كل هذا مقابل مبرر يناسب قناعاته الغريبة !

اومأت ملاك برأسها متظاهرة بأنها قد استوعبت المعلومات المرعبة التي سمعتها للتو..

- كيف تستطيع التأقلم مع وجود وحش كهذا في داخلك؟
- هذا الوحش هو السبب الوحيد لبقائي على قيد الحياة حتى الآن، في مدينة كهذه، ونظراً لمما مررت به سابقاً، أعتقد أنني كنت لأكون ميتاً منذ زمن طويل لولاه.. لابد أن أكون شاكراً لوجوده بغض النظر عن كل ما فعله تحت اسمي وبجسدي نفسه !

خطر لها سؤال غريب، سألته في تردد واضح ولم يخفَ عليه أنها لا تريد معرفة الإجابة بقدر ما تريد إرضاء فضولها:

- إن كان عزرائيل بهذه القوة، فلماذا لا يؤذيك كي لا تقابلني، أو يؤذيني بطريقة غير مباشرة باعتبار أنه لا يستطيع إيذائي ؟

- قد يكون تفسير هذا أغرب من كل ما سمعتيه للتو.. رغم كل مساوئ عزرائيل إلا أنه لم يقم بإيذائي قط.. بل على العكس، لقد أجبر الجميع على احترامي، فأصبح الكل يحسب ألف حساب لزين الذي لم يكن أحد يفكر فيه كرجل حتى.. أعرف أنه لن يقوم بإيذائي، وكذلك أعرف أنه حتى وإن تسنت له الفرصة فهو لن يقوم بإيذائك أنت كذلك، لأن هذا سيؤذيني أيضاً، وهو لا يريد لي الأذى..

مطت ملاك شفتيها محاولة امتصاص أكبر قدر من المعلومات من كلام زين الذي يبدو أنه صادق بالتأكيد، ولكن كيف لكائن مثل عزرائيل أن يهتم لأمر شخص ما..

سألته في استغراب:

- إذا فهو ليس بهذا السوء ؟
- إنه سيئ بالفعل.. أعرف أنه يسمعني وأنا أتحدث، وهو لا ينكر هذه الحقيقة، لا يتظاهر بأنه جيد، هو يعرف أنه مخلوق شرير شديد الخطورة، ولكنه لا يفرض شره علي أو على من أحب، وكذلك فهو لا يشكل أي خطر علي أنا..
- ومن أين أتى عزرائيل ؟
- عزرائيل ظهر في لحظة غيرت حياتي بأكملها.. كان يستعد للظهور قبلها بكثير، يراقب معاناتي من بعيد ويتأهب لاستلام مقاليد الحكم في جسدي، وكنت راضياً بهذا في ساعتها، لأنني مللت الظلم الذي تعرضت له طوال حياتي.. عندما ظهر انقلبت حياتي رأساً على عقب، أصبحت الشاب الذي يهابه الجميع، وخلّق مني كائناً مُهاباً ومحترماً..

أومأت ملاك برأسها الذي تشعر به كخلية نحل لشدة المعلومات صعبة الاستعياب التي ترتطم في جمجمتها.. سألته في ريبة:

- ما زلت لم أفهم ما يريده عزرائيل هذا ؟

- إنه يريد التطهير.. تطهير هذه المدينة من كل الشرور، ربما كان عزرائيل هذا ملاكاً في السابق، ولكن حياته في هذه المدينة تسببت في تشوهه بشدة، وهذا كان السبب في جعله يرفض الظلم، هدفه معادلة الميزان، أن يزيد من قوة الخير بأن يفرض شروره على الأشرار !

مدت ملاك يدها لتتناول علبة سجائر زين وتشعل سيجارة منها، هذا كلام واقعي بحق، زين النقي أبيض القلب وعزرائيل ذو القلب الأسود يخلقان شخصية رمادية غريبة لم تقابل مثلها من قبل، ولكن كل ما سمعته لم يغير من حبها لزين، ولم يجعلها تخاف منه، بل على العكس..

استغربت لشعور مريب أصابها، كانت سعيدة لأن عزرائيل موجود، كي تعرف أن هناك من يحمي حبيبها عندما تكون بعيدة عنه، ولكنها لا يمكن أن تنسى أنها نقطة ضعف عزرائيل الوحيدة، وهذا يعني أن وجودها قد يعرضه للخطر وهو ما لا يمكن أن تقبل به قط..

الفصل السابع عشر

حياً أو ميتاً !

فتح زين عينيه بعد ما يمكن أن يسميها أهنأ نومة في حياته كلها، كانت ملاك نائمة بين ذراعيه، وقد شبكت أصابعها في أصابعه، شعرها الأشقر الطويل يتوسد ملاءة السرير البيضاء ويلمع تحت أشعة الشمس، ملامح ملائكية بشكل لا يصدق، وباطنها أجمل بألف مرة، احتمالية مقابلة فتاة بهذه المواصفات يكاد يكون من سابع المستحيلات.
أصبحت ملاك أول فتاة تدخل هذا القصر دون أن تُقتل أو تُعذب فيه، الأيام القليلة التي أمضتها في قصره كانت أقرب ما وصل إليه زين من نعيم الدنيا، رغم كل الأموال والنساء والسلطة إلا أن شيئاً كان ناقصاً على الدوام، فجوة عميقة وفراغ مقيت لا يعرف بمَ يجب أن يحشوه ليمتلئ، وظهور ملاك كان كفيلاً بأن يكتمل، أصبح قطعة واحدة، جمعت أشتاته بعد أن كان أقرب لقطعة جبن نخرتها الفئران.
داعب زين خصلات شعرها بين أصابعها، كمٌ عظيم من حبه يختبئ في هذه الخصلات، يُخبئ أجزاء حبه فيها، في تفاصيلها، حتى أنه كلما لامسها غمرته الطمأنينة، طمأنينته نابعة من أنه ليس وحيداً، ومن أن هناك مخلوقاً على هذه الأرض تهمه سلامتك، ويحبك دون شروط، يتقبلك بكل عيوبك وإن كنت زين القاتل الذي يُخفي وراء ملامحه عزرائيلاً !
وبذكر عزرائيل، كان الأخير جالساً على مقعد جانبي بعيداً عن أشعة الشمس، يتأملهما دون تعابير، لمحه زين فابتسم له

عزرائيل بأسنانه الحمراء التي تشعر أنه قد التهم بها جيفة للتو ونسي أن يُفرِّشها.
ابتسم زين مُجبراً، كان سعيداً بالفعل، وكان عزرائيل يشعر بهذه السعادة والطاقة الإيجابية التي تفوح منه وإن لم يكن مُرتاحاً لها، كان يستشعر في هذا الصمت هدوءاً كالذي يسبق العاصفة.
كان وجود عزرائيل في هذا المشهد غريباً، ولكن بشاعته لم تنجح في أن تغطي على رومانسية اللحظة، لأنه -سواء شاء زين أو أبى- سيكون موجوداً في كل لحظة قادمة كما هو الآن، لن يبارح مكانه بالتأكيد.. وجوده يغير قوانين المعادلة الطبيعية للخلوة، لأنه عندما يكون زين مع ملاك فإن الشيطان ليس ثالثهما، بل عزرائيل!
إنطلق صوت سيارة من خارج القصر، تجمد زين فيما أشاح عزرائيل بوجهه وكأنه تنبأ بأن هذا الهدوء لا يبشر بخير، وأن العاصفة قادمة.
نهض زين محاولاً قدر الإمكان أن لا يوقظ ملاك، ولكنها استيقظت في كلتا الحالتين بسبب حركته المفاجئة.
سألته ملاك في استغراب:
- ما الأمر؟
- لا شيء.
ألقى زين نظرة من النافذة على السيارة التي أصبحت الآن أمام القصر، ثم أسرع ليدخل إلى الخزنة، وأخرج منها سلاحاً رشاشاً، ومسدساً، لقم المسدس سريعاً واقترب من ملاك ومد يده الحاملة للمسدس نحوها.
- أتعرفين كيف تستخدمينه؟
- قليلاً..
- حسناً، إن شعرت أنك في خطر فلا تترددي في استخدامه.
- لم تخبرني ما الذي يحدث؟

انطلق صوت دقات متتابعة على باب القصر، تحفزت ملاك فيما شد زين على سلاحه الرشاش وهو يقول مطمئناً:

- لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

أسرع زين خارجاً من الغرفة، في اللحظة التي خرج فيها تلبسه عزرائيل، أصبحت خطواته أكثر ثباتاً، وتراجعت دقات قلبه للمعدل الطبيعي.. وصل لباب القصر ، فتح الباب ببطء ووجه سلاحه للرجل الواقف أمام الباب، والذي تراجع للخلف في قلق وهو يصيح:

- لا تتهور يا زين.

كان الرجل يناديه باسمه، قلائل من يعرفون اسمه الحقيقي، تمعن زين في ملامحه فوجده مألوفاً للغاية، لقد تعامل مع هذا الرجل ولكنه لا يذكره، لم يتمكن من ربط اسم الرجل بملامحه لسبب ما.

الألفة في وجه الرجل لم تمنع زين من أن يواصل تصويب السلاح نحوه في تأهب، وأصبعه متحفز فوق الزناد.

سأله زين في شك:

- من أنت؟
- ألم تتذكرني؟

هز زين رأسه نفياً، فابتسم الرجل وهو يقول:

- لقد اعتدت على أن ذاكرتك حديدية، ما الذي حدث؟
- لا يهم طالما أنك لم تخبرني من أنت.
- أنا "إسحاق"، هل يذكرك هذا الاسم بشيء؟

لقد تذكر الآن أين رآه، كان إسحاق فرداً من عصابة "المنتقمين" وإن كان لا يظهر كثيراً، هذا السبب في أنه تذكر ملامحه ولم يتذكر اسمه، لأن الاسم ذاته قد ذُكر أمامه مرة أو مرتين على الأكثر.

سأله زين في استغراب:

- أنت أحد رجال "فارس" ؟

أومأ إسحاق برأسه بالإيجاب وهو يقول:

- صحيح.. والآن هل يمكنك أن تخفض سلاحك كي نتحدث دون أن يهددني خطر ضغطك على الزناد عن طريق الخطأ؟
- لن يحدث هذا قبل أن تخبرني بالسبب الذي أتى بك لمنزلي، ثم أنني لست من النوع الذي يقتل عن طريق الخطأ، كل ضحاياي قتلوا مع سبق الإصرار والترصد.

ابتسم إسحاق وهو يقول:

- لم آت لأتخطى حدودي، أنا أعرف أكثر من غيري عواقب فعل مثل هذا مع شخص مثلك يا عزرائيل، لقد جئت لأحذرك، ولأخبرك أنك في خطر محدق..
- وما هو هذا الخطر؟
- أرجوك أخفض هذا السلاح ودعنا نتحدث في الداخل، وجودي هنا خطر عليَّ أنا أيضاً ولكنني لم أستطع تركك في وضع كهذا، لقد كنت عزيزاً على قلب فارس، وكل أصدقائه هم أصدقائي.

أخفض زين سلاحه وابتعد عن الباب ليسمح له بالدخول، دخل إسحاق فيما ألقى زين نظرة على الخارج ليتأكد من أن لا أحد يراقبهما، ثم أغلق الباب، وأشار لإسحاق كي يجلس، وجلس هو على كرسيه المفضل.

وضع زين رجلاً على رجلٍ ثم سأله:

- والآن أخبرني ما الأمر؟

أخرج إسحاق من جيبه ورقة سوداء ملفوفة وناولها لزين الذي بدا متشككاً وهو يفتحها ليجد مفاجأة عظيمة، بل هي العاصفة بذاتها.

على الورقة كانت هناك صورة له مرسومة بدقة عجيبة، وتحتها عبارة بخط أحمر عريض: "حياً أو ميتاً" !

تحت العبارة هناك رقم ضخم، كانت هناك جائزة هائلة لمن يستطيع قتله أو تسليمه حياً، كانت هذه الورقة تحدياً مباشراً له

ولقدراته، كل قاتل في المدينة سيحاول قتله كي يحصل على مبلغ كهذا، ثمن رأسه يساوي ثمن رؤوس سكان المدينة بأسرها!

- ـمن وراء هذا؟
- جائزة بهذه الضخامة لن يكون رجل واحدٌ قادراً على دفعها، لذا فواضع الجائزة ليس شخصاً واحداً..
- ومن هم؟
- كبداية هناك رجال وشركاء الجنرال "بيتر" الذي قتلته لأنه قتل فارس، لقد تسببت في قطع رأس الأفعى، ولكن يبدو أنك نسيت أن الأفاعي في هذه المدينة تملك العديد والعديد من الرؤوس.
- ومن غيره؟
- هناك "إيفان" أيضاً، الذي يعد من أكبر تجار المخدرات في المنطقة، تحت يده مئات القتلة المأجورين الذي يحرصون على استمرارية عمله دون مضايقات من الشرطة أو العصابات المُعادية، هو أشد من يريدك ميتاً حسب معلوماتي.
- لماذا؟ لا أذكر أنني تدخلت في أي من أعماله من قبل.
- ولكنك قتلت اثنين من أخوته، بالإضافة لأمه التي لم تتحمل صدمةً كهذه فتوفيت سريعاً.

بدا الاستغراب الصادق على زين لهذا الخبر، لا يذكر أنه قام بقتل هذين الشخصين، إنه يحرص على معرفة هوية ضحاياه كي يعر ف المشاكل التي ستلاحقه في حال قام بقتلهم.

- هذا الكلام غير صحيح، لم أقتلهم.
- هل أنت متأكد؟ لقد وجدوا جثثهم في حاوية قمامة على بعد عدة كيلومترات من منزلك، بالإضافة لوجود بصمة الموت المميزة خاصتك فوق الجثتين، كما أن هناك جثة ثالثة لصديق أخويه معهم.

لم تكن هذه المواصفات تنطبق سوى على زوار الليل الذين كانوا هنا، لم يعرف هويتهم قط، ولم يهتم، كان يظنهم ثلة من اللصوص الذين لن يبالي أحد بمقتلهم، ولكن الحقيقة أن قتله كانت بمثابة نكز عش الدبابير، والآن كل دبور لعين في هذه المدينة سيحاول اللحاق به لقتله!

سأله إسحاق وقد لاحظ شروده:

- يبدو أنك تذكرت قتلهم أخيراً.

أومأ زين برأسه دون أن يُبدي أي ندم وهو يقول:

- بالفعل، الحقيقة أنني...

لم يكمل زين كلامه الذي كان يخرج منه بلسان عزرائيل، تراجع الأخير سريعاً وسلّم لوحة التحكم لزين مع ظهور ملاك عند أول السلالم وهي تهبط حاملة في يدها المسدس بطريقة تنم عن قلة خبرتها في الأمر، ترتدي ثوب نوم طويل كشعرها، وأخضر كلون عينيها، كانت تبدو فاتنة أشد فتنة، وكان يغار من أن تظهر فتنتها لأي مخلوق، خاصة عندما رأى النظرة التي اعتلت وجه اسحاق لمرآى ملاك، لم يرَ الأخير مخلوقاً كهذا سوى في أحلامه، وأول ما خطر له هو أن هذا ملاك قام عزرائيل باختطافه من الجنة!

نظر اسحاق لزين مُجبراً بعدما انتبه لأن نظرته قد طالت أكثر من اللازم، فوجد زين ينظر له وفي عينيه نظرة مرعبة، وكأنه سيقتله لمجرد النظر إلى ملاكه الجميل.

ابتسم زين لملاك وهو يقول مُطمئناً:

- لا تخافي، إسحاق صديق قديم.

أرخت ملاك يدها وإن كانت لا تزال متشككة في سبب وجوده هنا، في هذا الوقت تحديداً.. تنحنح اسحاق في حرج لهذا الموقف غير المريح فيما اقتربت ملاك لتقف خلف زين وكأنها تحتمي به، تحاشى أن ينظر لها فيما قال بابتسامة خجول:

- كنت أظن أنها مجرد إشاعات، ولكن يبدو أن الأخبار التي سمعتها صحيحة.. الشيطان قد وقع في الحب!

أشاحت ملاك بوجهها في انزعاج، لفظ "شيطان" لا يفارق حبيبها، يبدو أن الجميع يدركون شيطانية أفعاله، ولا أحد منهم قد رآه في أوج عاطفته وحنانه كما رأته في الأيام التي قضتها في القصر.

لم تنجح في فهم هذا التناقض حتى الآن، رغم أنها قد تعاملت معه مراراً، كيف يمكن له أن يحمل في قلبه كل هذا الحب، وأن يتعامل معها بأسلوب ألطف مما يفعل أب مع ابنته، فيما يخفي في داخله عزرائيل بشحمه ولحمه، هذا الأمر يكاد يكون أكبر من أن تفهمه في يوم من الأيام، ولكنها لا تمانع في أن تقضي عمرها وهي تحاول فهمه.

أما عن زين فقد كان مستغرباً لأن أحداً قد عرف بأمر ملاك، لقد حاول بشتى الوسائل أن يخفيها عن أعين الجميع، وها هو أمره قد افتضح.

- أتقول أن الناس يعرفون بأمرها؟
- كان الأمر إشاعة في البداية، لقد دخلت في كثير من المشاكل بسببها، ومع الوقت وعندما أدرك الناس أنها الفتاة ذاتها كان لابد من تبرير لهذا، وأي تبرير لحمايتك لها أفضل من الحب.
- وماذا تعرفون أنتم عن الحب ؟!
- نعرف أن فقدانه ينسف كل السعادة التي شعرت بها في وجوده، وأن كل لحظة حُب ستتحول لذكرى حزينة مستقبلاً.

إتسعت عينا زين في غضب لمجرد التفكير في الأمر، في عينيه لمعة عزرائيل المميزة التي ظهرت رغم أنه ليس المتحكم حالياً.

سأله وهو يضغط بأصابعه على السلاح بين يديه:

- هل أعتبر هذا تهديداً لها؟

تراجع إسحاق في توتر وقد شعر أنه تجاوز حدوده قائلاً في تبرير:

- طبعاً لا، وإلا لما أتيت إليك أعزلاً.. لست أنا عدوك يا زين، ولا أريد لك الأذى بأي شكل من الأشكال، لقد قلت ما قلته كي تحرص على سلامتها جيداً، فأنت تعرف نوع الرجال الذين تتعامل معهم.

أرخى زين أصابعه قليلاً عن السلاح، فتنفس إسحاق الصعداء، وهو يقول في تردد:

- هل يمكنني أن أنصحك يا زين؟
- وما نصيحتك؟
- أهرب.. أهرب أنت وفتاتك يا زين، بعيداً عن هذا المكان بأسره، بخيره - إن كان فيه خير - وشره، وجودكما هنا خطر للغاية كما تعرف، أهرب حتى تصل لحافة العالم، وأتمنى أن تجد هناك السلام، وأتمنى أن لا يفكروا هم بالبحث عنك هناك!

أومأ زين برأسه متفهماً وهو يقول:

- شكراً على النصيحة.
- ليست مجرد نصيحة، أنا مستعد لحمايتك وتوفير وسيلة الهرب لكما حتى تصلا لبر الأمان,,

هز زين رأسه نافياً الفكرة بشكل قاطع:

- لو كنت من النوع الذي يهرب لما لاحقت قاتل "فارس" كي آخذ بثأره، كان بإمكاني التنعم بكل هذه الأموال دون أن أدخل في مشاكل مع رجال كهؤلاء.. لقد رأيتَ ما فعلته بالجنرال رغم كل قوته وجبروته، ولا يمكنني أن أصف ما سأفعله بمن يهدد سلامة الفتاة التي أحبها.

كان زين يحاول إخفاء قلقه عن أعين إسحاق وملاك، ولكنه كان يشعر بأن هذا القلق واضح وجليٌّ رغم محاولاته.

قال إسحاق في صدق:

- حسناً، أنا معك إذاً حتى تتجاوز هذه المحنة.

وللمرة الثانية هز زين رأسه لينفي الفكرة وهو يقول:

- كلا، حسب ما أذكر فأنت متزوج يا إسحاق، أليس كذلك؟
- صحيح.
- هل لديك أطفال؟
- فتاتان صغيرتان.
- إذا فأنا لا أستطيع أن أخاطر بحياتك وحياة زوجتك وابنتيك، اذهب إليهم وحافظ على سلامتهم..
- وماذا عنك؟
- يمكنني الاعتناء بنفسي وبفتاتي يا إسحاق، لا تخف.

أخفض إسحاق رأسه وقد بدا عليه نوع من الارتياح وإن حاول إخفائه، ثم نهض مُعلناً نهاية هذه الزيارة الخطرة والمفاجئة قائلاً:

- أرجو ذلك.

نهض زين بدوره ومشى بجوار إسحاق نحو الباب، فتحه ليخرج منه، استدار اسحاق لزين ليقول:

- أتمنى أن لا أسمع عنك أو عنها أي أخبار سيئة في الأيام القادمة.

ابتسم زين له ومد يده ليصافحه بحرارة قائلاً:

- أنا ممتن لقدومك يا إسحاق، أقدر لك هذا من كل قلبي.
- هذا أقل ما يمكنني فعله لصديق قديم، أنت تُذكرني بفارس، وإن كنت أتمنى أن لا تكون نهايتك كنهايته.
- صدقني، قتلي سيكون مشروعاً صعباً للغاية، خاصة وأن عزرائيل بذاته في صفي.

ابتسم إسحاق لثقة زين، ثم قال مودعاً:

- وداعاً، حتى لقاء آخر في ظروف أفضل.
- الوداع.

استدار إسحاق ومشى مبتعداً حتى ركب سيارته وانطلق بها مبتعداً، وزين يراقبه حتى ابتعد قدراً كافياً، ثم أغلق باب المنزل واستدار ليجد ملاك جالسة على كرسيه وقد اعتلى الخوف وجهها.

اقترب زين منها وانحنى ليقف على ركبتيه أمامها، أمسك بيديها الناعمتين وهو يقول في ثقة:

- لا تخافي، لقد...

سألته مُقاطعة كلامه دون أن ترفع رأسها:

- ما الذي يحدث يا زين؟

تردد زين في الإجابة، ثم حسم قراره باعتبارها شريكته في الخطر ويجب أن تعرف ما يحدث، ناولها الورقة السوداء وهو يقول:

- هذا الذي حدث.

فتحت ملاك الورقة لتتسع عيناها عن آخرهما، لقد وضعوا جائزة على رأسه، رقم بهذه الضخامة قد يدفع البعض لرمي قنبلة نووية فوق القصر كي يقوموا بقتله، هذه الورقة الخفيفة تحمل في داخلها رُعباً تعجز الجبال عن حمله.. قتلة المدينة بأسرها سيتهافتون ليحصلوا على الجائزة، ربما يكون أحدهم خارج المنزل بالفعل منتظراً الفرصة المناسبة للدخول وقتل زين دون تردد.

تابع زين محاولاً منعها من الاسترسال في مخاوفها:

- لقد وعدتك أن سوءاً لن يمسك طالما أنتِ معي.
- أعرف هذا، ولكنني لا أعرف لم يجب أن تكون عنيداً هكذا ؟

سألها زين في حيرة:

- لم أفهم.
- لماذا تريد الدخول في هذه المشكلة التي يبدو من ملامحك أنها أكبر مما اعتدت عليه؟ خاصة أنك وحدك..

لماذا لم توافق على عرضه حين قال أنه سيوفر لك طريقاً للهروب من كل هذا؟

- أتعتقدين أن هذا هو الحل برأيكِ؟

شدت ملاك على يده في حماس لأنه بدأ يستجيب معها قليلاً، تابعت وصوتها يحمل الكثير من الرجاء:

- طبعاً.. فلنهرب، لمكان بعيد حيث لا يمكن أن يتعرف علينا أحد، فلنذهب في نزهة إلى حديقة ما في أقاصي الأرض، ولنجلس تحت النجوم حتى ننتهي من عدها، لا مانع أن نبقى هناك حتى الصباح، بل لا مانع لدي أن أقضي حياتي كلها هناك، أو في أي مكان آخر أنت فيه، المهم عندي أنك معي، وبجانبي..
- لا يمكنني تخيل سيناريو أجمل من الذي قمتِ بوصفه للتو، صدقيني، أكبر أحلامي أن نكون سوية بعيداً عن كل هذه المشاكل، ولكن هذا غير ممكن.
- لماذا؟ تعال معي ولنهرب من كل هذا الهراء.

أخفض زين رأسه وهو يصارع نفسه وأفكاره المتضاربة، ثم قال بعصبية:

- لا يمكنني الهرب، لقد بدأت هذه المشكلة وأنا من سينهيها، لا أحد غيري سيقوم بهذا.

سألته في انزعاج لعناده الشديد:

- لماذا يجب عليك إنهاءها، ألقِ بها خلف ظهرك وتجاهلها، أرجوك يا زين، تخلَ عن عنادك قليلاً واسمعني.
- لماذا لا تفهمين أنني لا أستطيع؟ هذا ليس عناداً، إنه النظام الذي تسير عليه الأمور في عالم المجرمين الذي دخلته، هروبك لا يعني أنك أصبحت آمناً.. حتى إن هربنا، فسنعيش حياتنا في خطر مستمر، لذا سنبقى حتى

ننهي الأمر وحينها يمكننا الذهاب حيثما أردنا دون خوف.

- أتعتقد أنك قادر على مواجهة شيء بهذه الخطورة؟
- بالتأكيد، ولكنك لا يمكن أن تكوني موجودة بالقرب مني في هذا الوقت يا ملاك.

سألته ملاك في استغراب:

- لماذا؟ أنا أريد أن أكون معكِ.
- لا يمكنكِ أن تكوني معي لسببين مهمين، أولهما أن وجودك خطر عليك، والثاني لأن عزرائيل لا يمكنه الإتيان بحركة وأنت في المكان، فكيف له بمواجهة كهذه؟ لقد رأيتِ ما حدث لي عندما واجهت شارل وثلته اللعينين، هؤلاء رضعٌ بالمقارنة بمن يتربصون بنا، وأنا ضعيف بدون عزرائيل، ولا يمكنني حماية نفسي ناهيكِ عن حمايتكِ أنتِ!

أومأت ملاك برأسها متفهمة، ثم سألته:

- ماذا سنفعل إذا؟

أخفض زين رأسه مفكراً دون أن يرد، وعزرائيل ذاته كان متردداً من تبعية هذه المصيبة، لقد استشعر مسبقاً أن هذا الهدوء لا يبشر بخير، وأن هناك عاصفة قادمة، لكن هذه ليست عاصفة، إنها كارثة، بل هي إعصار سينسف كل ما بناه دفعة واحدة!

الفصل الثامن عشر
سنموت بعد قليل

"زين!"
عزرائيل يكره المقاطعات، ومن حسن حظه أنه لا يتعرض لهذا كثيراً، وإلا لخسر الكثيرون ألسنتهم على أقل تقدير، لا نريد الإسهاب في الحديث عن الأرواح التي ستُزهق، وأزهقت، لمجرد أن عزرائيل كان مُنزعجاً وأتاه الشخص الخطأ في الوقت الخطأ..
لكن هذه المقاطعة كانت مختلفة.. صحيح أنها قطعت عليه غوصه في ماضيه بكل تفاصيله، بملائكته وشياطينه، وبالملائكة فنحن نعني ملاكاً واحدة وسط جُموع من الشياطين..
إلا أن نبرة الصوت المألوفة ومناداته بإسمه الحقيقي الذي لم يسمعه منذ زمن كانا كافيين ليرغب في معرفة المتحدث، وضع سيجارته في المنفضة واستدار ببطء ليجد سيلينا أمامه وهي تبتسم له:

- سيلينا؟

إتسعت ابتسامة سيلينا أكثر عندما ناداها بإسمها، هذا يعني أنها لا زالت جزءاً من ذاكرته كما هو متشبث بذكرى ليلة شديدة الغرابة - إن لم تكن الأغرب- في حياتها، إقتربت خطوة منه دون شعور وهي تُصرح:

- سعيدةٌ لأنك تتذكر إسمي.
- الشعور مُتبادل.

- كُنتَ شريكي في ليلة لا أعتقد أن لدي القدرة على نسيانها، في حين أشعر أنك قد مررت بليالٍ أكثر إثارة.

إبتسم عزرائيل دون أن يرد، فسألته في حذر:

- هل تسمح لي بأن أقاطع وحدتك وأجلس معك؟

سألها عزرائيل مُلتفاً حول مقصد سؤالها:

- هذه أكثر حانة مكتظة في المدينة، من أين لي بالوحدة التي تتحدثين عنها يا عزيزتي؟
- هؤلاء لا شيء، طالما أن لا أحد بجوارك ليسمعك فأنت وحيد، أكاد أقسم أنك كنت تتحدث مع نفسك طوال هذا الوقت، لاحظت شرودك منذ ساعة وترددت في الإقتراب، لكن الثلج في مشروبك قد ذاب دون أن تَمسّه شفتاك، لذا شعرت برغبة في أن أدعوك لشرب مشروب جديد معي.

مد عزرائيل يده لكأس المشروب فوجده دافئاً بالفعل، نظر لسيلينا وأشار للكرسي المجاور له قائلاً:

- تفضلي بالجلوس.

إقتربت سيلينا من الكرسي بحماس حاولت إخفاءه دون فائدة، ولكن عزرائيل أسرع وهو يردف:

- ولكن بشرط.

تجمدت سيلينا ناظرة له في حيرة فيما تابع:

- أنا من سأدعوك.

كان حماسها يفوق الوصف وهي تقول:

- موافقة.

جلست سيلينا على الكرسي سريعاً فيما أشار عزرائيل للساقي كي يأتي رمق سيلينا وكأنه يفكر ثم قال:

- ويسكي؟

رفعت سيلينا حاجبيها في تردد وهي تقول ناظرة للسقف:

- لا أنصحك بهذا.
- أيمكنني أن أسأل عن السبب؟

- أنت تعرف السبب بالفعل يا عزيزي، ألم تسمع الهراء الذي تفوهت به في الليلة السابقة عندما كِدتُ أسكر بعد كأس واحد من النبيذ؟ أم أنك نسيت؟
- لم أنسَ، لقد سمعته ولا مانع لدي من سماعه مجدداً، رغم أنني أعدكِ أنني سأكون مُهذباً أكثر هذه المرة.

ضحكت سيلينا للوعد الغريب، فتحت فمها لتقول شيئاً عندما اقترب الساقي منهما ليسألهما عما يريدان.. ألقى عزرائيل نظرة على سيلينا ثم أملى على الساقي فوراً:

- كأسا ويسكي مع ثلج.

أومأ الساقي برأسه وأسرع ليحضر طلبه، استدار عزرائيل لسيلينا التي كانت مُتفاجئة من ثقته وهو يطلب لها كأس ويسكي رغم تحذيرها له، هزت رأسها محاولة أن لا تُركز في عينيه أكثر من اللازم ثم سألته:

- لم تخبرني حتى الآن، كيف حالك؟

أخفض عزرائيل رأسه وهو يقول مبتسماً:

- لا زلت حياً، للأسف!
- بل من حسن حظي.

هز عزرائيل رأسه دون اقتناع وهو يقول:

- لا أعتقد أن إستمرارية حياتي هي شيء من حسن حظ أحد.
- على العكس تماماً، برأيي أنه لابد أن يبقى رجال مثلك على قيد الحياة كي لا تموت الشهامة.

سألها عزرائيل متجاهلاً كلامها:

- كيف حالك أنتِ؟

زفرت سيلينا في حيرة وهي تسأله:

- لِمَ تلتف حول المجاملات؟ لِمَ لا تتقبلها كإنسان طبيعي؟

ابتسم عزرائيل لسؤالها العجيب، لم تشرب سيلينا قطرة من المشروب وهاهي أسئلتها التي لا يستطيع الإجابة عنها تنهال

فوق رأسه، أجاب متأملاً زجاجات المشروب المصطفة أمامه مبتسماً:

- لسببين، أولهما أن أن المجاملات ليست سوى أكاذيب، والثاني هو أنني لست إنساناً طبيعياً!

لم يستطع أن يخبرها أنه ليس إنساناً بالمعنى الحرفي كي يكون طبيعياً بمقاييس البشر، كان عليه أن يختار كلماته بعناية معها كي لا يؤذيها، خاصة أنه أعطاها وعداً بأن يكون مهذباً أكثر مما كان عليه في آخر وأول لقاء بينهما.

- ولكنني لا أكذب! هذه هي الحقيقة.
- هذه هي الحقيقة من وجهة نظركِ أنتِ، بينما أنا معترض على ما قلتيه لأسباب لا أستطيع قولها.

إقترب الساقي مجدداً حاملاً صينية فيها كأسا ويسكي وسكيناً حادة قطع بها الحديث الذي يدور بينهما، وضع الكأسين أمامهما ومضى، وساد الصمت بين الاثنين، هذين الغربيين اللذين جمعتهما صُدفة بحتة، الرجل المناسب في المكان المناسب، والفتاة المناسبة في آخر مكان مناسب لها في العالم!

رشفت سيلينا من كأسها وهي تفكر في موضوع ليحرك عجلة الحديث التي أوقفتها بسؤالها العويص.. شربت كأسها بأكمله دفعة واحدة، وأخذت تسعل مع شعورها بحريق في حلقها:

- كيف تشرب هذا الشيء؟

إبتسم عزرائيل وأمسك بكأسه ليتجرعه كاملاً بكل بساطة دون أن يرمش له جفن، نظر لها وهو يقول ضاحكاً:

- هكذا!

هزت رأسها في غير تصديق وهي تمسك برقبتها وقد بدا عليها الألم، سألها عزرائيل في حيرة واضحة:

- ما الذي أتى بفتاة مثلك إلى حانة مثل هذه؟ خاصة أنكِ لا تشربين كما أخبرتيني.

- هذا صحيح، وبصراحة لا أدري ما الذي دفعني للقدوم لهذا المكان بالذات رغم أنني لست معتادة على القدوم إليه، ربما كانت صدفة، وربما هو قدر كي ألتقي بك مجدداً.
- ربما.
- أخبرني أنت، لم أتيت إلى هنا فيما تملك حانة كاملة في منزلك؟

ضحك عزرائيل لوصفها ثم أجاب وهو يشير للساقي كي يملأ كأسه:

- مللت الشرب وحيداً.
- ولكنك رغم هذا تجلس وحيداً، أعتقد أن لديك سبباً آخر.

راقب عزرائيل الساقي وهو يأخذ الكأس الفارغ ويضع مكانه آخراً ممتلئاً، وأجاب محاولاً تجاهل الصداع الذي داهمه على حين غرة:

- هذا ممكن، ولكن عليَّ البحث في أعماقي كي أصل إليه، فحتى أنا لا أفهمني في كثير من الأحيان.

أوشكت سيلينا على قول شيء ولكنها شعرت بدوار مفاجئ، إستندت للطاولة كي تتفادى السقوط.. أمسكها عزرائيل بيده ليسندها وهو يسألها في اهتمام:

- هل أنتِ بخير؟
- كلا، أشعر بشعور غريب.

كتم عزرائيل ضحكته وهو يقول بنبرة تفوح منها السخرية:

- كيف يمكن لكأس من النبيذ أن يفعل بكِ كل هذا؟

لم يكد عزرائيل ينهي سؤاله حتى شعر بالدوار كذلك.

ثمة شيء مريب!

لم يكن عزرائيل من النوع الذي يتأثر بالمشروب، ليس وهو يقضي ليله ونهاره منهمكاً في شرب الكحول أكثر من الماء،

شيء ما يجري وهو ليس منتبهاً، بدأ عقله يعمل بسرعة رغم الصداع الذي ينهشه..
اللعنة!
إستند للطاولة مُجبراً رغم أنه حاول التماسك طويلاً، نظر لسيلينا التي كانت تُمسك برأسها في ألم..
سألته عندما لاحظت أن الأعراض ذاتها قد أصابته هو أيضاً:
- ما الذي يحدث لنا؟
رفع عزرائيل رأسه بصعوبة لينظر حوله، كيف لم يلمح ثلة الرجال المريبين هؤلاء؟ هذا الوشم المميز الذي يُغطي أكتافهم، لقد رآه من قبل ولكنه لا يستطيع تذكر أين رآه، كانوا يرمقونه مترقبين وكأنهم ينتظرون إستسلامه لأيٍّ كان ما أصابه.
كان نظرات الساقي تحمل قدراً مُريعاً من الوعيد، يراقبه في صمت وينتظر كما حال الرجال الآخرين ذوي الوشوم المريبة.
لم يكن واعياً بالقدر الكافي ليستنتج ما يحدث، ولكنه لم يحتج لكثير من الذكاء أيضاً كي يدرك أنهم قد دسّوا له شيئاً في المشروب، قد يكون مجرد مخدر، أو ربما هو سم زُعاف، لا يهمه ما يسري الآن في دمه بقدر ما كان تركيزه منصباً على سيلينا، تلك الفتاة التي تمثل آخر لمحة من الإنسانية في حياته، ولكنه لم يكن يجرؤ على النظر لها لأن هذا سيعني أنه سيُغفِل عينه عن هؤلاء المُتربصين..
أجاب على سؤال سيلينا دون أن يُبعد عينيه عنهم:
- لا أدري ما الذي يحدث، ولكن لدي شعوراً قوياً يقول لي أننا سنموت بعد قليل!
بدأ جسده يرتخي ببطء، إذاً فقد شَرب مُنوماً، وهذا لو تدري أسوأ من السُم بكثير، هؤلاء لا يريدون قتله، بل يريدون ما هو أكثر!
لم يتلقَ عزرائيل رداً على كلامه من سيلينا، ألقى نظرة عليها فوجدها نائمة على الطاولة.. أدرك حينها أنه قد وقع في الفخ بقدميه.

يا لغبائه!
لقد أرخى حذره بسبب سيلينا، ولم يلحظ كل المكائد التي تُكاد له من حوله، والآن يجب أن يتحمل العواقب.. جفناه يَزِنان طِناً، يرفعهما بكل قوته ويشعر بهما وهما ينطبقان ببطء دون أن يستطيع فعل شيء حيال هذا، يده لا تستجيب له كي يستل مسدسه ويطلق النار على هؤلاء الأوغاد قبل أن يفعلوا به ما ينوون أن يفعلوه.
تنميل في أطرافه ينبئ بأنه سيفقد الشعور بها قريباً، بالإضافة لدوخة جعلت عينيه زائغتين، عدا عن ضربات مطرقة حادة في جمجمته، وكأن فرقة موسيقية كاملة تجلس داخل رأسه وترسل أشنع لحن يمكن أن تتخيله لتسبب له أكبر قدر من الألم.
هذه الغلطة ستكلفه روحه، وروح سيلينا، لقد ضحى بنفسه وبها عندما تشتت إنتباهه للحظات.. هذا ما يحدث حين تكون أحد أكبر المجرمين في مدينة كهذه، وترفض في الوقت نفسه أن تُحيط نفسك بحشد من الرجال لحمايتك، غروره هو من نال منه هذه المرة، كل ما فعله هؤلاء هو أنهم استغلوا ثقته الزائدة بنفسه ليطبقوا المصيدة عليه!
كان يريد أن يقول شيئاً، أن يشتمهم مثلاً، لن يستنجد بأحد فهو الأدرى بسلوك سكان حفرة القذارة التي يعيش فيها..
فقد عزرائيل توازنه فجأة وسقط عن كرسيه ليرتطم بالأرض بقوة دون أن يشعر بشيء لشدة الخدر الذي يحيط بأطرافه، وكانت آخر صورة رآها هي للرجال وهم ينهضون ليمشوا نحوه ببطء فيما كان يفقد الوعي!

فتح عزرائيل عينيه ببطء مع الصداع الحاد الذي يأكل رأسه، نظر حوله ليجد أنه في ما يظنه غرفة صغيرة، ولكن ظنه لم يدم عندما اكتشف أنها في الحقيقة زنزانة، كانت مظلمة نوعاً ما، عدا عن الضوء الذي يدخل من نافذة كبيرة مغطاة بقضبان حديدية.

لم تُسعفه ذاكرته بعد ليتذكر كيف أصبح في هذا المكان، كانت هناك غمامة تُحيط بأفكاره.. في زاوية الزنزانة لاحظ وجود شخص ما، راقدٌ كجثة، نهض ببطء وإقترب من الزاوية ليكتشف أنها امرأة ذات شعر أحمر ناري.. مع التمعن فيها اكتشف أنها آخر شخص قد يتوقعه..

كانت هذه هي ماري. ماري الدموية !

كان ما يحدث صادماً.. لم يكن هناك شيء مريب في الموضوع، كان عدد الأشياء المريبة لا يحصى!

طريقة وصوله لهذا المكان لا تهمه بقدر إهتمامه بهوية خاطفه، هوية الشخص الذي تجرأ على غدر عزرائيل بهذا الشكل وإختطافه ليرميه في زنزانة مع ماري الدموية، والتي تعد من أصدق أعدائه، أو ربما هي ألد أصدقائه، لا يهم.. المهم هو أنه لن يسكت على ما حدث، وسيكون مصير من فعل به هذا قاسياً للغاية، أقسى من قدرته على الاحتمال.

لو أن هذا الصداع يتوقف فقط، لكان بإمكانه التفكير بهدوء، نظر من خلال النافذة للخارج ليكتشف أنه في آخر مكان يتوقعه.

حارة الشياطين !

يا للسخرية، كانت آخر توقعاته في كل مرة هي الإجابة الصحيحة، يبدو أن هناك من بذل مجهوداً هائلاً، لأن إدهاش عزرائيل بعد كل ما مر به لم يكن مهمة سهلة.. ولكن هذا لم يكن

وقت التفكير، لذا أسرع نحو باب الزنزانة وأخذ يضربه بيديه بقوة وهو يصيح:

- افتحوا الباب !

بدأت ماري تستعيد وعيها كذلك مع صوت الخبطات على باب الزنزانة، اعتدلت ببطء وهي تنظر حولها، وما أن وقعت عيناها على عزرائيل حتى تحفزت وهي تلتصق بالجدار كقطة مذعورة تستعد للدخول في عراك، ابتسم عزرائيل رغماً عنه لرؤيتها بهذا الشكل وهو يقول:

- مساء الخير أيتها الحسناء !

تحسست ماري مؤخرة رأسها لتشعر برطوبة غريبة، وضعت يدها أمام عينيها لترى لمعة الدم الحمراء تحت الضوء القادم من النافذة،

سألته ماري في شك:

- ما الذي يحدث هنا ؟
- يمكنني أن أسألك السؤال ذاته.

كانت ماري تتنفس بصعوبة، سألته وهي تمسك برأسها :

- هل أنت من قام باختطافي ؟
- نظراً للدم الذي على يدك فيمكنني توقع أنك قد تلقيت ضربة من الخلف أفقدتك الوعي، وأنت تعرفين جيداً أن عزرائيل لا يضرب من الخلف.
- ويفترض بي أن أصدقك ؟

هز عزرائيل كتفيه في لا مبالاة قائلاً:

- لا أهتم إن صدقت كلامي أم لا، المهم هو أن أخرج من هنا الآن.

أخذت ماري تتحسس جيوبها وكأنه تبحث عن شيء ما ولكنها لا تستطيع إيجاده، انحنت بسرعة ورفعت بنطالها ثم أخرجت سكيناً صغيرة من جرابها، وفي حركة خاطفة كانت أمام عزرائيل

والسكين مثبتة على رقبته، تجمد عزرائيل مكانه فيما صاحت به ماري في عصبية :

- أخرجني من هنا، الآن!
- لو كان بإمكاني لفعلت، ولكنني حبيس هذه الزنزانة مثلك.
- أين نحن إذاً ؟
- انظري من النافذة وستعرفين..

ضغطت ماري السكين على رقبته أكثر، وهي تسأله بشك:

- كي تغدرني من الخلف مجدداً ؟

ابتسم عزرائيل وهو ينظر في عينيها مباشرة:

- حسناً، أنا أحاول الحفاظ على أعصابي قدر الإمكان، فأنا رجل مهذب في النهاية، ولكن إن قمت بتحريك السكين التي في يدك سنتيمتراً آخراً نحوي فأنا سأضطر ـ آسفاً ـ إلى تمزيقك إرباً !

الفصل التاسع عشر

حارة الشياطين

- أتعتقد حقاً أنك ستنجو بفعلتك هذه مني؟

سألته ماري بتحدٍ، فاتسعت ابتسامة عزرائيل وهو يشعر بالسكين وهو يضغط على جلده حتى يكاد يجرحه فعلاً، فتح فمه ليجيب ولكن صوت خطوات عديدة من الخارج وصلهم، نظرت ماري للباب في حذر وهي تسأله في شك:

- سأسألك للمرة الأخيرة، هل لك علاقة بما يحدث هنا ؟
- لست مضطراً للكذب، لو أنني من اختطفك، ولا دافع لدي كي أقوم بهذا، فهل سأجلس في الزنزانة ذاتها معك ؟ وهل سأترك هذه السكين معك ؟ يبدو أن من وضعنا هنا كان يريد منا قتل بعضنا على الأغلب..

تركته ماري وهي تستدير نحو النافذة لتنظر من خلال قضبانها، وكانت المفاجأة شديدة بالنسبة لها.

- حارة الشياطين ؟!
- أعتقد أن هذا يدل على أنني بريء من التهمة التي وجهتيها لي.
- ما الذي يريدونه منا ؟
- هذا ما أريد معرفته.

كان صوت الخطوات يقترب ببطء، حتى أصبح قريباً للغاية، فُتحت نافذة صغيرة في منتصف باب الزنزانة ليظهر من خلالها

رجل ذو رأس حليق امتلأ بالوشوم، رسوم شيطانية غريبة، ابتسم لرؤيتهما وهو يقول بتشفِ:

- يبدو أن ضيوفنا قد استيقظوا..

استدار عزرائيل نحوه وهو يسأله:

- ما الذي تريده منا ؟

اتسعت ابتسامة الرجل وهو يرد:

- ستعرفون، فقط تذكروا تاريخ اليوم، وما يمثله بالنسبة لنا..

نظر عزرائيل وماري لبعضهما، فيما همست ماري سريعاً:

- يوم الفوضى ؟!

- بالضبط.. وأنا الكاهن المسؤول عن مراسم هذا اليوم، يمكنكما أن تناديني "نوسفيراتو" !

أمسكت ماري برأسها وقد بدت مصدومة، كانت تحاول استيعاب هذه المصيبة، لاحظ عزرائيل قلقها الشديد فانتابته الدهشة، لم يعتقد أن ماري قد تخاف بهذا الشكل من شيء.

راقبهما الكاهن "نوسفيراتو" في استمتاع ثم قال:

- سأترككما قليلاً ريثما ننتهي من تجهيز المذبح من أجلكما، وسأعترف أنني لا أطيق صبراً لأتذوق طعم لحمك يا عزرائيل!

أغلق "نوسفيراتو" النافذة الصغيرة بعد هذه العبارة، ثم تصاعد صوت خطوات تبتعد، نظر عزرائيل لماري متسائلاً:

- ما هو يوم الفوضى ؟

- إنه أحقر أيام السنة بلا منازع، لا أصدق أنك لا تعرفه..

- أخبريني عنه أكثر، ما المميز في هذا اليوم ؟

- هذا هو اليوم الذي يقوم فيه سكان الحارة بالتضحية بمئات القرابين من أجل استحضار لوسيفر !

سألها عزرائيل في حيرة:

- ولم يستحضرونه ؟

أجابته ماري في عصبية:

- وما أدراني ؟

جلست ماري على الأرض بشكل أقرب للانهيار:

- يا للسخرية، عجزت عصابات المدينة عن القضاء عليّ وها أنا أموت على يد أقذر سكانها..

اقترب عزرائيل من قضبان الزنزانة ناظراً للخارج وهو يقول مستغرباً:

- كيف لم أسمع عن هذا اليوم من قبل؟
- يبدو أنك تعيش في عالمك الخاص يا صديقي، ألم تقرأ ما حدث خلال الشهر الماضي في الجرائد؟ الجميع يتحدث عن يوم الفوضى، حتى أقسام الشرطة والمشافي تغلق أبوابها في هذا اليوم لأنها لا تملك القدرة للوقوف أمام عبدة الشيطان هؤلاء.. وكل ما حدث في الشهر الماضي لا شيء مقارنة بما يحدث في يوم واحد فقط..
- وما الذي حدث خلال هذا الشهر؟
- مبدئياً هناك المئات من حالات الاختطاف، فتيات وشباب وأطفال رُضع، عدا عن مقتل عشرات الفتيات العذراوات في طقس تمهيدي لليوم، ناهيك عن جثث الحيوانات التي لم يخلُ شارع في المدينة من إحداها.

كانت ماري تتحدث في رعب واضح، ثم أدركت أن الحديث لا يُجدي.. تذكرت نقطة هامة فنهضت سريعاً لتقترب من قضبان الزنزانة وتتأملها، قبل أن ترتسم على وجهها ابتسامة ساخرة، راقبها عزرائيل وهي تتفحص القضبان وتهزها بيدها، ثم سألها في شك:

- وما الذي سنفعله ؟

أجابته في ثقة:

- أنا سأخرج من هنا، وأنت افعل ما يحلو لك !

سألها في استغراب:

- كيف ستخرجين من هنا ؟
- قضبان الزنزانة متباعدة، أعتقد أنني قادرة على المرور من خلالها، أو هكذا أرجو.

أنهت ماري عبارتها ومدت رأسها محاولةً إخراجه من بين القضبان ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، اقترب عزرائيل وأمسك باثنين من القضبان وقام بشدهما في اتجاهين معاكسين فتحركا بعض الشيء بشكل سمح لرأس ماري بأن يخرج، وفي عدة حركات بهلوانية رشيقة تمكنت ما اخراج نصفها العلوي، ثم بدا أنها قد علقت بين القضبان.

تجمدت ماري محاولة استيعاب الموقف، فتدخل عزرائيل ليسألها:

- هل تحتاجين للمساعدة؟
- أعتقد أنك تدين لي بخدمة.
- هذا صحيح.

أمسك عزرائيل بساقي ماري ورفعهما، ثم دفعها ببطء لتنزلق من بين القضبان، وتسقط إلى الجانب الآخر، ولحسن حظها أنهما كانا في الطابق الأرضي، وقفت ماري وهي تنفض التراب عن ملابسها قائلة:

- شكراً.

قال لها عزرائيل ممازحاً:

- لم أعتقد أنه سيأتي يوم أقوم فيه برفع ساقي ماري الدموية!

ضحكت ماري وهي تقول ساخرة:

- يبدو أنه يوم سعدك.

كانت ماري تنظر له من الجانب الخارجي من الزنزانة، ابتسم عزرائيل وهو ينظر لما حولها قائلاً:

- يا لها من إطلالة جميلة..

سألته ماري في استغراب:

- أي إطلالة تلك؟ أنت في زنزانة !
- يبدو أنك لا تفهمين معنى السخرية يا عزيزتي..

نظرت ماري حولها لتتأكد من خلو المكان من أحد، ثم استدارت لعزرائيل لتسأله في اهتمام:

- ما الذي ستفعله؟
- سأحاول أن لا أموت على يد عبدة الشيطان.
- أرجو أن لا تموت، أنت لا تستحق الموت على أيديهم.
- وأنا أرجو أن تتمكني من الخروج من هذه الحارة دون أن يعترضكِ أحد شياطينها..

ابتسمت ماري ثم همست له بجدية:

- هل أنت خائف؟
- لن أخاف من مجموعة من الحمقى في أردية سوداء، صدقيني لست بهذه السذاجة.

ابتسمت ماري لثقته وهي تقول مُحذرة:

- صدقني أنت، هؤلاء الملاعين يستحقون أن تخاف منهم، كبير الكهنة هذا آكل لحوم بشر، وتهديده بأكلك ينم عن جوع وليس عن محاولة لإخافتك كما تتوقع!

مط عزرائيل شفتيه في لا مبالاة وهو يقول:

- لحمي أقسى من أن يهضمه جسده..
- سنرى.. وداعاً أيها الوسيم.
- الوداع.

أسرعت ماري مبتعدة عن المكان في حذر، راقبها عزرائيل حتى توارت عن ناظريه خلف أحد المباني، تراجع من بعدها وجلس على الأرض وهو يحاول التفكير في حل لهذه المصيبة، كان للتو يتذكر مصيبته التي تسببت في وضع جائزة على رأسه ليصبح مطلوباً "حياً أو ميتاً"، وها هو الآن في مصيبة أكبر، وقد لا يخرج منها حياً.. هذا الهدوء الذي حوله ينبئه أن العاصفة القادمة ستكون أكبر من كل ما واجهه في حياته!

كان عزرائيل في وضع لا يحسد عليه، زين منكمش على نفسه في زاوية عقله وهو يرتجف من الخوف، سوف يقتلونه بكل بساطة من أجل لوسيفر الملعون.
لم يخطر لعزرائيل يوماً أن نهايته ستكون في مكان وضيع كهذا، كيف له أن يعرف أن حارة الشياطين سيقبضون روح قابض الأرواح!

ليس من السهل وصف مشهد كهذا، كانت هناك عشرات الأشياء التي تحدث في الوقت ذاته، سكان الحي كلهم يجولون في شوارعه، بعضهم يرتدي ملابس عجيبة، والبعض الآخر عاري الجذع أو ربما يكون عارياً تماماً، مغطون بالوشوم الشيطانية، وتخرج من أفواههم ترانيم إبليسية غير مفهومة..

الأحمر سيد المشهد، والفوضى هي الحاكم الرئيسي لهذا اليوم، اسم على مسمى، فلا يمكن وصف ما يجري إلا بالفوضى العارمة، وكأنهم يحاولون تطبيق كل التعاويذ والطقوس التي ذكرت في الكتاب المقدس الشيطاني في سبيل استحضار إبليس وشياطينه..

الدم يغطي الأرض، وعليها تنعكس أضواء الشموع، وانعكاسات بشر وشياطين على السواء، يرقصون فرحاً بالقادم الرجيم، ضحكات ماجنة من عاهرات لوسيفر، وصيحات فرح وانتصار من الرُهبان والكهنة.

هناك دماء على الأرض، ولكن هذه ليست المشكلة بالنسبة لعزرائيل.. المشكلة هي أنه لا يدري من أي جسد نزفت !

دم المواشي اختلط بدم البشر على الأرض، ورؤوس الماعز تملأ الإسفلت، دم العذارى، وأعضاء بشرية ذكرته بكتاب قرأه عن الطقوس الشيطانية من قبل، لابد أن هذه الأعضاء تحوي كبد امرأة خائنة، وقلب رجل أرمل، أو عين طفل مصاب بالتوحد!

يبدو أن إبليس متطلب للغاية، ولديه قائمة طويلة صعبة التنفيذ كي يحضر ويتجسد أمام أتباعه، ولكنهم لم يكونوا يبالون بأي شيء سوى أن يأتي كما يبدو، لذا فهم يقومون بكل ما طلبه وأكثر.

خرج عزرائيل من بوابة المبنى الذي كان مأسوراً في إحدى زنازينه مرتدياً عباءة حمراء، وحوله عدد من الرهبان يمشون بجواره في تؤدة، كان مقيداً بسلاسل غليظة من يديه وقدميه، ويجر خلفه ثلاثة كرات حديدية ضخمة تزن كل منها ضعف

وزنه، يبدو المشهد من بعيد دون مبالغة كما لو أن مجرماً خطيراً يُساق نحو حبل مشنقته، الفارق الوحيد بين الاثنين هو أن من ينفذون الحكم فيه مجرمون بدورهم وليسوا رجال قانون.
كان هذا المعنى الحرفي لانقلاب السحر على الساحر، ها هو الشرير الكبير الذي اعتاد على معاقبة المجرمين وهو يُجر كخروف نحو حتفه على يدي مجرمين مثله!
تلفت عزرائيل حوله في دهشة لكم الفظائع التي تحدث في آن واحد، يراقب المشهد دون أن يستطيع التدخل بأي شكل، يتأمل الجرائم التي تجري أمام عينيه في عجز، هذا هو كابوس عزرائيل الحقيقي، أن يرى الظلم ولا يستطيع قتله!
الأحداث أكثر من أن يتم وصفها جميعاً، لا يعرف أين يركز، في الرسوم على الجدران والأرض،أم في الأضحيات الحيوانية والقرابين البشرية، أم في تلك الفتاة المعلقة على صليب مقلوب في قفص، ودمها ينزف على الأرض فيما يحوم من حولها الكهنة ليملؤوا كؤوسهم من دمها النازف.
تصُم أذنيه أصوات الصرخات المتعذبة، والتعاويذ العجيبة غير المفهومة والتي تهدف لتمجيد الشيطان، والتمهيد للأضاحي التي ستقدم تحت اسمه.. رجال ونساء يتجولون من حوله حاملين كؤوساً يستحيل أن يكون محتواها شيئاً غير الدم، لا يمكن بأي منطق أن يكون كل هؤلاء مولعين بعصير الفراولة ليشربوه في مناسبة كهذه!
هناك عبارة تتكرر بشدة بين كلام هؤلاء الشياطين:
- المجد للمتمرد الأول!
كان هذا عندما رأى المذبح المُنتظر الذي تحدث عنه الراهب.
وصل عزرائيل إلى المذبح ليجد سيلينا مقيدة إلى الأرض في دائرة من الشموع التي رسمت عليها نجمة خماسية، تحفز عزرائيل بشدة لمرآها في هذا الوضع وتحرك محاولاً الإفلات لمساعدتها ولكن الرهبان أسرعوا ليثبتوه مكانه، ونجحوا

بمساعدة الكرات الحديدية التي كانت ثقيلة كفاية لتمنعه من أي حركة مفاجئة، ارتخى مرغماً والغضب يشع من عينيه حتى يكاد يحرق كل من ينظر إليه.
لم تكن تلك مفاجأته الوحيدة، فبجوارها كان شارل يقف مُرتدياً عباءة حمراء تدل على أنه قُربان وليس مشاركاً في الطقوس،كان مقيداً مثله ويحمل في يده كأسٌ من الدم يرغمه الكهنة على الشرب منه وقد بدا عليه أنه سيتقيأ في أية لحظة.
كان المذبح عبارة عن عدة درجات من رخام، وعلى أرضيته نقش عميق على شكل نجمة خماسية وحولها دائرة من الشموع، وداخل الدائرة كانت سيلينا مقيدة، وشارل بجوارها لا يدري ما يفعله في مكان كهذا.. وأمامه كان الكاهن الأكبر "نوسفيراتو" ينتظر.
كان نوسفيراتو مختلفاً عن آخر مرة، كان نصف وجهه مغطى بوشم أحمر، وكأنه خرج من جهنم للتو، هؤلاء أخطر طائفة من عبدة الشيطان، ويدعون أنفسهم "الجهنميون"..
لقد سبق له التعامل معهم، وقتل بالفعل عدداً لا بأس به منهم، لذا كان يدرك خطورتهم واستعدادهم للقيام بأي شيء من أجل الشيطان.. أنت تتحدث عن عقيدة شيطانية، لا قيود فيها ولا تعرف أي قيمة أخلاقية، فكر عزرائيل حينها بفكرة عجيبة، إن كان هذا صحيحاً فهو يعيش في مدينة من عبدة الشيطان، فلا أحد منهم يملك ذرة من القيم أو المبادئ لتمنعه عن فعل شيء كهذا!
دفعه أحد الكهنة بعنف فسقط أرضاً، اعتدل في ألم ليجد نفسه جاثياً على ركبتيه، مطأطئ الرأس، ينتظر لحظة النهاية التي يبدو أنه سيتعذب بشدة حتى يصل إليها.
كانت عيناه على سيلينا التي رأته فبدأت تصرخ به مستنجدة، أما عن شارل فاتسعت عيناه لرؤيته واستدار ليتقيأ محتوى بطنه بأكمله على الأرض وسط ضحكات الرهبان..

صفق نوسفيراتو بيديه عدة مرات فهدأت الأصوات من حوله ليسمعوا كلامه، رفع رأسه في كبرياء وهو يقول:

- اليوم هو اليوم المنشود، اليوم الذي سترقص فيه الأرواح المحترقة فوق نيران الجحيم فرحاً بالقادم بعد غياب طويل، هذه مدينة الشيطان، المتمرد الأول في التاريخ..

كان عزرائيل يراقب المشهد في توتر، زين في داخله يرتجف مغمض العينين ولا يريد أن يرى ما يحدث، ذعره تخطى أي مقاييس، وعزرائيل يحاول الحفاظ على رباطة جأشه.

تابع نوسفيراتو تراتيله في خشوع:

- لا تحمل الشجرة المقدسة ثماراً ما لم تسقى بدم التضحية، دم القرابين هو الذي سيسعد لوسيفر..

مد نوسفيراتو يديه إلى الأمام وراحتاه موجهتان للأسفل، كان يعرف أن لوسيفر لن يكون في السماء، ثم تابع في توسل:

- فلتتجلى بيننا يا حامل الضياء.. لوسيفر، حارس الجحيم والخازن لمفاتيح الحياة والخلود.. افتح لنا بوابات الأرض وتقبل منا هذه الأضحية المتواضعة على مذبح الغفران، إرضَ عنا نحن خدامك المطيعون، لننشر الشر في هذه الأرض..

كان نوسفيراتو يتحدث عن أضحية، ولم يحتج عزرائيل لكثير من التفكير ليستنتج أن الأضحية هي سيلينا التي بدأت في الصراخ بكل رعب الدنيا بعدما استنتجت بنفسها ذات الأمر.

صاح عزرائيل في نوسفيراتو في وعيد:

- أقسم أنني سأقتلك إن مسستها بسوء.

ابتسم الكاهن في غبطة لرؤية عزرائيل غضباناً لهذا الحد، وإن كان خائفاً في داخله من توابع خروج هذا الغضب عن سيطرته.

نظر نوسفيراتو في عيني زين وهو يقول:

- لا تخف، لن أقتلها..

أنهى نوسفيراتو عبارته واقترب من شارل وفك قيوده وسط استغراب الأخير، ثم أخرج من جيبه خنجراً ذا مقبض أسود وعلى نصله كلمات ورسوم شيطانية، وناوله لشارل الذي أخذه دون أن يفهم ما يحدث..

نظر نوسفيراتو لعزرائيل وهو يقول مشيراً لشارل:

- هو من سيقتلها!

الفصل العشرون

إبليس شخصياً !

"هو من سيقتلها!"
وقعت هذه العبارة كصاعقة على عزرائيل وشارل، أخذ الأخير يرتجف، يده الحاملة للخنجر تهتز في تردد وهو ينظر لسيلينا التي ترجوه ودموعها تسيل كأنهار من عينيها، تهمس له كي يرحمها..
عزرائيل لم يكن في حال أفضل من سيلينا، لم يكن يثق بشارل، وكان شبه متأكد من أنه سيقتلها في النهاية.. اللعنة! كان عزرائيل نادماً لأنه أعطى وعداً لملاك أنه لن يؤذي هذا الحقير، الآن يجب عليه أن يتحمل عواقب فعلته، وسيلينا التي ستدفع ثمن خطئه.
يقترب نوسفيراتو من شارل ويهزه بعنف كي يوقظه من الحالة الغريبة التي أصابته، رجفته كانت حادة ولكن تدخل نوسفيراتو كان كفيلاً بأن يصحو ليكتشف أنه أمام حلّين لا ثالث لهما..
اقترب نوسفيراتو من أذن شارل وأخذ يهمس له دون أن يتمكن أحد من سماع ما يقوله له، صاح عزرائيل به في عصبية:

- لا تستمع لما يقوله يا شارل.

يبتعد نوسفيراتو عن شارل المتوتر الذي يرتجف كغسالة كهربائية قديمة الطراز، ثم يقول له بصوت عالٍ:

- أقتلها يا شارل، نفذ أوامر الشرير الأعظم كي يَحِلَ بيننا، وصدقني ستكون مكافأتك عظيمة.

يصرخ به عزرائيل في غضب:

- شارل، لا تتهور وتفعل شيئاً تندم عليه.

يسأله شارل في خوف:

- ماذا يمكنني أن أفعل سوى أن أنفذ أوامرهم.

يرفع عزرائيل صوته أكثر وهو يقول في وعيد:

- إفعل أي شيء ولكن لا تؤذها، لأنك ستصبح عدوي حينها وسأكسر وعداً شديد القدم بأنني لن أؤذيك، ساعتها لن أبالي بشيء وسأخلف بوعدٍ لأول مرة في حياتي كي أقتلك.

يظهر شبح ابتسامة على شفتي شارل فيما يقول ساخراً:

- لن تستطيع فعل شيء وأنت مكبل بهذا الشكل.

يحاول عزرائيل الوقوف لمنع شارل من قتل سيلينا، ولكن الكهنة يجبرونه على البقاء في وضعه رغماً عنه..

يصيح شارل في عزرائيل في تبرير لمّا رأى ثورته الغاضبة:

- حياتي أهم من حياتها..
- ستموت في كلتا الحالتين أيها الغبي، أتظنهم سيتركونك حياً، أنت ترتدي عباءة حمراء مثلي، هذا يعني أنك أضحية ولن تشرق شمس اليوم الجديد وأنت حي.

ينظر شارل لنوسفيراتو في خوف ثم يسأله:

- هل هذا صحيح؟

ترتسم ابتسامة صفراء على وجه نوسفيراتو المشوه وكأنه دجاجة نسيها صاحبها فوق النار مدة أطول من اللازم فخرج نصفها محروقاً والنص الآخر لا يزال نيئاً! هذه الابتسامة زادت شكله وحشية ورعباً، فيما اقترب من شارل ليمسح على كتفه مُطمئناً وهو يقول:

- لا تصدقه، ستبقى حياً وستنال مكافأتك من لوسيفر بنفسه، أنا متأكد من أنه سيقدر ما فعلته من أجله.

ينحني شارل ببطء مقترباً من سيلينا، ثم يجثو على ركبتيه أمامها، فيما كانت تصيح به في رجاء وتوسل:

- أرجوك، لا تقتلني أرجوك.

يخفض شارل رأسه في تردد وهو يقول:

- أنا مُجبر على قتلكِ، سيقتلونني إن لم أفعل.
- كلا أرجوك...

يضع شارل السكين على رقبة سيلينا فيما تابعت الأخيرة وصوتها بُح من شدة الصراخ والتوسل:

- كلا، أنا أتوسل إليك، دعني وشأني، لست مرغماً على فعل هذا يا شارل.. أرجوك.

يصيح به نوسفيراتو في انزعاج:

- أقتلها يا شارل، ليس لدينا اليوم بطوله!

يضغط شارل على الخنجر بين أصابعه ويهمس لسيلينا في اعتذار:

- أنا آسف.

كانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير، لم يعد عزرائيل قادراً على أخذ وضع المتفرج بعد الآن، وكان لابد أن يتدخل ويفعل شيئاً.

تحرك عزرائيل كي ينهض فأسرع نحوه الكهنة كي يمنعوه، ولكن عزرائيل كان أقوى منهم، كمية الخطر والتوتر في الموقف كانت تُغذيه وتزيد من قوته، الدم الأسود الذي يجري في عروقه يُكسبه قوة غير بشرية.

وقف عزرائيل بصعوبة بسبب عشرات الكهنة الذين يضغطون على كتفيه ورأسه ليبقى في وضع الركوع، لكنه وقف، قوته كانت أكبر منهم مجتمعين، كان عزرائيل غاضباً، وغضبه هذا هو الوقود الذي يزيده قوة عندما يكون في ظروف مثل هذه..

تزعزعت ثقة نوسفيراتو بعض الشيء لمرآى مخلوق بهذه القوة، فصاح بعزرائيل في عصبية وإن كانت نبرته تشي بخوفه:

- إركع.

ابتسم عزرائيل في استفزاز والكهنة يراقبونه في دهشة لجرأته وقوته، إبتعدوا عنه في حيرة وخوف فيما أسرع نوسفيراتو نحوه ودفعه محاولاً إرغامه على الركوع وهو يصرخ:

- إركع أمام لوسيفر أيها اللعين.

لم يتزحزح عزرائيل على أثر دفعة نوسفيراتو، بل اتسعت ابتسامته وكأن ذبابة ارتطمت بكتفه فحسب، ثم دفع عزرائيل بنوسفيراتو بعيداً ليسقط أرضاً بجوار سيلينا وشارل..

وقف عزرائيل أمام رجال الحارة ونسائها صائحاً بأعلى صوته، ونبرته تحمل كماً هائلاً من التحدي والوعيد في آن واحد:

- لقد رفض شيطانكم السجود من قبل، وأنا الآن أرفض الركوع له.. دعوه يخرج لي لنرى من هو الأحق باللقب، أنا أم هو، ومن بعدها قرروا إن كان يستحق العبادة، من يدري، قد ينتهي هذا اليوم بكم جميعاً وأنتم سُجَدٌ تحت قدمي !

كان نوسفيراتو يرتجف غضباً لهذا التحدي الصارخ، أدرك حينها أن العصبية لن تُجدي مع عزرائيل، ما سمعه عنه مرعب أكثر من الشيطان نفسه، لذا فالغضب لن يزيده إلا غضباً.

صاح نوسفيراتو بعزرائيل دون أن ينهض عن الأرض، لم يكن يملك القوة الكافية لينهض في هذه اللحظة:

- لا تقاوم إرادة الشيطان يا عزرائيل، إستسلم له ونفذ ما يطلبه كي يعفو عنك ويمنحك الفرصة لتعيش.
- أتبيع روحك للشيطان من أجل المال والسلطة والقوة؟
- ما ذكرته يستحق أن أبيع أولادي للحصول عليه، ثم أنني لم أبع روحي للشيطان، لقد قدمتها له مجاناً!

استشاط عزرائيل غضباً فوق غضبه، كانت أرواحهم رخيصة بحق، إنها ليست غالية حتى في عيون أصحابها!

أخفض نوسفيراتو صوته وهو يقول لعزرائيل:

- إركع يا عزرائيل، إركع لتثبت ولائك لإبليس.

ابتسم عزرائيل كي يستفز نوسفيراتو ثم قال:

- لا ولاء عندي لأحد، إبليسك لا يساوي عندي أكثر من لعنة!

ارتفع الدم لرأس نوسفيراتو حنقاً، أمسك بشعر شارل وشده بعنف وهو يصرخ في أذنه بعصبية:

- أقتلها، أقتلها الآن قبل أن أقتلك أيها الحقير.

تحرك شارل في توتر، وضع النصل على رقبة سيلينا التي صرخت بأعلى صوتها رعباً، وقبل أن يفكر عزرائيل في التحرك قام شارل بتمرير السكين على رقبة سيلينا غارساً إياها بعنف لينفر الدم من الجرح العميق، كان الجرح أعمق من أن يكون قابلاً للعلاج.

لقد قتلها الملعون!

إتسعت عينا عزرائيل في رعب للمشهد، وانهار دفعة واحدة على الأرض، وزين في داخله يجهش بالبكاء كطفل صغير.

نهض نوسفيراتو في سعادة عارمة وصاح بصوت عالٍ:

- لقد قتلها، القربان وصل ولوسيفر سيأتي في أية لحظة الآن.

ارتفعت صيحات الرجال السعيدة من حوله وهم يصرخون:

- المجد للمتمرد الأول!

سيلينا على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة، وعزرائيل متجمد مكانه دون قدرة على الحركة، عاجز عن فعل شيءسوى أن يراقبها وهي تفارق الحياة أمام عينيه، كانت تنظر لعزرائيل مباشرة، والدموع لا زالت تسيل من عينيها، حتى تجمدت ملامحها فجأة وارتخى رأسها مع فقدان عينيها بريق الحياة، لقد ماتت على المذبح الشيطاني..

- المجد للمتمرد الأول!

صرخ عزرائيل فيهم بكل غضب الدنيا:

- سأقتلك يا شارل، سأقتلكم جميعاً يا أبناء الخطيئة!
ابتسم نوسفيراتو في سخرية ناظراً لعزرائيل، ثم تحول بشكل كامل، اختفت الابتسامة عن وجهه وحلّت مكانها نظرة باردة، كان عزرائيل قادراً على استشعار كمٍ مُرعب من الطاقة السوداء التي بدأت تنبعث من نوسفيراتو، صمت الحاضرون جميعاً أمام هذا المشهد، وحتى الحيوانات، كل الكلاب التي كانت تعوي في الحي تجمدت وخرست ألسنتها، وتوقفت أصواتها دفعة واحدة في وقت واحد..
كان هذا إعلان قدوم إبليس إلى حارة الشياطين !
لقد نجح نوسفيراتو في استحضار الشيطان، وها هو حاضر في جسده، تلبسه لحاجته لجسد مادي كي يثبت وجوده دون شك.
نظر نوسفيراتو –أو إبليس لا فرق- حوله لرجاله الذي كانوا متجمدين في حضرة مشهد بهذه الهيبة.
تحدث إبليس أخيراً، بصوت رخيم عميق كأنه قادم من قعر بئر، يشبه فحيح الأفاعي نوعاً ما، نظراته التي يرميها يمنة ويسرة كانت حادة أكثر من شفرات الحلاقة.. لم يقل إبليس سوى بضعة كلمات:
- إبليس قد حضر يا أولادي!
كان بالكاد يحرك شفتيه ولكن صوته كان عالياً للغاية بحيث أنك تشعر أنه يقف بجوار أذنك، وارتفعت صيحات الرجال وتهليلاتهم بعد هذا، استجمع عزرائيل قوته كلها كي ينهض، إن كان سيموت فسيموت واقفاً، لن يمنح الشيطان شرف قتله وهو راكع تحت قدميه.
انتبه إبليس لوقوف عزرائيل، فابتسم ابتسامة تُشع شراً، اقترب منه لينظر في عينيه مباشرة، سأله عزرائيل في غير تصديق:
- إبليس؟
اتسعت ابتسامة ابليس أكثر وهو يقول:
- أخيراً تقابلها وجهاً لوجه يا عزرائيل!

- لكن هذا مستحيل!

هز إبليس رأسه ضاحكاً وهو يرد:

- لا شيء مستحيل عندما تدفع الثمن، حضور إبليس مُكلفٌ للغاية، لقد رأيت صديقتك وهي تذبح، ولكنك لم ترى بقية القتلى، حضوري أيها الصغير يستلزم 666 تضحية بشرية، ناهيكَ عن مئات الضحايا الحيوانية التي لا تستحق الذكر بعد ما ذُكر، هذا عدا عن أن كل قربان يجب أن يُقدم في طقس معين، لكن رجالي يحبونني ويريدون وجودي بينهم، ومستعدون للقيام بكل شيء من أجلي.. هذه المدينة هي مكاني المفضل، لا ينقصها سوى الشيطان ليحكمها ويدير أمورها.

بعد هذا الكلام لم يعرف عزرائيل ما يمكن أن يقال، كان وجهاً لوجهٍ مع إبليس، الرجيم الملعون في كل الأديان، حاضرٌ أمامه بشحمه ولحمه حتى أنك تستطيع لمسه لو أردت!

أمال إبليس رأسه لليمين متأملاً في ملامح عزرائيل في إمعان، ثم قال بلهجة آمرة:

- والآن اركع تحت قدمي!

نظر عزرائيل في عيني الشيطان وهو يقول في تحدي:

- لن أركع لك حتى وإن كان هذا آخر عمل أفعله في حياتي.
- أنت عنيد ومتمرد مثلي، وهذا يعجبني، لهذا أريدك إلى جانبي، وإن كان تمردك هذا نابعاً من غباء، لقد رفضت السجود لأنني أعظم من المخلوق الذي أُمِرتُ بالسجود له، أما أنت فلا تساوي شيئاً أمامي..

أشاح عزرائيل بوجهه بعيداً، وهو يقول في حنق:

- بالتأكيد، يمكنك قول ما شئت بكل بساطة، طالما أنا مقيد فأنت الطرف الأقوى!

سأله إبليس في اهتمام:

- أتعتقد أنك ندٌ لي إن فككت قيودك؟

- بالتأكيد.

أشار إبليس لرجاله قائلاً:

- فكوا قيوده.

أسرع الرجال دون تردد وقاموا بفك قيود عزرائيل كاملة، فما كان منه في اللحظة تحرر فيها إلا أن دفع الرجال عن يمينه وشماله بيديه ليسقطوا أرضاً من إثر الضربة وكأنه يستعرض قوته أمام إبليس.

يضحك إبليس بشدة لفعل عزرائيل، كانت ضحكته تهز المكان، وكأن هناك مكبرات صوت متوزعة في أرجاء الحي.

نظر لعزرائيل قائلاً:

- يا لها من حركة ظريفة.

أشار إبليس لأحد رجال بإصبعه وهو يقول:

- أنت.. تعال.

يقترب منه الرجل بسرعة ويركع تحت قدميه في إجلال، يشير له إبليس كي ينهض، ثم يمد يده ويحركها على رقبة الرجل، ثم يمسك برقبته ويكسرها بيد واحدة ليسقط الرجل جثة هامدة على الأرض.

فتح عزرائيل فمه ليقول شيئاً ولكن صوت سيارة عنيفاً اقتحم الهدوء في الحارة، استدار الجميع لمصدر الصوت ليجدوا سيارة حمراء مُصفحة تقتحم الحارة بسرعة جنونية، وخلف المقود تجلس ماري الدموية، تدهس كل من يعترض طريقها دون اكتراث حتى وصلت للمذبح، لتتوقف بحركة مفاجئة قبل أن تدهس عزرائيل بثوانٍ.

ترجلت ماري من السيارة حاملة سلاحاً رشاشاً يخرج من جانبه شريط رصاصات طويل، ودون تردد أمطرت الرجال بنيرانها، اخفض عزرائيل رأسه كي لا تصيبه رصاصة طائشة فيما انبطح شارل في ارتياع.

لم تكن ماري تهتم بما تصوب إليه، أي مخلوق يتحرك كان هدفاً له ولرصاصاتها، صَدَق من سمّاها "ماري الدموية"، لأن هذا مشهداً يحتوي على هذا القدر من الضحايا أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنه دموي، وكانت ماري الأشد براعة في تحويل أي مشهد عادي لآخر دموي.
كانت حولها مذبحة من عبدة الشيطان، المئات منهم قد سقطوا جثثاً هامدة أو انبطحوا ليحتموا من الرصاص.
كان إبليس يراقب المشهد دون أن يرمش له جفن، لم يكن يبالي بكل هؤلاء، لقد انتهت مهمتهم في اللحظة التي حضر بها، ووجودهم من بعدها كان مجرد إضافة للمشهد.
نظرت ماري لعزرائيل وصاحت بصوت مرتفع وقد بدا أن صوت سلاحها الرشاش الصاخب قد أضرّ بحاسة السمع عندها:
- أظننت أنني سأتركك لهم ليقتلوك؟
ابتسم عزرائيل في امتنان، فيما استلت ماري مسدساً مثبتاً في جعبة على خصرها ورمته لعزرائيل الذي نهض سريعاً وأطلق رصاصتين منه على رأس إبليس، الرصاصتان اقتحمتا جمجمته في النقطة ذاتها لترسم نقطة حمراء في منتصف جبهته قبل أن يسقط أرضاً دون حراك.
صاحت ماري في عزرائيل:
- فلنذهب.
استدار عزرائيل ليمضي مع ماري في اللحظة التي أسرع فيها شارل ليمسك بقدم عزرائيل وهو يهمس في توسل:
- أرجوك لا تتركني هنا، سيقتلونني.
ابتسم عزرائيل في تعاطف وهو يقول:
- لا تخف، لن أدعهم يقتلونك.
تنفس شارل الصعداء، ولكن راحته انتهت سريعاً عندما شعر بفوهة مسدس عزرائيل الباردة وقد التصقت بجبهته.
صاح به عزرائيل في عصبية:

- أنا من سأقتلك أيها اللعين،

أطلق عزرائيل رصاصة اخترقت رأس شارل ليسقط على الأرض جثة هامدة، فيما صرخ فيه عزرائيل بكل غضب الدنيا:

- هذه لأجل ملاك وسيلينا.

استدار عزرائيل ليمشي ببطء نحو ماري التي كانت تنظر لشيء خلفه في رعب شديد، تجمد عزرائيل في منتصف الطريق إليها واستدار ناظراً خلفه ليفاجئ بأغرب مشهد في حياته.

كان إبليس ينهض من على الأرض، ودمائه تنزف بغزارة على أرضية المذبح، حتى وقف أمامه وهناك ثقب في منتصف جبهته بدا من بعيد وكأنه عين ثالثة، أما عن عينيه فقد استحالتا سوداوتين تماماً..

ابتسم إبليس وهو يقول لعزرائيل:

- أظننت أن رصاصتين ستكونان كافيتين لقتلي؟

تحفزت عضلات عزرائيل بأكملها دفعة واحدة للمشهد، تحرك وأخذ السلاح الرشاش من ماري ثم صاح به في تحدي مباشر:

- ماذا عن مخزن رصاص كامل؟

قالها وأمطر إبليس بالرصاص، كانت الرصاصات تخترقه دون أن يتزحزح، دمه ينفر من كل بقعة في دمه حتى أصبح جسده أقرب للمنخل، ولكنه لا يزال واقفاً، ولا زالت الإبتسامة تحتل الجزء الأكبر من وجهه..

الدماء تسيل من فتحة الرصاصة في جبهة إبليس لتسيل على وجهه وعينيه ليبدو وكأنه يبكي دماً، بغض النظر عن أن نصف وجهه مطليٌ باللون الأحمر، إن كان نوسفيراتو يبدو شيطانياً من قبل، فالآن هو أمام الشيطان بذاته دون حواجز.

كان عزرائيل يقف لأول مرة أمام ندٍ حقيقي مرعب، لكن الفارق أن هذا الوحش لا يمكن قتله كما يبدو!

الغلاف الخلفي

الرقص غالباً ما يكون ممتعاً، لكن هذا لا ينطبق على مراقصة الموت، حيث تكون الموسيقى هي دقات قلبك الذي يحتضر، والأدوات الموسيقية هي حبالك الصوتية التي تصرخ في أنشودة من الألم والعذاب، أما عن كلمات الأغنية فهي مختصرة في كلمة واحدة: "الرحمة"!

ويبقى السؤال: "ألم تسألي نفسكِ لِمَ يخافُ أعتى رجال العصابات في هذه المدينة من حبيبك البريء؟"

كان ماضي عزرائيل في هذه المدينة داكناً للغاية، ولكن مستقبله فيها سيكون حالك السواد، هذه حكاية الموت وهو يصارع للحفاظ على حياته في وجه الجميع..

هذه حكاية عزرائيل ضد مدينة الرذيلة بأسرها!

رقصة مع الموت

الرقص غالباً ما يكون ممتعاً
لكن هذا لا ينطبق على مراقصة الموت
حيث تكون الموسيقى هي دقات قلبك الذي يحتضر
والأدوات الموسيقية هي حبالك الصوتية
التي تصرخ في أنشودة من الألم والعذاب
أما عن كلمات الأغنية
فهي مختصرة في كلمة واحدة: "الرحمة"!
ويبقى السؤال:
"ألم تسألي نفسكِ لِمَ يخافُ أعتى رجال العصابات
في هذه المدينة من حبيبكِ البريء؟"

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

ساحر الكتب
Mahrous Designer